

كتاب
الجمهورية
الطب والعلاج
فى مصر العثمانية وعهد محمد على
د. عماد عبد الرءوف الرطيل





www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة

جلاء جاب الله

رئيس التحرير

سيد حسين

الطب والعلاج في مصر العثمانية وعهد محمد على

د. عماد عبد الرءوف الرطيل

دار الجمهورية للصحافة

١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

أسعار البيع فى الخارج

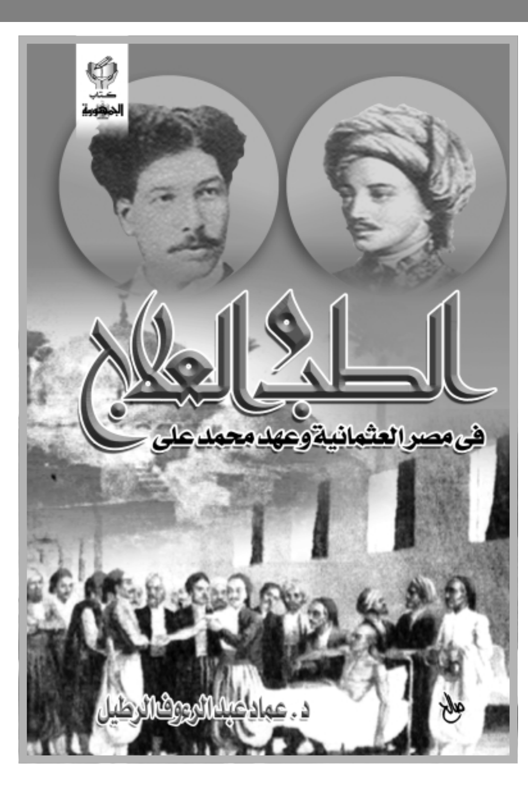
سوريا	٣٠٠ ل.س
لبنان	١٢٠٠ ل.ل
الأردن	٤٫٥ دينار
الكويت	٣ دنانير
السعودية	٣٠ ريالاً
البحرين	٣ دنانير
قطر	٣٠ ريالاً
الإمارات	٣٠ درهماً
سلطنة عُمان	٣ ريالات
تونس	٦ دنانير
المغرب	٩٠ درهماً
اليمن	٩٠٠ ريال
فلسطين	٦ دولارات
لندن	٦ جك
أمريكا	١٥ دولاراً
استراليا	١٥دولاراً استرالياً
سويسرا	١٥فرنكاً سويسرياً

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
١٨٠ جنيهًا
الدول العربية ٩٠ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
١١٥ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
١٣٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
١٧٥ دولارا أمريكيًا

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
25783333 25781010

http://www.eltahrir.net



تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

الاشراف الفنى

سـيد عبد الحفيظ

سكرتيرا التحرير

إبراهيـــم عــــوف
ميســــون شــلتوت

الطب والعلاج

فى

مصر العثمانية وعهد محمد على

إهداء

إلى أساتذتى الأفاضل وزملائى الأوفياء

الأستاذ الدكتور حسام كامل رئيس جامعة القاهرة السابق

الأستاذ الدكتور أحمد عيسى وزير الآثار السابق

الأستاذ الدكتور أحمد جلال وكيل كلية الآثار لشئون الدراسات العليا والبحوث

الأستاذ الدكتور محمود فوزى أستاذ أمراض النساء بطب قصر العينى والعالم الأثرى المرموق

الدكتور خالد فهمى أستاذ التاريخ بجامعة نيويورك والجامعة الأمريكية

الدكتور مصطفى بركات بآداب بنى سويف

الأستاذ الدكتور حسام الدين إسماعيل بآداب عين شمس

وإلى كل من يساهم فى رفع شأن العلم
أهدى هذا الكتاب

تقـــــديم

هذا الكتاب هو جزء من بحث أكاديمى، حصل به مؤلفه على درجة الدكتوراة فى الآثار الإسلامية من كلية الآثار، جامعة القاهرة، تحت عنوان: (دورالعلاج فى القاهرة من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى)، دراسة آثارية وثائقية عام ٢٠٠٦ م، يتناول فيه المؤلف جانباً من أهم الجوانب التى تمس حياة الناس فى مجتمع مدينة القاهرة، لأنه يتعلق بأمور تخص علاج الأمراض، وصحة الأبدان.

وليس المقصود من هذا الكتاب تتبع تاريخ نشأة الطب، وتطوره منذ القدم حتى وقتنا الحالى، ومدى ما أسهم به فى شفاء العلل وتخفيف الآلام، لكن الهدف الذى ينشده المؤلف من وراء هذا الكتاب، هو الإجابة عن سؤال طالما راوده طيلة سنوات دراسته، وهو: (كيف وأين كان يعالج المصريون طوال أربعة قرون من عام ١٥١٧ م، حتى عام ١٩٠٠ م)، وهى فترة شملت حكم الدولة العثمانية وجزءا كبيرا من حكم أسرة محمد على، ونظراً لقلة عدد المنشآت الطبية التي أقيمت في تلك الفترة فقد اعتمد المؤلف علي الدراسة الوثائقية أكثر من الآثارية المعمارية، والحق أن الوثائق أمدته بالعديد من المعلومات القيمة التى يكشف عنها للمرة الأولى، وبصفة خاصة، عند حديثه عن النهضة الطبية فى عهد محمد على، وكذلك تناوله للمخطوطات الطبية ومدى إسهامها فى الحفاظ على التقاليد الطبية المتوارثة، وما حوته من وصفات خففت إلى حد ما من آلام الناس ومعاناتهم.

وقد رأينا أن نشر هذا الجزء من الدراسة كفيل بأن يحقق للقارئ متعة المعرفة، فيما يخص هذا الجانب من حياة المصريين، فى تلك الفترة، دون إرهاقه بالمعلومات والإحصاءات الأكاديمية، وعليه فإننا نأمل أن يعوض هذا الكتاب بعض القصور فى هذا الجانب من المكتبة العربية، ويكون هادياً للباحثين فى تاريخ مصر من نواحٍ عدة.

مقـــــدمة

خلق الله الإنسان لحكمة قدرها جل جلاله، وأنزله إلى الأرض التى قدرها عليه منذ أبد الآبدين، بعد أن هيأها لاستقباله ليتخذها سكناً ويمارس عليها حياته بما فيها من تعب ونصب وصدق الله تعالى إذ يقول فى محكم آياته: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد».

ولم يترك الله الإنسان سدى، بل زوده عز وجل بمعطيات حياتية تناسب وتلائم طبيعة الحياة على هذه الأرض، ومنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها قدم الإنسان أرض الدنيا شرع فى التعامل مع تلك المعطيات، محاولاً أن يطوعها لقدراته، حتى يستطيع العيش عليها والتأقلم مع الظروف الطبيعية التى وجدها فيها.

ومن ثم بدأت رحلة الإنسان فى هذا الكون الفسيح منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى عصرنا الحالى، وكان على الإنسان تدبير أمر احتياجاته الأساسية من مأوى آمن يحميه هو وأسرته، وغذاء نافع يقيم أوده، وكساء يدفئه ويستره.

وفى سبيل ذلك واجه الإنسان كثيراً من الصعاب، حار فى تفسيرها، وكيفية مواجهتها، يأتى فى مقدمتها ما شعر به من آلام، وما ألم به من أمراض عديدة، وعجزه عن معرفة أسبابها وأسلوب تخفيفها أو درئها، وفى صراعه مع الآلام والأمراض بدأت تتكون اللبنات الأولى لمعارف طبية ظلت تتوارثها الأجيال وتضيف إليها وتعمل على تطويرها، حتى أصبحت علاجاً له أصول وقواعد ساعد كثيراً فى القضاء على كثير من الأمراض وتسكين الآلام وهو ما اصطلح عليه وعرف بعلم الطب وصحة الأبدان.

ولازم تطور الأمم والمجتمعات علمان، هما من أقدم العلوم الإنسانية، أحدهما

يعتنى بصحة الأبدان، والآخر يختص بالروح ويسمو بها، وقد سار كلا العلمين جنباً إلى جنب فى طريق تقدم البشرية، حيث يعدان من أجلِّ العلوم وأكثرها تبجيلاً، وقد أجمع المؤرخون على أن علم الطب وعلم الدين هما من أقدم العلوم التى عرفها الإنسان، ويمكن أن نتصور أمة بلا مدن ولا حضارة، ولكننا لا نتصور أمة بلا دين أو طب، ويتناول هذا الكتاب أحد هذين العلمين، وهو الطب الذى يعد من أشرف وأجل المهن منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه يقوم على تخفيف آلام المرضى والمتألمين فى كل مكان وحين.

وفى ذلك يقول الإمام الغزالى فى كتابه القيم (احياء علوم الدين) الجزء الأول ص٨١ : أشرف العلوم علم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية، وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف، وإن نسب الطب إلى الحساب كان الطب أشرف بثمرته، والحساب أشرف لأدلته، وبملاحقة الثمرة أولى لذلك علم الطب أشرف، وإن كان أكثره بالتخمين.

الطب فى اللغة:

الطباب لغة العلاج، والطبابة «حرفة» الطبيب، وطابه أى داواه وعالجه، والطب الحذق والمهارة، والطب علاج الجسم والنفس، ومنه علم الطب، وكلمة طب فى أبسط معانيها تعنى فن معالجة المرضى والمتألمين والمصابين، ومن هنا كانت مهنة الطب مهنة إنسانية بالدرجة الأولى، ولهذا كان بعض من امتهنها يريد أن تكون خالصة لوجه الله تعالى والإحسان إلى عبيده بعلاجهم دون أجر.

ويقول ابن خلدون فى مقدمته ص٤٦٤ : صناعة الطب تنظر فى علم بدن الإنسان، من حيث مرضه وصحته، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذى يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التى تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمذجة الأدوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولاً فى السجية (الطبيعة)، والفضلات والنبض محاذين بذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة فى حالتى الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشىء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب.

وقيل عن الطبيب إنه اسم يتناول من يطب، أما الذى يفحص ويصف الدواء فهو الطبائعى، ومن يستعمل المرود فهو الكحال، وصاحب المبضع والمراهم هو

الجرايحى، ومن يعمل بالموسى فهو الخاتن، وصاحب الريشة هو الفاصد، أما الحجام فيستعمل المشرط، وصاحب الوصل والرباط هو المجبر، أما المكواة والنار فالكواء، وصاحب القربة هو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان فاسم الطبيب يطلق فى اللغة على هؤلاء كلهم.

دور العلاج منذ فجر التاريخ

استطاع الإنسان من خلال ملاحظاته وتجاربه أن يكون لنفسه رصيداً حضارياً شمل جميع جوانب حياته، وبتوالى السنين وتعاقب العصور تطور هذا الرصيد الحضارى وتنوع بتنوع الأمم التى أسهمت كل منها بأفكارها وتجاربها فيه.

ويأتى الطب على رأس القائمة التى تضم المعارف الإنسانية، لأنه وبحق يعتبر واحداً من أجلِّ النجاحات التى حققها الإنسان فى مواجهته للظروف القاسية التى ألمت به، وقد عنى الباحثون كثيراً بدراسة الجذور التاريخية للطب والعلاج، وفن المداواة وتطوره، وطرق العلاج واختلافها، وظهور الأمراض وتنوعها، وانتشار الأوبئة وبشاعتها، وتناولوا أيضاً كيفية مواجهة الإنسان لها، من حيث نجاحه فى الحد من خطورتها واتقاء شرها وتخفيف آلامها، أو عجزه وقله حيلته فى صدها وفتكها به.

وجاءت دراسة المنشآت الطبية ودور العلاج فى ثنايا تلك الدراسات السابقة، ولم تحظ بعناية الباحثين كثيراً، مع أنها التطور الطبيعى والمنطقى لتقدم العلوم والمعارف الطبية، وقد أمدتنا الدراسات التاريخية بإسهامات الحضارات القديمة فى تطور طرق الطب والعلاج، وكيف كان لكل حضارة ما يميزها، ولكن هل فطنت تلك الحضارات، سواء كانت فى بلاد الرافدين، أو الشرق الأقصى، أو مصر القديمة، أو بلاد الإغريق، أو الرومان، لأهمية وجود أماكن تخصص لاستقبال المرضى، يقيمون فيها لينالوا قسطاً أوفر من العناية والرعاية الطبية، كما استدعت حالات بعض المرضى أن يكونوا فى أماكن خاصة نائية، نظراً لطبيعة مرضهم وسرعة انتقاله من إنسان إلى آخر فيما بعرف بالوباء وذلك حرصاً عليهم وعلى الاصحاء بطبيعة الحال.

وكما ذكرت سابقاً، فإن دور العلاج هى التطور المنطقى لتقدم المعارف والعلوم الطبية، لذا نجد أن الحضارات القديمة جاءت باللبنات الأولى لأماكن

الاستشفاء، صحيح أنها كانت أماكن ملحقة ببنايات نفعية أخرى، ولم تكن مستقلة بذاتها، ولكن كانت الفكرة فى حد ذاتها من الأهمية، بحيث دلت على تطور العقل البشرى، وإدراكه لما يفيده وينفعه.

إن المعلومات التى توافرت بشأن دور العلاج القديمة تعتبر من حيث الكم ضئيلة جداً، ولكنى استطعت أن أضع يدى على البدايات الأولى لهذه الدور وأماكنها والغرض من إنشائها وطبيعة الدور الذى لعبته.

إن أولى الإشارات لهذه الأماكن تؤكد أنها قامت، أول ما قامت، بين جدران المعابد فى جميع الحضارات القديمة، وهذا وضع طبيعى، لأن غالبية المشتغلين بالطب كانوا من الكهنة، ووضح ذلك بصورة جلية فى المعابد المصرية التى كانت تسمح بإقامة المرضى الذين أصيوا بأمراض عضال، حيث ينالون الرعاية، ويصرف لهم العلاج، إلى أن تمن عليهم الآلهة بالشفاء.

أما أول مركز لدار علاج منفصلة، فقد جاء فى إلياذة هوميروس عام ١٠٠٠ ق. م، عندما تحدث عن الطب ووصفه بأنه مهنة محترمة، وذكر أيضاً أنه كانت هناك دور علاج أطلق عليها اسم «أسكلينا» كانت منتشرة بأنحاء اليونان والأناضول، كما أدرك الطبيب «أبقراط» أهمية وجود مثل تلك المنشآت وأوصى ببنائها.

الإسلام والطب:

بعث الله عز وجل رسوله الكريم محمداً بن عبدالله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، وجاءت رسالته خاتمة جامعة شتى جوانب حياة الإنسان، وأهم هذه الجوانب هو ما يتعلق بصحة الإنسان والإبقاء عليه سليماً معافى، لذا فإن تعاليم الإسلام وحثه على النظافة التى هى قوام المظهر والعبادات، والاعتدال فى الطعام والصيام، وحركات الصلاة كلها تفيد الجسم من الناحية الطبية، كما جاءت المحرمات مثل الخمور وتناول لحم الخنزير وخلافه، لتحفظ صحة الإنسان، وإذ كانت رسالة الإسلام تهتم غاية الاهتمام بصحة الإنسان، فإنها أيضاً أولت اهتمامها بمحاربة الكهانة والسحر والشعوذة بالإقناع والقول الطيب تارة، والزجر والنهى تارة أخرى.

وقد حث الرسول الكريم على التداوى، وأن يكون ذلك على أيدى الأطباء،

فعن أسامة بن زيد قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أناس من الأعراب فسألوه يا رسول الله أنتداوى، قال: نعم تداووا فإن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له دواء.

وقال جابر رضى الله عنه: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طبيباً إلى كعبٍ فكواه، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: أصيب رجل من الأنصار يوم أُحد، فدعا رسول الله طبيبين كانا فى المدينة، فقال عالجاه، فقالا: يا رسول الله كنا نعالج ونحتال فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام فما هو إلا التوكل فقال: عالجاه، فبرأ من جرحه (أخرجه أبو داود والترمذى).

ومن يتأمل هدى النبى صلى الله عليه وسلم يجده أفضل هدى يمكن به حفظ الصحة، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء والنوم واليقظة والحركة والسكون والمنكح والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق والملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة والعافية، أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ.

ويذكر عن ابن عباس: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ما أسأل الله بعد الصلوات الخمسة، فقال سل الله العافية، فأعاد عليه فقال له فى الثالثة سل الله العافية فى الدنيا والآخرة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن ما روى وكتب عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أدى إلى ظهور ما يسمى بالطب النبوى، وهو فى اعتقادى فى منتهى الأهمية لأنه يمثل مرحلة الانتقال من طب الكهانة والشعوذة، إلى الطب المبنى على الملاحظة والتجارب العلمية، وكون الرسول عربياً، ومبعثه بين القبائل العربية أفاد الطب العربى كثيراً، لأن العرب كما يقول الأستاذ العقاد: كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم للأخذ بالأسباب العلمية فى الطب لأن الاشتغال الطويل برعى الإبل والماشية جعلهم يراقبون عن كثب ما يحدث من متغيرات أثناء الحمل والولادة، كما أنهم شرَّحوا الأجسام وتعرفوا مواقع الأعضاء منها وعرفوا عمل هذه الأعضاء فى بنية الحيوان، ومن ثم بلغوا حداً من المعرفة السليمة مكنتهم من الحد من المرض واستئصال الداء.

ويتساءل البعض عن الهوية الطبية للرسول الكريم، وما إذا كان الرسول طبيباً، أو أن ما ذكره من أمور طبية لا يعدو كونه اجتهادات ومعلومات.

والإجابة عن هذه التساؤلات ليست مجال كتابنا هذا، فالرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ البشرية من عثراتها المعنوية والحسية، وهو لا ينطق عن الهوى، فقد أمده الله سبحانه وتعالى بما يجعله قادراً على مداواة الأجسام بعد براعته فى مداواة النفوس.

والحق أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين العلاج المعنوى النفسى والعلاج الجسمانى، فيروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه بينما كان واقفاً يصلى لدغه عقرب، فقال صلى الله عليه وسلم: لعن الله العقرب، ما تدع نبياً ولا غيره، وأتى بإناء به ماء وملح، وبدأ بوضع إصبعه موضع اللدغة فى الإناء، ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين، فجمع بذلك بين العلاج المتاح آنذاك والعلاج النفسانى، وهو الرقى الخالى من غريب الكلام والطلاسم «اخرجه البخارى».

دور العلاج الإسلامية:

وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية أن يكون للمريض مكان خاص يستريح به ويلقى العناية الكافية التى تساعد على سرعة شفائه وعودته إلى حياته العادية.

فقد روى مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل من قريش يدعى ابن العرقة، رمى فى كاحله، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة فى المسجد يعوده من قريب، وقال ابن إسحاق فى السيرة: كان رسول الله قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، فى مسجده كانت تداوى الجرحى.

بهذا كانت خيمة رفيدة أول دار للعلاج فى الإسلام، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإقامتها فى ميدان المعركة، ثم أعقبها عبدالله بن الزبير بإقامة خيمة بجوار الكعبة أثناء حروبه مع الدولة الأموية، التى انشق عليها، ينقل إليها المرضى والجرحى للعلاج.

ورغم أن مثل هذه الأماكن لا ترقى لأن يطلق عليها دار للعلاج، فإنها كانت بمثابة إثارة الانتباه، لأن يكون للمرضى مكان لائق لإقامتهم، من حيث الراحة

والهدوء وتلقى العناية والعلاج بصورة أفضل مما لو كانوا فى أماكنهم الطبيعية.

ولعل الباعث على التوسع فى تشييد تلك المنشآت كان غير طبى، بيد أن المحرك الأول والدافع القوى كان مبعثه عقائدياً، اتساقاً مع ما ينادى به الإسلام من التراحم وبذل التضحية ومعاونة الغير، الأمر الذى ينال به المسلم أجراً ومثوبة من الله، فهو صدقة جارية حث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف على اغتنامها والفوز بها.

ومنذ العقود الأولى من العهد الإسلامى، انبرى العديد من المسلمين، حكاماً ومحكومين، من ذوى اليسار والتقى لتشييد دور العلاج على اختلاف أنواعها، هذا وقد عرف المسلمون أنماطاً عديدة من دور العلاج، وإن اختلفت فى مقدار ما تقدمه من خدمة، والأسباب التى أفضت إلى إقامتها، ولعل من أبرز هذه الدور البيمارستان النورى.

البيمارستان النورى الكبير:

ينسب هذا البيمارستان للسلطان نورالدين محمود بن زنكى ٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤ م، قام بتشييده بمدينة دمشق عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م، ضمن حركته النشطة فى بناء المدارس والمرافق العامة فى جميع أرجاء مملكته، ويقال إن سبب بناء هذا البيمارستان فدية قررت على أحد ملوك الفرنجة الذين تم أسرهم خلال حروب السلطان نور الدين الطويلة معهم، وكان مقدار الفدية ٣٠٠٠٠٠ دينار، أشار عليه خواصه بإنفاقها فى بناء بيمارستان يقدم العلاج والدواء لكل مصاب، فكان له ما أراد، فجاء من أعظم الجامعات الطبية فى ذلك العصر فى الشرق كله وكان قريب الشبه بما يسمى اليوم بالمستشفى المركزى، وظل يقدم رسالته حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى.

وقد اشترط فيه أن يكون مقصوراً على الفقراء والمساكين، أما إذا ندر وجود بعض الأدوية - فيما سواه - فيسمح للأغنياء بارتياده للحصول على حاجتهم من الأدوية، ومن جاء إليه مستوصفاً فلا يمنع من شرابه.

وكانوا يهتمون فيه بالفقراء من مرضى المسلمين الذين كانوا يلقون كل أشكال العناية ويتمتعون بأكبر قدر من الأمن وبكل متطلبات العيش، وقد اشتهر هذا البيمارستان بتدريس الطب، ومن أشهر من تولى مهمة التدريس به الطبيب

أبوالمجد بن أبى الحكم ت ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، بالإضافة إلى أنه أول من أسند إليه رياسة البيمارستان من قبل السلطان نور الدين محمود، وكان عندما يفرغ من المرور على المرضى كان يطمئن عليهم ويصف لهم الدواء، ويتفقد أحوالهم، كان يأتى إلى الديوان الكبير الموجود بالبيمارستان وجميعه مفروش، ويجلس ليقرأ من كتب الطب التى وقف الكثير منها السلطان نور الدين محمود، وجلس بين يديه عدد من الأطباء الصغار ليستمعوا له، ثم تجرى مناظرة لمدة ثلاث ساعات.

وقد أشاد المؤرخون الذين زاروا دمشق بالبيمارستان النورى ووصفوه وأفاضوا فى ذكر محاسنه وعدوه أحد مفاخر الإسلام.

دور العلاج فى مصر الإسلامية:

كانت هناك نهضة ساعدت كثيراً فى التصدى للعديد من الأمراض التى أصابت الناس وسببت لهم الآلام والأوجاع، وصاحب هذا التطور الكبير فى العلوم الطبية مبادرات عديدة لتشييد دورالعلاج تخصص للمرضى، يقيمون فيها ويتلقون العلاج والعناية والرعاية، وقد شهدت حواضر مصر الإسلامية بنايات من هذا القبيل أطلق عليها اسم بيمارستانات، والحق أن البيمارستان يعتبر أحد المنجزات الحضارية التى ارتبطت بانتشار الإسلام وقوته.

أولاً - بيمارستانات الفسطاط

تذكر المصادر أن أول بيمارستان بالفسطاط كان فى دار أبى زبيد بزقاق القناديل زمن الحكم الأموى، أما البيمارستان الثانى فقد نسب للوزير الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل على الله فى خط المعافر بمدينة الفسطاط.

ثانياً - بيمارستان القطائع

ويعرف باسم البيمارستان العتيق، كما كان يطلق عليه الأعلى، أنشأ هذا البيمارستان أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٤ م) سنة ٢٥٩ هـ، ويقال سنة ٢٦١ هـ، وبلغ قيمة ما أنفق عليه وعلى مستغله ٦٠٠٠٠ دينار، ووقف عليه سوق الرقيق وغيره، ولم يكن بمصر بيمارستان، وشرط ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك، وكان يشرف عليه بنفسه ويركب إليه يوماً فى الأسبوع، وقيل فى سبب بناء البيمارستان هو إصابة إحدى أميرات البيت الطولونى بالجنون،

فخصص لها أحمد بن طولون قصراً للبقاء فيه وحراستها، وبعد شفائها خصص القصر للمجانين ليعالجوا من أمراضهم، وبنى حول البيمارستان عدة مبان، وكل مريض يخصص له شخص للعناية به، وفى المساء وقبل النوم يتم عزف الموسيقى ويسمح للمريض بحرية التجول ساعتين نهاراً، وتوجد بالبيمارستان كميات كبيرة من الأدوية وعدد وفير من الأطباء، كما يوجد أماكن للفقراء، وكان يتم تصنيف المرضى حسب حالاتهم، وكل مريض يخصص له طبيب معين، وكانت هناك شروط لاختيار الأطباء فى القاهرة.

أما المرضى غير المجانين، فكان الواحد منهم إذا حضر للبيمارستان تنزع عنه ثيابه، ويؤخذ ما معه من مال ليحتفظ به لدى أمين البيمارستان، ويلبس ثياباً خاصة بالبيمارستان، ويخصص له مكان ينال فيه قسطاً من الراحة، ويقوم الأطباء بمعالجته ويعطى له الدواء مجاناً حتى يشفى، وكان دليل الشفاء من الداء للمريض أكل فروج كامل ورغيف دون أن يحدث له شىء، ثم يعطى له ماله ويرتدى ثيابه ويسمح له بمغادرة البيمارستان.

ثالثاً - بيمارستان الإخشيديين

أمر بإنشاء هذا البيمارستان (كافور الإخشيدى) مدبر دولة الأمير «أبى القاسم بن محمد بن الإخشيد»، ويقول ابن دقماق: إن هذا البيمارستان بناه الخازن الذى عمر المقياس بالزهراء، وعمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية، والحمامين المعروفين بحمامى بوران، وأجرى الماء إلى الحمامين والميضأتين من البئر التى فى الصناعة وذلك فى سنة ٣٤٦ هـ، وقال القضاعى إن الإخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على البيمارستان الأسفل والميضأتين والسقاية وأكفان الموتى، وذكر شيوخ مصر من المؤرخين أن هذا البيمارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والهواوين والطشوت وغير ذلك ما يساوى ٣ آلاف دينار، ونقل إليه من البيمارستان الأعلى الذى بناه أحمد بن طولون أضعاف ذلك، وليس به الآن شراب ولا دواء يلتمسه الفقير، وإنما يطبخ فيه فى السنة قدر يسير، وأكثر الضعفاء لا يصلون إليه ثم بطل ذلك، ويفهم من رواية ابن دقماق أن هذا البيمارستان كان قائماً حتى بداية القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى، (زمن حياة ابن دقماق ٧٥٠ - ٨٠٩ هـ / ١٣٤٩ - ١٤٠٦ م) إلا أن أمره قد آل إلى الخراب.

رابعاً - البيمارستانات الفاطمية

أقام الفاطميون خلافة قوية حاضرتها القاهرة واكتسبت دولتهم السمة الحضارية، وشغف خلفاؤها بحب المعرفة ورعاية العلوم وتشجيع العلماء لإثراء الحياة الثقافية، والفكرية، وكما سبق أن عرفنا فقد اهتموا بالطب واتخذوا الأطباء فأقاموا فى قصورهم وعلى الرغم من هذا ومع طول فترة حكمهم، فإن بناء البيمارستانات لم يتناسب مع تلك المعطيات السابقة، حتى أن جاستون فييت ذكر فى كتابه «القاهرة مدينة الفن والتجارة» ترجمة د. مصطفى العبادى ص٨٤ يقرر أنه لم يصل من عهد الفاطميين أى إشارة عن بناء مستشفيات فى عهدهم.

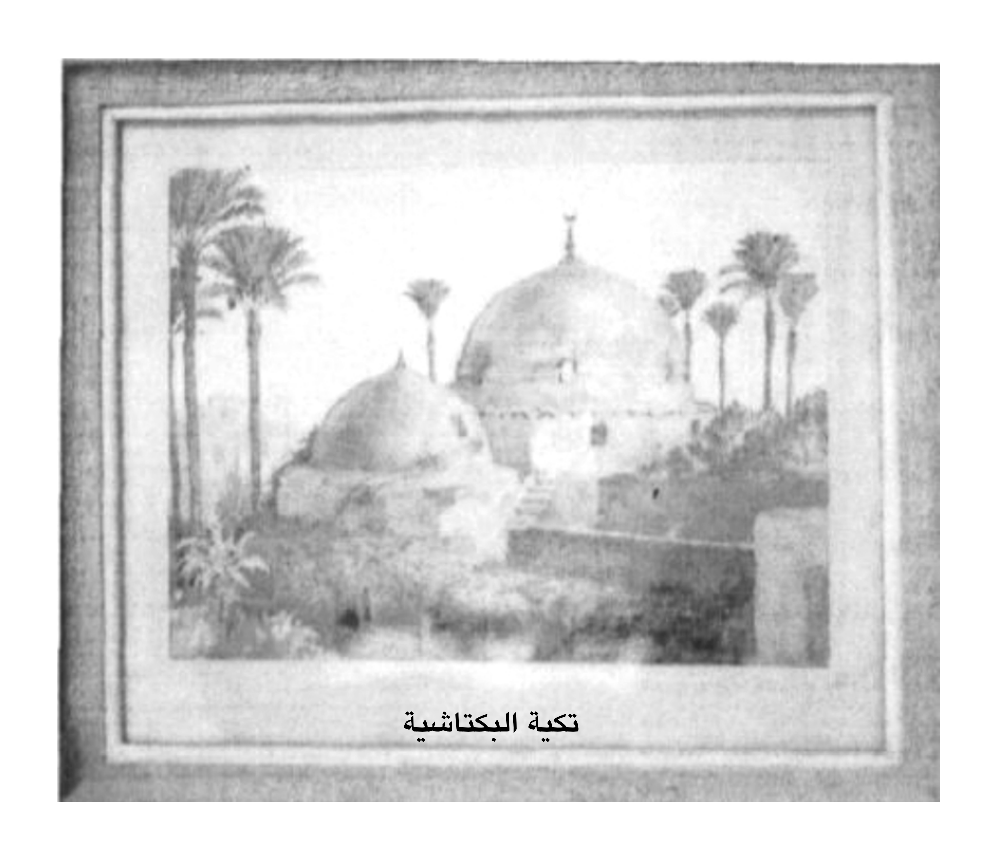
ولكن المصادر تمدنا بمعلومات عن تشييد بيمارستان بسوق القشاشين، وهو الموضع الذى عرف بالخراطين بالقرب من الجامع الأزهر، وأقام الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس فى قصره بيمارستانا رتب فيه عدداً كافياً من الأطباء يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التى كانت غالباً ما تعطى لهم مجاناً.

وروى ابن أصيبعة فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الاطباء» تحقيق د. عامر النجار ص٢٤٧ أنه كان يوجد بسوق السقطيين خارج باب زويلة بيمارستان عمل به الطبيب شهاب الدين أبوالحجاج يوسف الكحال.

خامساً - بيمارستانات الأيوبيين

آلت أمور مصر بعد زوال الخلافة الفاطمية إلى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، فكان رأس الدولة الأيوبية ومؤسسها ومنذ تولى مقاليد الأمور أخذ يعيد إلى القاهرة رونقها ويصلح ما أفسدته الأيام، كما وجه اهتمامه إلى تحسين الأحوال الصحية للمصريين، فاستولى على قصور الفاطميين، وكان فى أحدها قاعة بناها الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م، وحولها إلى بيمارستان أطلق عليه البيمارستان العتيق، وكان مما أمر به السلطان أن يكون هذا البيمارستان للمرضى والضعفاء واستخدم أطباء وكحالين وجراحين، وجعل به مشرفين وعمالاً وخدماً ليقوموا برعاية المرضى، فوجد الناس فيه نفعاً كبيراً.

♦ الفصل الأول



تكية البكتاشية

دور العلاج في القاهرة
في العصر العثماني

تمهيـــد:

التـقت قـوى المـاليك مع الجـيش العـثـمـانى فى مـوقـعـة مـرج دابق عـام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وكانت الغلبـة فيهـا لبنى عثمـان؛ فأذعنت دولة المماليك لمصيرها المحتوم، بعدمـا سـقط الغـورى قتيـلاً، وانهـزمت قـواتـه. ولم تلبث أن خـارت قـوى المـاليك بقـيـادة طومـان باى ووقـع فى يد سليم الأول الـذى لم يتـردد فى إعدامـه شنقاً على باب زويلة، ليعلن رسمياً انتهاء دولة المماليك عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

مكث سليم الأول فى مصـر ثمـانية أشـهـر إلا أيامـاً، يعيد ترتيب الأمـور فـيهـا، ويطمئـن على أحوالها. وكـانت مصـر من أهم ولايات الدولة العثمانيـة فى المشرق العربى، وكـان السـلاطين يختـارون لها باشوات ذوى مكانة مرموقة، نظراً لأهمية موقعها وأوقافها الكثيرة على الحرمين الشريفين.

وبهذا أصـبـحت مصـر ولاية عـثمـانيـة، بعـد أن كـانت دولة مـسـتقلة يحكمـهـا سلاطين أقـوياء، وأصـبـحت القـاهـرة عاصـمـة لإقليم، بعد أن كـانت عاصـمـة لدولة ذات سيادة.

واستتب الأمـر للعثمانيين، وكان لزاماً عليهم التعـامل مع الظروف التى وجدوا مـصـر عليهـا، وأيقـن السلطان سليم الأول، بثـاقب بصـره، أن أى تغـييـر جـوهـرى يطرأ على أسلوب الإدارة المحلية للبـلاد، سـوف يكون له عـواقب خطيـرة، فـاختـار خـاير بك والى حلب (والذى أسـدى إليـه خدمـات جليلة طوال فـتـرة الحـملة على مـصـر)، وعينـه أميـراً لـلأمـراء مدى الحـيـاة، ومنحـه سلطات واسـعـة لإدارة شـئـون مصـر.

ومـا إن تمـكن رجـال الإدارة العـثـمـانيـون من الإلمام بجـمـيع النواحى المـاليـة

والإدارية المتعلقة بأمور إقليم مصر، حتى بدأ الولاة العثمانيون يتوافدون الواحد تلو الآخر ببيورلدات (مراسيم سلطانية) تولية وعزل طيلة ثلاثة قرون هى عمر الحكم العثمانى لمصر.

إن المتأمل فى تاريخ الدولة العثمانية، يلاحظ أن الهدف الأول للدولة لم يكن إقامة المنشآت، وتعبيد الطرق، أو العمل على تحسين الزراعة والصناعة، أو تعميم التعليم وتوسيع نطاق التجارة؛ لا سيما فى عصرها الأول، بل كان مبتغاها الذى تسعى إليه هو الحرب والجهاد وتقوية نفوذها وسلطانها، واتبعت هذه السياسة فى الشرق والغرب على السواء، لذلك اختيرت العناصر الصالحة وأخضعت إلى تدريبات عسكرية شاقة، فبدت الدولة فى مجموعها، وكأنها جيش قائم بذاته، وأسكرت نشوة الانتصارات المتتالية سلاطين بنى عثمان، الأمر الذى أنساهم كثيرا من المسئوليات الحضارية تجاه الشعوب التى دانت لهم.

وإذا افترضنا جدلاً أن الفتوحات العثمانية كانت أحد الأسباب التى أدت إلى تقصير الدولة فى مسئولياتها تجاه رعاياها، فإن هناك أسباباً أخرى يأتى على رأسها أن العثمانيين أنفسهم لم يكن لهم رصيد حضارى عميق يقدمونه لمختلف نواحى الحياة، مثل الثقافة والفن والعلوم، ذلك أنهم عجزوا عن إبداع حضارة تكون وقفاً عليهم ومستمدة من تراثهم الفكرى الإبداعى، ومن ثم نراهم كثيراً ما تأثروا بحضارات البلدان التى فتحوها، كالحضارة البيزنطية والعربية والفارسية، وقد تميز العلماء الأتراك بالقدرة على استيعاب معطيات تلك الحضارات وتطبيقها بصيغ بيئية خالصة فى جلد وصبر شديدين.

ومن هذه الأسباب أيضاً أن الدولة العثمانية، كدولة إقطاعية من نوع معين، كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر فى مهام معينة، كجمع الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن داخلياً وخارجياً. أما فيما عدا ذلك من مسائل عامة، كالصحة والتعليم، فقد كانت الدولة العثمانية تعتبرها خارج نطاق مسئولياتها وتركتها دون حتى أدنى توجيه، فاهتم بها بعض الأفراد والجماعات.

يضاف إلى ذلك أيضاً ما طرأ على القاهرة من تغيير جذرى حوَّلها من عاصمة لمملكة مستقلة إلى عاصمة لولاية تابعة، الأمر الذى لم يكن له بعد سياسى فقط، ولكن كان له أيضاً أبعاد كثيرة، لعل أهمها البعدان الاجتماعى والثقافى العلمى، فعلى الصعيد الاجتماعى فقدت القاهرة البناة العظام من سلاطين وأمراء أقوياء، تسابقوا فى تشييد عمائر ذات صبغة اجتماعية، عادت

بعظيم الفائدة على الأهالى، وذلك لما كانوا يملكونه من ثروات طائلة وسطوة ونفوذ، ويأتى على رأس هذه المنشآت (دور العبادة والعلم والبيمارستانات والحمامات والأسبلة وغيرها).

ولم يغفلوا أيضاً قيمة الترويح عن النفس، حتى يجعلوا للأهالى متنفساً، فشيدوا المناظر الجميلة وعمروا البساتين الفيحاء، واعتنوا بالبرك وجعلوها دائماً نظيفة.

والحق أن نظام الحكم العثمانى الذى كان قوامه الوالى وبعض المعاونين، لم يتح لهم فرصة للقيام بأعمال حضارية تمس حياة الناس، الأمر الذى يحملنا على الاعتقاد بأن أياً من ولاة العثمانيين الذين تعاقبوا على حكم مصر لم يكن يحمل تعليمات عند قدومه توصيه بعمل أى نوع من الإصلاحات، ولم يتحدث المؤرخون عن قاصد واحد يحمل تعليمات تتعلق بتطهير ترع، أو إنشاء دار علاج، أو إصلاح مرافق، بل إن معظمها يتحدث عن أحكام وعزل وتعديل سكة وجرايات ميرى وزيادة ضرائب والحث على إرسال أموال للخزينة السلطانية العامرة.

وحتى المنشآت التى أقامها بعض الولاة العثمانيين، فإنها فى الغالب كانت ذات نفع مادى، وتعود بمردود اقتصادى على صاحبها، مثل الوكالات التجارية كالتى أنشأها كل من سليمان باشا، وحسن باشا، وإسكندر باشا.

وإذا كان الطب والحالة الصحية هما غايتنا فى هذا الكتاب، فإنها للأسف أصابها ما أصاب المرافق الأخرى من قصور وإهمال، لأنها لم تكن بعيدة عن تلك السلبيات، هذا مع التسليم بأهميتها القصوى لارتباطها بحياة الناس وقدرتهم على الاحتفاظ بصحتهم وحيويتهم.

ومن ثم فقد عانت الشئون الصحية وصحة المصريين كثيراً من الإهمال وعدم الاكتراث خلال العصر العثمانى، حيث لم تلق العناية الكافية من السلطات، ومما ساعد على وطأة هذه الأوضاع الجهل الشديد - الذى أصاب الأهالى - بأبسط القواعد الصحية والنظافة العامة.

وقد ساعد على تردى الحالة الصحية فى مصر طيلة الفترة العثمانية، بعض الأفكار الخاطئة وانتشار الخرافات، والاعتقاد فى الدجل والشعوذة والخزعبلات، الأمر الذى أدى إلى وجود تيار مناهض للإقبال على العلوم العقلية فى القرن الثامن عشر، كالرياضيات والفلك والطب والكيمياء، وذهب

البعض إلى أبعد من ذلك، حيث بالغ فى وجوب تحريمها، إذاً فليس بغريب أن يتقلص عدد المشتغلين بهذه العلوم وعلى رأسها الطب والصيدلة.

ومع أن السلطان سليم الأول مكث نحو ثمانية أشهر فى مصر ليعيد ترتيب الأمور فيها، كما سبق أن ذكرنا، فإن المصادر لم تذكر أنه عمد من قريب، أو من بعيد إلى اتخاذ إجراءات تتعلق بالصحة العامة، ولعل أول إشارة رسمية لمثل هذه الإجراءات ما ورد فى قانون نامة مصر (١٥٢٥م) الذى ألزم الوالى بمتابعة أمر النظافة، ومقاومة التلوث الناتج عن إهمال كنس الشوارع بانتظام ورشها بالمياه، فإنه لم يحدد مؤسسة رسمية نوعية تنهض بهذا الأمر، بل إنه نص صراحة على قيام الأهالى بها، كما جرت العادة قديماً، ومن لم يقم منهم بتنظيف مكان فى عهدته وتركه ملوثاً فإنه يعاقب أشد العقاب.

أما أولى المحاولات التى جرت للوقاية والحد من انتشار المشكلات الصحية فى مصر، واصطبغت بصبغة رسمية، فهو ذلك القرار الذى صدر عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م، بقتل جميع الكلاب الضالة فى جميع شوارع القاهرة وأحيائها، أثناء هبوب رياح الخماسين، تجنباً ووقاية من الطاعون.

والحق أنه كان قراراً لم يعتده المصريون وواجهوه بضيق شديد ومقاومة عنيفة، بل تشفعوا لدى الحكومة لإبطاله والإبقاء على الكلاب، لأنهم كانوا يعدون قتلها نذير شؤم، هذا بالرغم من أن العثمانيين يعملون بهذا الإجراء فى إسطنبول، ولكن إزاء هذا الإصرار الشعبى اضطروا إلى إلغائه، بل لم يعملوا حتى على إحيائه طيلة فترة حكمهم فى مصر.

المشكلات الصحية فى مصر زمن الدولة العثمانية

إن المشكلات الصحية فى مصر لم تكن وليدة العصر العثمانى ولا نتاجاً لسياسته، ولكن استفحال خطر هذه المشكلات وتوطنها بهذا البلد كان من سلبيات ذلك العصر، بيد أن المشكلات الصحية قلما كانت تشغل بال السلطات العثمانية. فكثر الإهمال لشئون المرافق والخدمات الصحية، بسبب انعدام وجود مؤسسات، أو إدارات متخصصة تنهض بهذه المسئوليات، ونتج عن تلك السياسة بعض الظواهر السلبية التى لازمت العصر العثمانى كله تقريباً، باستثناء بعض الجهود الفردية التى بذلت للحد منها، والتخفيف من آثارها، ومن هذه الظواهر:

١) زيادة ارتفاع أرض شوارع وحارات القاهرة بطريقة أصبحت معها فتحات

أبواب الدور والحوانيت وغيرها أقل من مستوى الطرق والحارات، وكان قوام هذه الزيادة أطناناً من الأتربة والقاذورات التى تحمل كثيراً من الأوبئة والحشرات الخطيرة. وقد تنبه أحد الولاة العثمانيين إلى خطورة هذه الظاهرة وهو محمد باشا قول (١٠١٦- ١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) فأصدر أوامره بإزالة مقدار ذراع من جميع شوارع القاهرة.

وحدث أيضاً فى فترة حكم (قرا محمد باشا) الذى حضر إلى مصر (١٤ ربيع ثان ١١١١/ غرة رجب ١١١٦هـ-١٦ أكتوبر ١٦٩٩/٣٠ أكتوبر ١٧٠٤م)، حيث أمر بهدم الدكاكين لتوسعة الطريق وجعل عرض المصاطب عشرين قيراطاً، ثم نادى بإزالة الأتربة من الأرض وتمهيدها، فأزيل نحو ذراع من كل شارع حتى ظهرت الجدران.

٢) تلوث الخليج المتصل بالنيل والذى يشق القاهرة من وسطها (وهو المصدر الرئيسى لتغذية القاهرة بالماء) بأكبر مصدر من مصادر التلوث، فهو من جهة كان مصباً للصرف الصحى طوال العام، ومن جهة أخرى كان يلقى به الشىء الكثير من أنواع المخلفات والقاذورات من قبل الأهالى، والحق أنه نظراً لأهمية الخليج، فقد رصدت السلطات مبلغ ١٠٠٠٠٠ بارة تدفع سنوياً من أجل تطهير الخليج ورفع النفايات منه، ومن الولاة العثمانيين الذين قاموا بدورهم فى سبيل الحفاظ على صحة الأهالى وحمايتهم من الأمراض الوزير مصطفى باشا (١٠٣٢-١٠٣٥هـ/١٦٢٣-١٦٢٦م) الذى أصدر بيورلدى (مرسوماً سلطانياً) حث فيه الأهالى على الامتناع عن التزود من مياه الخليج لمدة (سبعة أيام)، ومع ذلك لم يكن السقاءون يتورعون عن جلب المياه منه، حتى لو كانت مياهه آسنة، ولم يجد الأهالى مناصاً من قبول هذه المياه والرضا بها.

٣) البرك التى توسطت القاهرة، والتى كانت زمن سلاطين المماليك مصدراً للترويح عن النفس ومتنفساً للأهالى، أصبحت مصدر إزعاج وقلق فى العصر العثمانى، لما أصبحت عليه من ركود وتحولها إلى مستنقعات يرتع فيها البعوض والذباب وتنبعث منها الروائح الكريهة، بالإضافة إلى كميات المخلفات والقاذورات التى تلقى بها وعلى حوافها، مما يتولد عن ذلك عفونة شديدة تكون تربة خصبة لتوالد كثير من الحشرات الناقلة لعدوى الأمراض.

٤) الكميات الكبيرة من الأنقاض والقاذورات التى تراكمت على مدار سنوات، ووقف الأهالى حيالها عاجزين عن كيفية التصرف فيها، توصف بأنها كالجبال

تتصاعد منها روائح منفرة وسحابات دخانية سوداء، بلغ من كثافتها أنها كانت تحجب أشعة الشمس، فكان الناس يظنونها يوم القيامة، مثلما حدث فى عام ١٦٩٤م، وكان من أسباب هذا التراكم ضيق شوارع القاهرة، كما يقول ناصر إبراهيم عند حديثه عن الأزمات الصحية فى مصر فى القرن ١٧ ص١٤٥، وعدم وجود أماكن معدة لوضع هذه النفايات بها، كما لم يكن هناك طائفة من العمال تقوم بجمعها ووضعها فى أماكن خارج حدود المدينة، والحق أنه بمقارنة بسيطة بين شوارع بعض مدن أوروبا، نرى أن هناك مبالغة فى وصف ضيق شوارع مدن أوروبا، والسبب فى ذلك ربما يعود للظروف المحلية للقاهرة، فالوقود نادر وباهظ الثمن، ولذلك فإن السكان يجمعون أى شئ يمكن أن يكون بديلاً عنه من الشوارع، وبالتالى لا يوجد قمامة من أى نوع ولا أعشاب، أما جيف الحيوانات، مهما يكن حجمها، فإنها تحمل إلى خارج المدينة، وهناك تلتهمها أعداد لا حصر لها من الكلاب والطيور الجارحة، إذ أنها تعيش فى الشوارع على أى شئ تعثر عليه.

كان ذلك مقدمة لما آلت إليه الحالة الصحية للمصريين أواخر حكم دولة المماليك، وبداية حكم الدولة العثمانية، وكيف كانت اهتمامات الدولة بعيدة كل البعد عن تلبية الاحتياجات الأساسية التى تضمن حياة آمنة لرعاياها.

صحيح أن الدولة العثمانية دولة عسكرية فى المقام الأول، ولكنها سيطرت على مساحات شاسعة وبلاد كثيرة، كان لها رصيد حضارى استفاد منه كثيراً العثمانيون، لا سيما فى مجال التشييد والبناء، وكان مما شاهدوه وقلدوه تلك المنشآت الصحية الضخمة التى شيدت فى منطقة آسيا الصغرى.. وتلك أهم الأمثلة التى استقى منها العثمانيون عناصر وقيم منشآتهم الصحية.

دور ومنشآت العثمانيين الطبية

عرف العثمانيون بناء البيمارستانات قبل فتحهم مدينة القسطنطينية ٨٥٩هـ/١٤٥٣م، لذا رأيت مناسباً أن أبدأ الحديث عن دور العلاج فى هذه الفترة بالبيمارستانات التى شيدت فى منطقة الأناضول، لأنها الأمثلة التى احتذى بها العثمانيون فى بناء بيمارستاناتهم، وعن طريقها أيضاً عرفوا قيمة بناء تلك المنشآت من ناحية تقديم الرعاية الطبية للمرضى وتخفيف المعاناة عنهم، كما

أنها تعتبر من أعمال الخير والبر التى ينال بها صاحبها عظيم الثواب، وتعد نوعاً من الصدقة الجارية.

والحق أنه فى هذه الفترة من التاريخ، كان الشرق بصفة عامة أسبق من الغرب فى تشييد تلك البنايات الرائعة، كما أن العدد الذى شُيد فى الشرق أكبر بكثير من مثيله فى الغرب.

وقد شيدت فى بلاد الأناضول عدة بيمارستانات، كان لها عظيم الأثر فى تخفيف آلام الأهالى فى تلك الجهات، ولعل الظاهرة التى تلفت الانتباه هنا أن بنايات هذه المستشفيات لم تكن قائمة بذاتها، بل كانت دائماً ما تشيد ضمن مجموعة معمارية تضم العديد من الوحدات المعمارية مختلفة الوظائف. ولقد أخذ العثمانيون ذلك النظام المعمارى، وطبقوه فى دولتهم، واستمر العمل به حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وأول هذه البيمارستانات كان فى مدينة قيصرية زمن السلاجقة، شيدتها جوهر نسيبة عام ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، وكانت تقع بجانب مدرسة أنشأها شقيقها (غياث الدين كيخسرو الأول) مساحتها ٤٠-٦٠متراً، ذات أربعة إيوانات بسيطة، وتضم مدرسة للطب، وقد أطلق على البيمارستان والمدرسة لقب (المدرسة التوأم)، وكان يصل المبنيين دهليز لطيف، وترجع أهمية هذا البناء إلى أنه يضم أقدم بيمارستان فى الأناضول.

وأورد د. أحمد عيسى فى مؤلفه القيم «تاريخ البيمارستانات الإسلامية» فقرة من النص التأسيسى ورد فيها: "أيام السلطان المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن قليج أرسلان دامت اتفق بناء هذا البيمارستان وصية عن الملكة عصمة الدنيا والدين نسيبة ابنة قليج أرسلان سنة ٦٠٢هـ.

وثانى هذه البيمارستانات ذلك الذى شيده السلطان عز الدين كيكاوس الأول، بمدينة سيواس عام ٦١٤هـ/١٢١٨م، ويعد أضخم بيمارستانات السلاجقة إذ تبلغ مساحته ٤٨ - ٦٨مترا، وهو عبارة عن بناء ذى أربعة إيوانات يتوسطها فناء تطل عليه بوائك تفتح بها غرف النوم وحجرات ذات مدافئ، ويوجد على جانبى عقد الإيوان الكبير رأسان لآدميين رجل وأمرأة فى حالة سيئة يمثلان الشمس والقمر، وإلى جانب البيمارستان توجد المقبرة ذات العشرة الأضلاع، ويعد الاثنان من الأمثلة الفنية عالية المستوى. وإلى جانب البيمارستان كانت توجد مدرسة الطب، وكان يدخل لها عن طريق الأيوان يسار الداخل للبيمارستان.

وجاء فى النص التأسيسى لهذا البيمارستان ما يلى "أمر بعمارة هذه الدار لرضاء الله تعالى السلطان الغالب بأمر الله عز الدنيا والدين ركن الإسلام والمسلمين سلطان البر والبحر تاج آل سلجوق أبو الفتح كيكاوس بن كيخسرو برهان أمير المؤمنين ٦١٤هـ".

وجاء فى كتاب «الوقف» عن أوصاف الأطباء الذين ينبغى الاستعانة بهم ما يلى: "فى تقدير واردات الأطباء الحاذقين المترفين الفائقين المجربين المهذبين غير المتحذلقين والكحالين الفاضلين والجراحين المصلحين الشفقين الرفيقين القاضين بها، وترتيب تحصيل الأدوية والعقاقير".

وكانت البيمارستانات بصفة عامة أماكن يمارس فيها التطبيق العملى لما يدرس نظرياً فى مدارس الطب، وكانت تعالج بها أمراض العيون وأمراض الجلد والأوجاع الداخلية والاضطرابات العقلية إلى جانب دروس تعطى للمرضى، وكان معروفاً لدى أطباء القرن الثالث عشر الميلادى معالجة مرضى الاضطرابات العقلية بالموسيقى والإيحاء بالنوم.

وثالث هذه البيمارستانات التى شيدت كان بيمارستان الملكة (توران خاتون) بمدينة (يوركى) إلى جانب المسجد الذى شيده زوجها (أحمد شاه بن سليمان شاه بن شهنشاه) فى عام ٦٢٦/٦٢٨هـ/١٢٢٩م. وجاء بناء البيمارستان أكثر توفيقاً فى عمارته من المسجد الملاصق له، كما أنه من ناحية المظهر أكثر روعة وبساطة، وهو لا يزال يحتفظ بخصائصه القديمة التى تربطه معمارياً بمجموعة المدارس ذات القباب، وسقف البيمارستان به شخشيخة، كما ضم غرفة بها مدفأة تقع فى الركن الشمالى الشرقى منه بها باب يوصلها للمسجد. وتعد الزخارف الموجودة بذلك البيمارستان من أروع النماذج فى العمارة السلجوقية، لكن المهندس الذى قام بالتصميم ويدعى خرمشاه قد جانبه التوفيق فى بناء واجهة تتمتع، إما بالمهابة والقوة، أو بالجمال والرونق، ولكى يخفف من حدة صرامة هذه الواجهة فتح بها أربعة أبواب، كان أحدها وهو الخاص بالبيمارستان على الطراز القوطى. وقد أضيفت بعض الدعامات المستديرة إلى الحائط الذى توجد به المئذنة زمن السلطان سليمان القانونى، ويعتبر هذا البيمارستان ذا أسلوب رفيع فى مستواه وقيمته، وهو من تلك النماذج الأولى للمدارس السلجوقية ذات القباب، كما أنه يتكون من طابقين.

ورابع هذه البيمارستانات ذلك الذى شيده السلطان أولجاتيو وزوجته يلديز خاتون فى مدينة أماسية عام ٧٠٨هـ/١٣٠٩م، وتولى الإشراف على البناء عنبر بن عبدالله مملوك السلطان أولجاتيو، وقد جاء تخطيط البيمارستان وفقاً لتخطيط المدارس السلجوقية، إذ نجد فى البيمارستان الفناء ذا البوائك وذا الإيوانين، أما الواجهة فقد كسيت بمجموعة من الزخارف الفنية التى كست المداخل والنوافذ، وكانت العمليات الجراحية يجرى تنفيذها من أجل تدريب طلاب الطب، كما وجدت عدة بيمارستانات بمنطقة الأناضول اكتفى د. أحمد عيسى بذكر أسمائها وتاريخ سنوات إنشائها، ومنها (أ) بيمارستان علاء الدين قيقبا ديقونية ١٢١٩م، (ب) بيمارستان قصطاماوى أنشئ عام ١٢٧٢م، (ج) دار الطب ببروسة ١٣٣٩هـ، (د) بيمارستان للجذام(٢) بادرنة ١٤٣١هـ.

دور العلاج العثمانية

يعتبر بيمارستان السلطان (بيازيد الأول) أول البيمارستانات العثمانية، وهو يتكون من مجموعة من الغرف تغطيها الأقبية، ويطل على فناء مستطيل له صف من البوائك وبه شاذوران وقاعة كبيرة للدروس تعلوها قبة، وهى فى حالة سيئة الآن.

أما ثانى البيمارستانات التى شيدها العثمانيون فكان بيمارستان السلطان محمد الفاتح فى أسطنبول ضمن مجمع ضخم كانت نواته ومحور ارتكازه ذلك المسجد الضخم ذا القبة المركزية التى يبلغ قطرها ٢٦متراً، وقد شيده المهندس سنان الدين يوسف بن عامر ١٤٦٢/١٤٧٠م، وكان هذا المجمع الضخم يحوى مئات من القباب تغطى ١٦ مدرسة، كانت فى مجموعها بمثابة جامعة فى ذلك الوقت، كما كان يضم مطعماً وبيمارستان وخاناً وحمامات وعدداً من الأضرحة.

ومن الأطباء الذين عملوا فى هذا البيمارستان الطبيب المولى محمود بن الكمال الملقب بأضى جان المشتهر بأخى جلبى والذى عين طبيباً لدار السلطنة ورئيساً للأطباء فى البيمارستان الذى شيده السلطان محمد خان، وتوفى عام ٩٠٣هـ.

أما كبرى المجموعات المعمارية، فهى تلك التى شيدها السلطان بيازيد الثانى فى مدينة أدرنة بين عامى ١٤٨٤م و ١٤٨٨م، على يد المهندس (خير الدين) فكانت تشمل مسجداً وداراً للمرق وبيمارستان ومدرسة وحماماً ومطبخاً ومخزناً

للمؤن، ويعتبر هذا المجمع أضخم مؤسسة دينية واجتماعية أقيمت فى القرن الخامس عشر الميلادى، واشتمل هذا المجمع على أكثر من مائة قبة.

وقبة المسجد قطرها ٢١مترا ويقع البيمارستان ومدرسة الطب ومصحة الأمراض العقلية إلى الغرب من المسجد، وأهم أجزاء البيمارستان القاعة الكبرى التى تتوسطها فسقية تدور حولها ست حجرات صغيرات تغطيها القباب وست غرف أخرى للإدارة، ترتفع أرضيتها عن السابقة وتطل الغرف على الفناء ببوائك جميلة، ويتوسط الفناء مساحة خضراء يطل عليها المرضى من غرفهم المغطاة بقباب أيضاً، وكانت الموسيقى تعزف ثلاثة أيام فى الأسبوع، وبلغ عدد المعينين بخدمة المجمع ١٦٧ شخصاً، من بينهم ٢١ للبيمارستان، حيث كان منهم الطبيب الكبير، واثنان من المساعدين واثنان من الكحالين، واثنان من الجراحين، واثنان من الصيادلة، كما ضم هذا المجمع غرفاً لسكنى دارسى الطب بالمدرسة بلغ عددها ١٨ غرفة، بالإضافة إلى غرفة كبيرة للمذاكرة.

ومن ناحية أخرى فقد خلط د. أحمد عيسى بين السلطان سليم الأول، والسلطان بيازيد الثانى فى نسبة هذا البيمارستان إلى أى منهما.

ومن أشهر الأطباء الذين عملوا بهذا البيمارستان الحكيم شهاب الدين يوسف، الذى قرأ فى بدايته على علماء عصره، ثم رغب فى الطب وقرأ على الحكيم محيى الدين، ثم عين طبيباً فى بيمارستان أدرنة، وبيمارستان القسطنطينة، ثم عمل طبيباً خاصاً للسلطان سليم خان أثناء إمارته على بلدة طرابوزان، ولما جلس السلطان سليم على سرير الملك جعله طبيباً لدار السلطنة، ثم جعله رئيساً للأطباء، ودام على ذلك إلى أن توفى عام ٩٥١هـ، وكان يبلغ من العمر مائة سنة، أو أكثر، وكان رحمه الله عالماً صالحاً سليم الطبع حليم النفس، معرضاً عن أحوال الدنيا.

وفى عام ١٥٢٣م شيد جوبان مصطفى أحد ولاة مصر السابقين مجمعاً فى مدينة (كبزة) تولى أمر تشييده سنان باشا، وزخارف هذا المجمع تشبه إلى حد كبير أسلوب الزخارف المملوكية، حيث تظهر تطعيمات من الحجر المتعدد الألوان مع الرخام المستجلب من مصر، ويمتد سور يلف حول المجمع الذى كان يضم مسجداً ومدرسة وتكية وبيمارستاناً وداراً للمرق ومكتبة.

أما مجمع السلطان سليمان القانونى، فقد بدأ سنان باشا فى تشييده عام ١٥٥٠م، وانتهى منه فى عام ١٥٥٧م، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات، وقد

اشتمل هذا المجمع على أكبر وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، كما اشتمل على ١٨ مبنى، إلى جانب الأضرحة. ولم يذكر أصلان أبا صاحب كتاب فنون الترك أن المجمع ضم ضمن جنباته بيمارستاناً، ولكن أحمد عيسى ذكر أن السلطان سليمان بنى بيمارستان لمداواة المرضى والعناية بالمجانين وزوده بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين.

واستمر تشييد دور العلاج ضمن مجموعات معمارية تخدم عدة أغراض طيلة ثلاثة قرون، وكانت المرة الأولى التى شهدت تشييد بيمارستان قائم بذاته كانت على زمن السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٩م) أقامها على الشاطئ الآسيوى للبسفور، وهو البيمارستان العسكرى الذى جاء تصميمه غريبا نظراً لأن مصممه أرمنى الأصل.

دور العلاج فى القاهرة زمن العثمانيين

كانت دور العلاج فى مقر السلطنة العثمانية تشيد ضمن مجموعة معمارية خدمية، ولم تشيد منفصلة، كما أن عددها لا يتناسب أبداً مع عظمة الإمبراطورية واتساعها وثرائها وغناها، الذى كان مصدره الولايات الرازحة تحت نير العثمانيين.

وإذا كان الأمر كذلك فى مقر السلطنة فكيف كان الحال فى سائر الولايات؟

على أى حال دخل سليم الأول القاهرة، وأصبحت مصر ولاية عثمانية عام ١٥١٧م، ومن جملة ما يذكر للسلطان سليم الأول أنه أقر اختيار أمير الأمراء خاير بك (للزينى بركات) ناظراً للحسبة الشريفة، ومتولياً للنظر على البيمارستان المنصورى. ويعد الزينى بركات أول من تولى نظر الحسبة الشريفة والبيمارستان فى العهد العثمانى، ومما يذكر أنه كان أيضاً آخر من تولى الحسبة فى الدولة المملوكية.

وعند دخول العثمانيين مصر كانت القاهرة تزخر بعدد لا بأس به من المنشآت العلاجية، ظلت تؤدى رسالتها فى تقديم الخدمات العلاجية لأبنائها، بفضل الأوقاف الكثيرة التى أوقفها سلاطين المماليك عليها، الأمر الذى جعلها تستمر لفترة طويلة فى العصر العثمانى، حتى أن أحدها ظل يؤدى وظيفته حتى مطلع القرن العشرين. ومن أهم هذه المنشآت:

بيمارستان قلاوون:

أمر السلطان المنصور قلاوون سلطان مصر ٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م ببناء البيمارستان فى أول ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م بخط بين القصرين بمدينة القاهرة، وكان مكانه قاعة لست الملك ابنة العزيز بالله الفاطمى، وأخت الحاكم بأمر الله، قد آلت لورثة الملك الفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل بن أيوب، وأطلق عليها لذلك الدار القطبية.

وقد دخل صحن القاعة فى البناء الذى بلغت مساحته ١٠٦٠٠ذراع، وجاء على أربعة إيوانات بكل إيوان منها شاذروان (لوح مائل من الرخام ينساب عليه الماء) ويتوسط الدور قاعة فسقية يصير إليها الماء من الشاذروان.

ويقال إن سبب بناء البيمارستان مرض ألم بالسلطان قلاوون، عندما كان أميراً يقاتل الروم فى دمشق، فأحضر له دواء من البيمارستان النورى، فبرئ من مرضه، وعندما ركب ليزور البيمارستان النورى أعجب به كثيراً، وأقسم أنه لو ولى الملك ليبنى بيمارستاناً، فلما تسلطن شرع فى الإبرار بقسمه، وشيد البيمارستان.

وهناك سبب آخر لبناء البيمارستان ذكره المؤرخون، حيث قالوا "إن سبب البناء أن السلطان أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى العوام لأمر وجب تغير خاطر السلطان عليهم، لأنهم خالفوا أمره فى شىء، فأمر بقتلهم، واستمر القتل لمدة ثلاثة أيام، فقتل فى هذه المدة ما لا يحصى عدده، وزاد الأمر عن الحد، فطلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم، فعفا عنهم، ولما راق خاطر السلطان ندم على ما فعله وأمر ببناء البيمارستان.

وباشر العمل فى بناء البيمارستان الأمير علم الدين الشجاعى، فأظهر من الاهتمام بالعمارة ما لم يسمع بمثله، فعمرت فى أيسر مدة، وأنجزت العمارة فى شهور، سنة ثلاث وثمانين وستمائة هجرية، وإذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة وسمع أنها عمرت فى هذه المدينة القريبة ربما أنكر ذلك.

ويقال إن سرعة إنجاز مثل هذا العمل (فترة زمنية قياسية تقرب من عام واحد) قد تحققت بعدما وفر السلطان جيشاً من العمال، عملوا فى تشييد البيمارستان فقط طوال تلك المدة، وأنه سخر أهل القاهرة لنقل أحجار البناء حتى تظلموا وتذمروا، وقد وصف هذا العمل من قبل السلطان قلاوون بأنه نوع

من أنواع الجبروت. ويشهد على ذلك المسقط الأفقى للمجموعة، والقطاع الرأسى للواجهة.

ولما كمل بناء البيمارستان، زاره السلطان ووقف أمامه وقال: "قد وقفت على مثلى، فمن دونى». وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والجندى والأمير والوزير والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى، وجعل لمن يخرج من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهزه وكفنه وأمر بدفنه، ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالية والجرائحية والمجبرين، ورتب فيه الفراشين والفراشات لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام.

ويقدم لنا النويرى صورة من داخل البيمارستان سجلها فى كتابه «نهاية الأرب فى فنون الادب»، حيث يقول: "وعملت التخوت والفرش والمخدات واللحف والملاءات، لكل مريض فرش كامل، وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم، فجعلت الإيوانات الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجراحة، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن لمن عنده داء المرارة من الرجال والنساء، والمياه تجرى فى أكثر هذه الأماكن وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال، والشيافات والسفوفات وعمل المراهم والأدهان، وتركيب الترياقات، ورتب فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة"، أما أطباء البيمارستان، فكانوا حسب ما جاء بوثيقة الواقف من ثلاث فئات:

١) الطبائعيون: وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية.

٢) الجرائحيون: وهم الذين يقومون بإجراء العمليات الجراحية.

٣) الكحالون: وهم المختصون بمعالجة أمراض العيون.

ومن الوظائف التى رتبها الواقف بالبيمارستان، ما يماثل وظيفة الصيدلى والممرض فى العصر الحديث، فقد رتب رجلين اشترط فيهما الأمانة والديانة، يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، ويكون مسئولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، فيسلمها للرجل الثانى لتوزيعها على المرضى وعليه أن يتأكد من أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، وعليه كذلك الإشراف على المطبخ وتوصيل الطعام إلى المرضى كل حسب ما وصف له.

نظام العلاج بالبيمارستان

كان الأطباء يباشرون المرضى مجتمعين، أو متناوبين، كما كانوا يتشاورون فى الحالات التى تحتاج إلى الاستعانة بأكثر من تخصص، فإذا اقتضت حالة أحد مرضى العيون أن يراجع الطبيب الطبائعى، إلى جانب الكحال، فإنه يراجعه لينظرا معاً فى حالته وأسلوب معالجتها.

وكان للأطباء مواعيد تواجد للعمل وعليهم الالتزام بها، خاصة الكحالين الذين عليهم القدوم صباح كل يوم حتى لا يرد المريض دون أن يعالج، وكان يوجد ما يشبه العيادة الخارجية، فقد كان المرضى يترددون على البيمارستان فيقوم الطبيب بفحصهم، ويكتب لهم العلاج الذى يصرف لهم، بشرط ألا يؤثر هذا على مقادير الأدوية التى تصرف للمقيمين.

وجد أيضاً نظام معالجة المرضى فى المنازل الذين لا يستطيعون الحضور إلى البيمارستان، فكان الطبيب ينتقل إليهم، ويفحصهم ويكتب الدواء لهم، ليقوموا بصرفه من خزانة الشراب الموجودة بالبيمارستان، وكان عدد الحالات يقدر بنحو ٢٠٠ حالة فى سنوات ولاية النويرى لأوقاف البيمارستان المنصورى.

ويصف أحد المستشرقين بيمارستان قلاوون بقوله: "وكانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور، وتبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثانى، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجرة الحناء، أو شجرة الرمان، أو بأغصان الشجيرات العطرية، وكان البلسان يؤتى به من عين شمس إلى البيمارستان لعلاج المرضى.

وقد كان يصرف من الوقف على بعض أجواق تأتى كل يوم لتسلية المرضى بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية، ولتخفيف ألم الانتظار وطول الوقت على المرضى، كما كان المؤذنون فى المسجد يؤذنون فى السحر والفجر ساعتين، حتى يخففوا قلق المرضى الذين أضجرهم السهر وجفاهم النوم وذلك نقلاً عن د. أحمد الشطى وكتابه عن تاريخ الطب ص١٢٣.

وما ذكر عن بيمارستان قلاوون أن عدد المرضى المترددين عليه يوميا كان يقرب من أربعة آلاف مريض، وعندما يداوى المريض ويعالج ويخرج يتناول صدقة البيمارستان، وهى ثوب وكمية من الدراهم تقوم بحاجته الضرورية، أما غذاء المرضى فهو لحم دجاج وضأن، أما الأثاث والفرش والثياب فتنافس بترفها قصور الخلفاء والأمراء، ويقوم بالأعمال أطباء مهرة، ومفتشون قادرون ومديرون

مهذبون وخدم عاملون يتصرفون للقيام بكل حاجات المرضى بكلمة واحدة بأن كل فرد يعرف ما عليه من الواجبات فيقوم بها دون إهمال، وكان يعالج المرضى بعدة قناطير من الأشربة المقطرة والأكحال الرقيقة التى تسحق فيها دنانير الذهب وفصوص الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمينة.

مادة بناء البيمارستان

وقد استخدم فى بناء هذا البيمارستان بقايا قلعة الروضة بعد أن خربها السلطان قلاوون بعد إخلائها منذ عام ٦٤٩ هـ بأوامر من السلطان "المعز أيبك"، وقد نقل منها كل ما يحتاج له من الأعمدة والصوان والأعمدة الرخامية والأحجار والحواصل، واستخدمها فى بناء القبة والبيمارستان، ولما تمت عمارتها أنشد الشريف البوصيرى فى حضرة المشرف على البناء الأمير علم الدين سنجر الشجاعى قصيدة كان مطلعها: "أنشأت مدرسة ومارستان لتصحح الأديان والأبدان" وأوقف السلطان قلاوون أوقافاً كثيرة ذات عائد اقتصادى كبير ضمنت للبيمارستان أداء وظيفته بصورة غاية فى الكمال، ومكنته من الاستمرار لمدة طويلة، امتدت إلى القرن العشرين، وكانت وظيفة ناظر البيمارستان من أجلِّ الوظائف وأرفعها مكانة وأعلاها مرتبة، إذ كان يتولاها الوزراء ومن فى مرتبتهم.

وقد حظى البيمارستان طول مدة بقائه بكثير من العناية والرعاية، إذ تولى أكثر من سلطان وأمير مهمة إصلاحه وترميمه، وأول هذه الإصلاحات كان على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٦ هـ عندما شرع فى تجديد العمارة، وإصلاح الجدران، وتجديد البياض والأدهان، وخلافه.

وفى العام نفسه ولى الأمير (جمال الدين أقوش) نظر البيمارستان فعمل خيمة من ماله الخاص، طولها مائة ذراع، نشرها من أول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية إلى آخر حد المدرسة المنصورية بجوار الصاغة فصارت فوق المقاعد تظل الناس من حر الشمس، وعمل لها سقيفة تفرد وتطوى بها وكانت مرتفعة عن الأرض، ثم بنى بعد ذلك قاعة (إيوان)، وما زالت بقاياها إلى الآن.

أما الإصلاحات التالية فقد حدثت عام ٧٥٥ هـ فى عهد السلطان (الناصر حسن)، فيذكر أنه فى سنة ٧٥٥ هـ، خلع السلطان حسن على الأمير صرغتمش وأقره فى نظر البيمارستان المنصورى، وكان قد تعطل نظره من متحدث تركى،

وانفرد بالكلام فيه القاضى علاء الدين على بن الأطروش، وقد مال وقفه، فإنه يكثر من مهاداة أمراء الدولة ومدبريها، ويهمل عمارة رباعه حتى تشعثت، فنزل إليه الأمير صرغتمش، ودار فيه على المرضى فساءه ما رأى من ضياعهم وقلة العناية بهم، واستدعى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر بن محمد بن خطيب، وعرض عليه التحدث فى البيمارستان، كما كان، عوضاً عن ابن الأطروش، فامتنع من ذلك، فما زال به حتى أجاب.

وركب إلى أوقاف البيمارستان ومعه المهندسون لكشف ما يحتاج إليه من العمارة، فكتب تقدير المصروف ثلاثمائة ألف درهم، فرسم بالشروع فى العمارة، فعمرت الأوقاف حتى ترفع ما فسد منها، ونودى بحماية من سكن فيها، فزاد ريع الوقف فى الشهر نحو أربعين ألف درهم، ومنع من يتعرض إليهم، وأنصلحت أحوال المرضى فيه".

وإلى جانب الجهود التى قامت بترميم وعمارة ما أفسدته عوامل الزمن فى بيمارستان قلاوون، نجد أن بعض السلاطين والأمراء قد أسهموا بطريقة أخرى فى الحفاظ على هذه المنشأة الحيوية، وذلك بتوفير الأموال على هيئة أوقاف للصرف عليها وتمكينها من أداء وظيفتها على أكمل وجه، فتذكر حجة وقف السلطان شعبان بن حسين أنه: أوقف جزءاً من ريع أوقافه على البيمارستان. أما السلطان برسباى فأوقف ثلث ريع قرية كنيسة سردوس من المال للصرف عليه.

وكان للنساء حظ فى رعاية مصالح البيمارستان المنصورى لقناعتهن بأهمية دوره وتخفيف آلام المرضى من الرعية فنجد السيدة جانم عتيقة الجمالى يوسف وزوجة الأمير يشبك توقف ثلثى ممتلكاتها، والبالغة مائة وثمانية وستين فداناً بجهة أطفيح، على مصالح البيمارستان المنصورى.

ولم يقتصر دور بيمارستان قلاوون على كونه داراً لعلاج المرضى وملجأ لمن تتطلب حالاتهم الإقامة فيه، بل كان أيضاً وبحق كلية للطب ومستشفى تعليمياً ترتب به دروس علم الطب نظرياً وعلمياً، على غرار كليات الطب فى العصور الحديثة. وقد نص الواقف على أنه يجب تعيين شيخ للاشتغال بالطب يكون من بين أطباء البيمارستان، ويجلس على المصطبة الكبرى يلقى دروس العلم على الطلبة وتنشأ المحاورات العلمية المفيدة التى تزيد من قدرة الطلبة على التحصيل والاستيعاب.

بيمارستان قلاوون فى القرن ١١هـ/١٧م

أفاض الرحالة أوليا جلبى «رحالة تركى زار مصر فى القرن ١٧» فى الحديث عن بيمارستان قلاوون، ويُعد هذا الحديث أقرب الأحاديث إلى الواقع والتى تناولت البيمارستان فى تلك الفترة، وسوف ألخص ما قاله أوليا جلبى متحاشياً بذلك التكرار والمبالغات المفرطة والتفسيرات غير الدقيقة. بدأ الرحالة حديثه بقوله: "مستشفى عظيم فى سرة القاهرة (وسطها) فى ركن من حرم جامع السلطان قلاوون، وهو بناء عجيب لا نظير له فى بلاد الترك والعرب والعجم. بلغت مساحته ١٥٠ فى ١٥٠ خطوة (أى أنه مربع الشكل) ومفروش برخام مجلو، يتوسطه حوض عظيم ينفجر الماء من فوارته بمقدار طول قامة رجلين، وبجانب الحوض مصلى، وفوق الحوض قبة منقوشة السقف يحملها اثنا عشر عموداً رشيقاً، وبه قاعات للمرضى عددها أربع، ويتمتع المرضى فيه بالخدمة الحسنة، وأهل مصر ذوو شهرة فى المكر والحيلة، فما إن يظهر مريض حتى يعرضه أهل الحى على الباشا ويستصدرون الأمر بوضعه فى المستشفى ومعالجته، ذلك لأن المستشفى لا يقبل إلا بأمر منه لأنه يكلفه قرشاً فى كل يوم، فقد كان فيه ثلاثمائة وستة بين مريض ومجنون. وفى مكان صرف الطعام للمرضى من العمارة اثنا عشر طبيباً مع تلاميذهم يحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الطعام والدواء. وللحكماء أتباع من الممرضين يطعمون بعض الإخوان الفاقدى العقل خشافاً من عصا النوم فيتعقلون، وإذا قدم إلى المستشفى مريض مضى عليه ثلاثة أعوام أفاق فى أربعين يوماً بإذن الله. وانقلب لون وجهه الشاحب وردياً، لأن فيه حكماء كسقراط وأبقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدى وابن سينا.

والغريب أن كل الحكماء غرباء، بيد أنهم من أبناء العرب لأن الطب علمهم، وكان حكماء المستشفى من أكمل الأساتذة ومهرة الفصادين، كان يحبس أحدهم نبض مريض، ويصف له الدواء الموافق لمزاجه حتى يشفى بإذن الله، وكان للنباتات وللحيوانات التى تجلب من الصعيد والواحات وبلاد الحبش وجبل القمر أكبر الأثر فى ذيوع صيت مستشفى قلاوون بين العرب والترك والعجم. وخصص جانب من هذا المستشفى لعلاج النساء، وهذا القسم أيضاً بناء مكلف عظيم وجميع خدمه من النساء، وليس به رجال غير الحكماء وهم من المحارم، ولذا يدخلونه بلا خوف ويعالجونهن ولكن من العجب أن بعض النساء المريضات والمجذوبات تحبلن فى هذا المستشفى، وقد ولد غلام فى عهد إبراهيم باشا

وسمى "شفاتى". وموجز القول إننا ما رأينا فى البلاد التى جبناها مستشفى عظيم البناء كهذا المستشفى .

الترياق الفاروقى

ذاعت شهرة الترياق الفاروقى، وكان يعتبر سراً من الأسرار التى يتوارثها سراً من يعرفون تركيبته جيلاً بعد جيل. وقد كان استعماله وقفاً على السلاطين والملوك والأمراء. وقد أشاد أوليا جلبى بالترياق الفاروقى المصنوع فى مصر، حيث يقول: "ليكن معلوماً للرحالة العلماء أن ما دام على ظهر الأرض حكماء فهم يصنعون ترياق الفاروق فى كل البلدان، ولكن لا يمكن أن يكون ترياقهم كترياق الفاروق المصنوع بمصر، فإن قرص الفاروق خاص بمصر وحدها"، ويضيف قائلاً: "يصنع ما يسمى بالقرص من جسم الحية. ولأوقاف السلطان قلاوون أربعون مستخدماً يقيمون بقرية أبى الخبير من قرى الجيزة. ويقومون بالخدمة مرة فى كل عام وتلك الخدمة هى صيد الحية التى يصنع منها أطباؤهم أنواعاً من الأدوية. ويستعمل دهن الحيات فى بعض الأمراض التى تنتشر بالهند مثل الجذام والبهاق والبرص، فإذا دهن جسم من ابتلى بتلك الأمراض مرة واحدة شفى بأمر الله. وأما فى مصر فلا فائدة من هذا الدهان إلا للجرب والخفقان، فإن المريض بهما إذا أعطى منه درهماً فى كل يوم مدة أربعين يوماً شفى بأمر الله.

وأفاض أوليا جلبى فى بيان صنع هذا الترياق العجيب، وانتهى إلى أنه بعد أن شاهد المراحل المختلفة التى مر بها هذا الترياق، جاء وقت تجربته، ويذكر أنه أول الأمر عافت نفسه عن تعاطيه، ولكن عندما ألح عليه الحكيمباشى ذاكراً له فوائده الجمة مثل زيادة قوة البصر وإزالة ريح البواسير، فقال "الأمر لله وما يصيب المرء مع الجماعة فهو عيد فتجرأت وأغمضت عينى وطبقت أسنانى وتجرعتها، قائلاً بسم الله فيه الشفاء وأنا أشم نكهة مسكية، ثم أعطيت فنجانة أخرى ممزوجة بقليل من دهن الحية المخلوط بزيت الزيتون المغربى فشربتها أيضاً، والله إن نكهة المسك لازمت دماغى مدة أسبوع.

ويصنع من الترياق كلٌ فى مراجل، ويصب فى قدور ترسل إلى البلاط للسلطان العثمانى وقدرة للوالى، ثم ترسل هدايا للصدر الأعظم وشيخ الإسلام وكبير الأطباء باستنبول وإلى القاضى التركى بالقاهرة ويحفظ ناظر المستشفى ما يتبقى فى خزانة المستشفى لاستعماله للمرضى الذين يعالجون فيه.

وفى بيمارستان قلاوون تصنع جميع أنواع الترياقات ومن أهمها الترياق الأكبر الذى يستعمل دواءً لـ ١٧٦ مرضا وعلة، ويتألف هذا الترياق من ستة وستين عقاراً، وهناك أيضاً ترياق "الطين المختوم" الذى يشفى من لدغ الهوام، كذلك ترياق "أبانوس". أما عن ترياق (همس الكبير) فإنه نافع لكل الأمراض، (وترياق الأمير) غريب التركيب ويجلب محبة الناس ويصفى اللون.

ترياق الحكيم هليوش

يقول أوليا جلبى عن هذا الترياق: "هذا الترياق دواء عجيب لو أعطيت الدنيا بدله لما وزنته. ومن ملكه فقد ملك الدنيا وما فيها فإنه شفاء لجميع الأمراض، ومن كان مريضاً بمرض من الأمراض الخطيرة كالجذام والبرص وتناول منه مثقالاً، تصبب عرقاً بإذن الله وزال المرض من جسمه".

إصلاحات الأمير عبد الرحمن كتخدا لبيمارستان قلاوون

ذكر د. أحمد عيسى أن الأمير عبد الرحمن كتخدا شرع فى تجديد عمارة البيمارستان المنصورى عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، والواقع أن هذا التاريخ هو تاريخ وفاة الأمير عبد الرحمن، حسب ما أورده الجبرتى فى ذكر من مات فى عام ١١٩٠هـ، ومنهم عبد الرحمن كتخدا، أما عن تاريخ التجديدات، فهو كما ورد فى كتاب الوقف الخاص بالبيمارستان تم فى عام ١١٧٤هـ.

على أى حال فقد بدأ الأمير بهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التى كانت بأعلى الفسحة من الخارج، ولم يعد عمارتها، بل سقف قبة المدفن فقط وترك الأخرى مكشوفة، وقد حددت الوقفية جميع الوظائف المنوط بها العمل بالبيمارستان، وكذلك مصادر الصرف التى تشمل (رعاية المرضى من كساوى وألبسة وأغطية ومأكل ومشرب وأدوية وخلافه) تماماً، كما كانت فى وقفية السلطان قلاوون، بل كادت بعض السطور تكون منقولة حرفياً منها، وعلى الرغم من التجديدات والأوقاف التى حددها وأضافها لكى تعين البيمارستان على أداء وظيفته، فإننا نجد أن الأمور فى البيمارستان قد حدث بها خلل، إذ لم تمض سوى سنوات قليلة حتى عاد التدهور من جديد يدب فى جنبات البيمارستان، فيذكر جومار أنه عند دخول الحملة الفرنسية (أى بعد ٣٨ عاماً من الإصلاحات) "كان يوجد بالبيمارستان ٢٧ مريضاً، وأربعة عشر معتوهاً، سبعة رجال، وسبع نساء، ومن بين المرضى العديد من العميان، وعدد أكبر مصاب

بالسرطان، وآخرون أنهكتهم أمراض مزمنة أهملت فى بدايتها، وجميعهم لا تقدم لهم أى إسعافات سوى توزيع الغذاء المكون من الخبز والأرز والعدس، ولا يخطر على بالهم أنه يمكن أن تسكن آلامهم وفى ظل هذا الإهمال وتعليق الأمر على مشيئة القدر فإنهم لا يتناولون على الأقل أبسط أنواع الدواء".

ونظراً لأهمية الجهود التى بذلها الأمير عبد الرحمن كتخدا، نذكر بعضاً مما جاء بحجة الوقف الخاصة به فى السطور التالية:

« ... ويرسل من ذلك فى كل يوم اثنين دستاً ملاناً للبيمارستان المنصورى برسم التفرقة على المرضى والمجانين رجالاً ونساء وعلى خدمتهم...

... ويرسل من ذلك فى كل يوم من شهر رمضان المرقوم دستاً ملاناً للبيمارستان المنصورى برسم التفرقة على المرضى والمجانين رجالاً ونساء وعلى خدمتهم...

... ويصرف أربعمائة وثلاثون جبة صوف مخيوطة كباراً وصغاراً تشترى كل سنة وتفرق على ذاهلى العقول رجالاً ونساء بالبيمارستان المنصورى، ويصرف لجهة وقف البيمارستان المنصورى توسعة فى مهماته ومصاريفه اللازمة للمرضى والمجانين والمنقطعين من جراية وشوربة ومعاجين وأدوية وتغسيل وتكفين، وغيره كل سنة ٧٥ ألف نصف فضة...».

حالة البيمارستان فى الوقت الحاضر

تجرى الآن عمليات ترميم واسعة لمجموعة السلطان قلاوون بكاملها، ويهمنا من هذه المجموعة البيمارستان، وهو محل اهتمام هذا الكتاب، وسوف أصف حالة البيمارستان، كما هى الآن.

يدخل إلى البيمارستان عن طريق الدهليز الذى يتقدم باب الدخول الرئيسى للمجموعة وهو دهليز طويل مسقف بعدة أقبية متقاطعة متتابعة فى نهايته توجد على يمين الداخل فتحة تؤدى إلى ممر ضيق لا تتسع إلا لعبور شخص واحد، وهذا الممر بدوره يؤدى إلى قسم الرجال والنساء الذين اعتراهم مس من الجنون، وهو عبارة عن فناء واسع أوسط تطل عليه نوافذ غرف المعزولين، ويتوسطه بقايا الفسقية المشار إليها فى وثيقة السلطان قلاوون (جارى ترميم هذا الجناح).

ثم يحدث انكسار فى نهاية الدهليز سالف الذكر يساراً، مؤدياً إلى فناء

البيمارستان عبر باب معقود بعقد موتور، عليه زخرفة عبارة عن جفوت لاعبة وميمات (وحدات زخرفية إسلامية)، عند الدخول للفناء ومقارنة بما ذكر فى الوثيقة نلاحظ تغييرات وتعديات أضاعت معالم المكان وأفقدته رونقه وبريقه، وأول ما يلفت الانتباه هو عدم وجود الإيوان الجنوبى الغربى بالكامل ووجود مستشفى حديث بدلاً منه.

أما الإيوانات الثلاثة الباقية فتجرى عليها ترميمات دقيقة من قبل هيئة الآثار؛ الأمر الذى يساعد على الحفاظ على هذا الأثر النادر، ويحميه من التعديات وعوامل الزمن، على أى حال فقد بقيت ثلاثة إيوانات.. أقدم وصفاً حالياً لكل منها على حدة.

١- الإيوان الجنوبى الشرقى

لم يتبق منه سوى الدخلة المعقودة التى تتقدم الشاذروان، وهى عبارة عن مساحة مستطيلة يبلغ عمقها ٣,٨٥متر واتساعها ٦,٦٦متر، يتوجها عقد مدبب خال من الزخرفة ومجدد، وبصدر هذه الدخلة ويتوسطها المكان الذى كان مخصصًا للوحة الشاذروان الرخامى، حيث ينحدر الماء عليه ليجمع فى حوض الفسقية الموجودة أمامه، وهى مربعة الشكل، ويعلو دخلة الشاذروان نافذة قنديلية مركبة عليها زخارف من الجص والزجاج المعشق الملون، ويعلوها منور للتهوية. وكان الإيوان مسقوفاً بالخشب النقى تزخرفه زخارف على هيئة الأحقاف والقباب الصغيرة مطلية بألوان مختلفة ومذهبة، أما عن الزخارف فلم يتبق منها سوى أجزاء بسيطة إلا أنها تدل على مدى غناها وجمالها.

٢- الإيوان الشمالى الشرقى

هذا الإيوان يعتبر إلى حد ما أكثر الإيوانات تكاملا والتى مازالت بقاياه تدل على حسن العمارة وجمال التصميم، فهو يفتح على الفناء بعقد كبير نصف دائرى مرتكز على أكتاف، وينقسم هذا العقد بدوره إلى ثلاثة عقود أوسطها أكبرها، وهو مدبب مزخرف الإطار، واثنان أصغر منه متماثلان عن يمينه ويساره على هيئة حدوة الفرس (أعتقد أن هذه العقود مجددة) حيث ذكر د.محمد حمزة أن الثلاثة عقود على هيئة حدوة الفرس، وأرجل العقد الأوسط زوج من الأعمدة.

ويتقدم مدخل الإيوان سقفية تمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى بطول ١٣,٧٦متر، وترتكز إلى أربعة أعمدة ودعامتين جانبيتين. وتخطيط هذا الإيوان جاء على شكل حرف T، وينقسم الجزء الرئيسى من الإيوان وهو العمودى على الجزء المستعرض إلى قسمين يفصل بينهما باب.

أما القسم الثانى فهو أكثر اتساعاً، وينقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة بائكتين، لكل منها ثلاثة عقود من الآجر ترتكز على أكتاف من الحجر، واتساع كل منها ٢,٩٠متر (من الواضح أن الأكتاف والعقود تنتمى إلى عهد متأخر عن عهد الإنشاء). ويسقف هذا الإيوان مجموعة من العروق الخشبية بعضها يعود إلى عصر الإنشاء، وغالبيتها مجددة من فترات لاحقة (عن المصطلحات المعمارية الإسلامية: راجع دكتور محمد أمين وليلى إبراهيم فى كتابهما «المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية»).

وعلى يمين ويسار الداخل إلى الإيوان توجد دخلتان متماثلتان، بصدر كل منهما لوح الشاذروان الرخامى وإلى جانب فتحة دخول الإيوان من الناحية الجنوبية الشرقية فتحة معقودة اتساعها ٢,١٠متر تتقدم مساحة مربعة الشكل وبصدرها فتحة معقودة بعقد حدوة فرس اتساعها ١,٢٠متر، يدخل منها إلى حجرة مستطيلة الشكل أبعادها ٧,٣٠ متر - ٨,٩٠ متر، كانت مخصصة لتجهيز وتكفين من قضى نحبه بالبيمارستان، طبقاً للمسقط الذى رفعته لجنة حفظ الآثار وهيئة الآثار المصرية.

٣- الإيوان الشمالى الغربى

لم يتبق من هذا الإيوان سوى العقد المدبب الذى يتقدم دخلة الشاذروان، وهو يماثل تقريباً الإيوان المقابل له فى الناحية الجنوبية الشرقية، من حيث دخلة الشاذروان ومكان اللوح الرخامى والنافذة التى تعلو الشاذروان، والتى تعلوها أيضاً فتحة المنور، ويرى فى اللوحة آثار عمليات التجديد التى تجرى عليه الآن.

البيمارستان المؤيدى

قام بتشييده السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى فوق الصوة تجاه طبلخناه قلعة الجبل، حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان التى هدمها الناصر فرج بن برقوق، وقد بدأ البناء فى جمادي الآخر سنة ٨٢١هـ، وأتم بناءها فى رجب عام ٨٢٣هـ.، واستقبل المرضى ابتداء من نصف شعبان من العام نفسه. وتشير وثيقة الوقف إلى أن السلطان المؤيد شيخ أوقف هذا البيمارستان، وجعله

مأوى للضعفاء والمرضى من فقراء المسلمين، ومن ابتلاه الله تعالى بمرض، يمكن مداواته منه بملاحظة الأطباء المقررين بالمكان المذكور فيه من المسلمين.

كما أشارت الوثيقة إلى أنه رتب طبيباً طبائعياً وكحالاً وجرائحياً، وجعل راتب كل منهم ثلاثين نصف فضة فى الشهر. لم يستطع البيمارستان المؤيدى البقاء طويلاً بعد وفاة مشيده، نظراً لقلة ما وقف عليه من أوقاف تدر دخلاً يستطيع به ناظر الوقف تدبير الاحتياجات الضرورية واللازمة لأداء وظيفته. ومن ثم توقف العمل به، وتم إخراج المرضى منه وأغلق لفترة، ثم أعيد افتتاحه وجعل داراً للضيافة يقيم به الرسل القادمون من الشرق، وهذا إن دل على شئ، فإنما يدل على فخامة البناء وحسن ترتيبه، وهذا ما كشف عنه حديثاً من وجود بوابة عظيمة وزخارف قليلة، ولكنها دلت على مدى التأنق والروعة التى شيد بها هذا البيمارستان. والتى تظهر جانبا من العقود الداخلة لإيوانات البيمارستان.

ثم أهمل شأنه بعد ذلك وجعل بعد ذلك خمارة برسم شراب المسكرات وعمل الفواحش، كما كانت تربط به الخيول، وظل كذلك حتى قيض الله له السلطان الملك الأشرف برسباى الذى بدأ فى تطهيره فى ربيع الآخر عام ٨٢٥هـ، وعمل له منبراً ورتب له إماماً وجعله جامعاً تقام فيه الجمعة والجماعة.

ولم تذكر لنا المصادر اسم طبيب، أو كحال ممن عملوا بهذا البيمارستان، وذلك راجع للمدة القصيرة جداً التى أدى فيها هذا الصرح مهمته والتى تمتد فقط من نصف شعبان ٨٢٣هـ، حتى محرم من سنة ٨٢٤هـ، أى بضعة أشهر فقط. وهنا يقفز إلى الأذهان سؤال عن منزلة هذه المنشآت ومدى قناعة القائمين عليها من ناحية، والمترددين عليها من ناحية أخرى، الأمر الذى يجعلنا نتوخى الحذر فى الإسهاب عن مكانة تلك المنشآت وفعاليتها فى المجتمع فى تلك الفترة من الزمن. فمثلاً كان البيمارستان المنصورى يتسع لنحو ١٢٠ مريضاً، فى مدينة يزيد سكانها على مائة ألف نسمة، وتنتشر بها الأمراض والأوبئة بشكل متوطن.

كما أنه من الصعب تفسير ترك بيمارستان المؤيد ذلك البناء الضخم الرائع، والذى أنشىء لغرض الطب والعلاج دون أن يعتنى به أحد من السلاطين، أو الأمراء ويعيد إليه وظيفته لخدمة المرضى ابتغاء مرضاة الله. ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن البيمارستان المؤيدى لفترة طويلة، حتى وجدت إشارة ذكرها أوليا جلبى عندما زار القاهرة فى القرن ١١هـ/ ١٧م، قال فيها: "مستشفى المؤيد

شيخ بناء عالٍ طلق الهواء، بجانب تكية الأزبك تحت باب الوزير، وقد بنى كله بالحجر الجيرى، وهو بناء سلطانى مزخرف، به حجر وقاعات كثيرة، وله باب مرتفع داخل تكية الأزبك، وبه مقاصير متنوعة يستمتع فيها المرضى باستنشاق الهواء الطلق الصحى، ولكن ليست له أوقاف، فلذلك يخدم فيه فقراء تكية الأزبك، كما أن سكانه من مريدى تلك التكية".

بيمارستان الفخر

يذكر على مبارك باشا فى خططه، أن القاضى محمد بن فضل الله فخر الدين ناظر الجيش المعروف بالفخر، أنشأ بيمارستاناً بمدينة الرملة، وآخر بمدينة بلبيس. وكان الفخر نصرانياً متألهاً، ثم عرض عليه الدخول فى الإسلام، فامتنع، وهم بقتل نفسه وتغيب أياماً، ثم أسلم وحسن إسلامه وأبغض النصارى وحج مرة وتصدق فى آخر عمره فى كل شهر بثلاثة آلاف نقرة، على عدة مساجد بديار مصر، وأنشأ عدة أحواض للسبيل فى الطرقات، وولى نظارة الجيش للناصر محمد بن قلاوون، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

ويذكر أحمد عيسى بك أن فخر الدين أنشأ بيمارستانا فى الرملة، وآخر فى مدينة نابلس من أعمال فلسطين، أى أن على مبارك وأحمد عيسى اتفقا على بيمارستان الرملة، ولكنهما اختلفا فى البيمارستان الآخر، هل هو فى بلبيس أم نابلس.

وإلى جانب هذه الدور، رتب عدد من السلاطين والأمراء أماكن (حجرات) فى عدد من المنشآت التى شيدوها مثل (المساجد والخانقاوات) يجلس فيها طبيب، أو أكثر يقوم برعاية المقيمين فى هذه المنشآت ويصرف لهم العلاج. ولم يقتصر دور ذلك الطبيب على نزلاء تلك المنشآت، بل من الطبيعى أن تمتد خدماته لتشمل أهالى الحى الموجود بها المنشأة، ومن أمثلة تلك الأماكن نذكر:

خانقاه سرياقوس

ذكر ابن حبيب أنه "فى عام ٧٢٤هـ رسم السلطان الناصر محمد بحفر الخليج من فم الخور إلى سرياقوس بسبب ما أنشأه السلطان من القصر والبساتين والمناظر وغير ذلك مثل الخانقاة التى كملت فى عام ٧٢٥هـ".

وجاء فى كتاب الوقف الخاص بالناصر محمد "ويرتب أيضاً من الصوفية المذكورين رجلاً طبيباً طبائعياً لمداواة المرضى من الفقراء والمستقرين والواردين بالخانقاه، ويصرف له فى كل شهر ستون درهماً نقرة، وفى كل يوم رطلان خبزاً زيادة على معلومه عن التصوف".

وفى عام ٨٧١هـ/١٤٠٦م استقر أحمد بن العينى ناظراً لخانقاه سرياقوس التى كانت تضم أطباء، ويوجد بها خزانة للأدوية.

مسجد ومدرسة السلطان حسن

تقع هذه المنشأة العظيمة فى حى القلعة فى مواجهة قلعة الجبل، وتعتبر من أعظم مساجد الإسلام، وكونها مدرسة، فقد حوت أواوين الدراسة وخلاوى للطلبة والمنقطعين، وتنبه القائمون على بناء تلك المؤسسات الضخمة والتى تضم مجموعات بشرية بأعداد كبيرة إلى مدى الخطر الذى يمكن حدوثه عندما ينتشر وباء، أو مرض ذو عدوى سريعة، فألحقوا بتلك المنشآت أماكن تكون مقراً لإقامة طبيب، أو عدة أطباء من مختلف التخصصات لمواجهة خطر حدوث أى أمراض تنتشر بين المقيمين.

وإلى جانب النفع الذى يعود على أهالى الحى المقامة به المنشأة، فإن هذه الأماكن تغنى عن بناء دور علاج مستقلة تتكلف مصاريف طائلة فى الإنشاء وأخرى فى تدبير احتياجاتها من أسرة وأغذية وأغطية وأطباء وعمال وخدم وخلافه، وقد جاء فى حجة وقف الناصر حسن: "وترتب المكان المقابل للداخل من الباب الأول الكبير بالشارع على الطريق المسلوك من أبواب المكان المذكور باطنه، رجل مسلم عارف بالطب وعشرون من الطلبة المسلمين المشتغلين بالعلم المذكور..." ومن خلال قراءة الحجة يمكن تحديد مكان ذلك المستوصف (لأنه أصغر من أن نطلق عليه مستشفى) فكان يوجد ضمن الأبنية الفرعية خلف الميضأة من جهتها الجنوبية الغربية فى المسافة بينها وبين مدرسة الحنابلة.

كما يمكن الوصول إلى المستوصف عن طريق باب الدهليز الرئيسى للمدرسة والذى آخره باب يؤدى إلى حجرة مستطيلة مقببة بقبو برميلى، وبصدرها صينية تنتهى بنافذة مغشاة بمصبعيات برونزية، وتطل على شارع السلطان حسن. وكانت هذه الغرفة معدة لجلوس كل من الطبائعى والجراح والكحال. وكانت تلك الغرفة بمثابة حجرة الاستقبال، أو الطوارئ فى

المستشفيات الحديثة. وتوجد بعد تلك الغرفة مجموعة من الغرف كانت معدة لاستقبال المرضى الذين تتطلب حالاتهم البقاء لمدة أطول حتى يتم علاجهم.

مسجد المؤيد شيخ

لم يكتف السلطان المؤيد شيخ ببناء البيمارستان الذى سبق الحديث عنه، ولكنه رتب أيضاً أطباء لمعالجة الناس وخصص لهم مكاناً بمسجده بالقرب من باب زويلة، وذلك طبقاً لما جاء بحجة الوقف التى ذكر فيها" ويرتب طبيب طبائعى وكحال وجرائحى ولكل منهم ثلاثون نصف فضة بمسجده عند باب زويلة".

وقف برسباى

كما اشتمل أيضاً كتاب وقف السلطان برسباى على تخصيص جزء من ريع الوقف للصرف على المرضى بالبيمارستان المنصورى، وعلى المتصوفة المنقطعين للعبادة.

مسجد السلطان الغورى

وفى نهاية العصر المملوكى نجد أن السلطان قنصوه الغورى هو آخر من شيد منشآت فى ذلك العصر، كان أهمها المسجد (المدرسة)، كما نراه حرص على أن يرتب خدمات علاجية لطوائف الصوفية التى سكنت منشآته، وقد ضمن ذلك كتاب الوقف الخاص به وجاء فيه "ورتب طبيباً لمرضى الصوفية وأرباب الوظائف وله خمسمائة درهم".

كانت هذه أهم الإسهامات التى بذلها سلاطين المماليك فى مجال إقامة دور لعلاج مرضى المسلمين من مصريين وغيرهم ولكن فى رأيى أن هذه المنشآت لم تكن بالقدر الكافى لبلد فى مكانة وحجم مصر، كما أنها لا تتناسب مع حجم ما كتب عن السبق والريادة لسلاطين المماليك فى تشييد مثل تلك البنايات. فهى فى آخر الأمر لم تسفر سوى عن بيمارستان واحد (قلاوون) وشهد كثيراً من التوقف والتدهور خلال مدة بقائه، أما الآخر فلم يستعمل إلا أربعة أشهر هلالية ونصف الشهر فقط، وأغلق إثر وفاة مشيده.

والذى يهمنا فى هذا المقام، أن هذه الدور على الرغم من قلتها، فإنها استمرت فى تأدية رسالتها فى العصر العثمانى. وكما سنرى فى الفصل التالى

أن هذه الدور كانت القاعدة الأساسية للطب والعلاج فى مصر، فيما تلا ذلك من قرون.

فى الواقع لم تصلنا إشارات حقيقية عن المدة التى استمرت فيها كل من هذه المنشآت فى أداء عملها باستثناء بيمارستان قلاوون، كما سبق أن ذكرت. ولكن من المحتمل أنها بقيت ردحاً من الزمن فى العصر العثمانى، وإن اختلف كل منها فى المدة التى استطاع فيها الصمود ضد عوامل الانهيار والزوال.

أما ما يخص العصر العثمانى، فإن منشآت بهذه الضخامة بات من المستحيل تشييدها نظراً لعوامل عديدة منها:

أ- إن هذه البنايات تحتاج إلى تكلفة باهظة عند الإنشاء لا يقدر عليها سوى سلاطين، أو أمراء كبار.

ب- إنها تحتاج إلى أوقاف كثيرة تدر دخلاً كبيراً، يستطيع القائمون عليها أن يصرفوا منها على كافة ما يلزمها من أدوات.

ج- الأسلوب الخاطىء للحكم العثمانى فى مصر الذى لم يسمح للولاة بحرية العمل لخدمة جموع الأهالى.

وقد اقتصر الأمر فى هذه الفترة على اتخاذ التكايا كدور للعلاج؛ لأنها قامت بالفعل بهذا الدور فى بعض الأحيان، حتى أن البعض كان يطلق على المستشفى اسم التكية.

وكانت هناك مبادرات لبعض الأمراء، ولكنها ليست بمستوى يرقى إلى حجم المنشأة وخدماتها، ولكنها كانت تعود بالنفع على المرضى، ومن أمثلتها وقف قيراطين للصرف عليهم.

ويذكر أوليا جلبى أن بالقاهرة مستشفى يسمى "مستشفى مقام موسى"، وهو مستشفى مجانى عديم الأوقاف بالقرب من «بين القصرين»، ويقدم بعض أصحاب الخيرات ما يلزم للمرضى من طعام، كما يقوم بعض الفقراء بخدمتهم مجاناً. ويعطيهم بعض الأغنياء زكاة أموالهم"، كما ذكر فى معرض حديثه عن دور العلاج أنه كان هناك "مستشفى يسمى مستشفى الجامع الأزهر، وهو أيضاً مجانى، ولكن إيراده من النذور والصدقات والطعام أكثر من إيراد المستشفيات ذات الأوقاف المتينة، وخدمه يتمتعون بوفرة الهبات. وكان المستشفى بزاوية تسمى زاوية الشيخ محمد المطويسى".

وقد توفر عدد كبير من الأمراء ذوى النقود والثروة فى آن واحد، ولكن سبب الإحجام عن بناء مثل تلك المنشآت الصحية، بالإضافة إلى ما ذكرت أنها كانت بعيدة عن دائرة اهتمامهم ما دام أن هناك أطباء يعالجون فى دورهم، أو ربما يذهبون للمريض فى منزله، كما كان الحجامون والفصادون والمجبرون يوجدون فى الأسواق منذ عصر المماليك.

ويذكر أندريه ريمون فى كتابه «فصول من التاريخ الاجتماعى لمدينة القاهرة» أنه "فيما عدا البيمارستان المنصورى لم يكن بالقاهرة سوى بعض التكايا (لمزيد من المعلومات عن التكايا انظر د. ناهد حمدى «وثائق التكايا فى مصر فى العصر العثمانى، رسالة دكتوراة غير منشورة) التى يعود تاريخ معظمها إلى العهد العثمانى. لكنها كانت مجرد صوامع للدراويش وليست مستشفيات حقيقية، ويرتبط هذا التدهور فى مجال المؤسسات العلاجية بتدهور الطب العربى فى مصر، حيث اقتصرت ممارسة الطب فيه على الأجانب وأبناء الأقليات المسيحية واليهودية. أما جومار فيذكر أن القاهرة كانت تعرف نوعاً آخر من المؤسسات يسمى تكية، وهى بيوت معدة لاستقبال المسافرين والمرضى ليقيموا بها بالمجان. وإذا كانت التكية قد حلت محل الخانقاه فى إيواء الصوفية فى العصر العثمانى، فمن البديهى أنها قدمت جيمع الخدمات التى كانت تقدمها الخانقاه ومن أهمها الخدمة الطبية.

وإلى جانب التكايا وجدت الزوايا التى انتشرت انتشاراً كبيراً فى القاهرة فى العصر العثمانى، وإن كانت اتخذت شكلاً آخر، ووظيفة غير التى وجدت من أجلها.

وقد تشابهت الزوايا فى ذلك العصر والتكايا فى كثير من الأمور، مثل سكن الدراويش بها والمتصوفة ووجود شيخ للزاوية، وأتباع ومريدين، وتم تقسيم الوظائف فيها، حيث كان لكل مريد عمل ووظيفة يقوم بها والذى يعنينا من أمر الزوايا هو توفير الرعاية الصحية سواء للقائمين بها، أو لسكان الحى الموجودة فيه وتنص إحدى الوثائق على أنه إذا حدث مرض لفقير يُشترى له حصير وبساطين ولحاف وطراحة محشوة صوفا وقالب مخد وقصيرية بيد نحاس لقضاء حاجته، ويصرف ما يحتاج إليه من أجرة طبيب وثمن دواء فإذا حدث ولم يتماثل المريض للشفاء فى مدة ثلاثة أشهر حمل إلى البيمارستان.

ويذكر على مبارك باشا فى خططه، تعقيبا على ما ذكره جومار أنه كان فى القاهرة مستشفى للنساء خارج سور باب زويلة فى منطقة تحت الربع، وهو أمر لا يصدق بطبيعة الحال فى ذلك الوقت، والواقع أن جومار اختلط عليه الأمر

ولم يفرق بين المستشفى والرباط. على أى حال، فقد حدد على باشا مبارك أن ذلك المستشفى الذى كان جومار يعنيه هو تكية الجلشانية الموجودة بظاهر القاهرة قرب مسجد السلطان المؤيد شيخ وباب زويلة. ولكن بالرجوع إلى حجة وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا أمكن تحديد مكان الرباط، الذى كان يقصده جومار وهو الكائن بخط شق الثعبان خارج باب زويلة، وبنى به شباك وباب وبنى بجوار ذلك سبعة حوانيت، وبنى الأمير عبدالرحمن كتخدا كذلك خمسا وعشرين أودة كاملة المنافع والحقوق، وتسع أود أرضية تفتح على حوش به مطبخ وبير ماء معين ومراحيض، وست عشرة أودة علوية مركبة على التسع أود والحوانيت المذكورة وبها مطبخ وكراسى راحة ومنافع وحقوق وسلم من داخل حوش الأود الأرضى يصعد من عليه إلى الأود العلوية المذكورة على كامل الأود وما بها من المنافع والحقوق رباطاً معداً للمنقطعات والعواجز من النساء والعازبات اللاتى لا مكان لهن وليس لهن قدرة على دفع أجرة مكان، بحيث تسكن كل واحدة فى أودة مدة حياتها من غير أجرة....".

وبلغ عدد النساء خمساً وعشرين امرأة، يصرف لهن فى كل سنة ثمانية عشر ألف نصف فضة، كما رتب الأمير عبدالرحمن كتخدا لهن سقا يجلب لهن الماء، وبواباً للرباط. ورتب ثمانى حصر لفرش الخمس والعشرين أودة، وكذلك رتب زيتا طيباً لإضاءة قنديلين من الزجاج يوضع أحدهما بباب الرباط والأخر بباب الصهريج. ورتب للنساء المنقطعات خادمتين بالرباط تقومان بخدمتهن وكنس ورش محلاتهن وغسل وتنظيف ثيابهن، وبنى مسجداً بجوار الرباط كان أصله زاوية الشيخ رضوان ورتب له خطيباً ومؤذناً ورجلاً من العلماء والمدرسين.

والحق أن الأمير عبد الرحمن كتخدا أعاد للأذهان عصر البناة العظام، كما أنه يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القدرة على البناء والتشييد كانت موجودة بشرط توافر الإمكانيات ورجال قادرين على القيام بها.

كما ذكر على مبارك نقلاً عن علماء الحملة الفرنسية أن بعض المرضى كانوا بتكية الجلشانية وتكية الأعجام.

وعندما زحف الفرنسيون فى حملتهم على مصر لم يكن بيمارستان قلاوون يقدم خدمات علاجية فعالة، حتى أن جومار أطلق عليه دار ضيافة ليس إلا، ذكر ذلك عند حديثه عن البيمارستان، حيث قال إنه لم يعد موجوداً إلا دار

واحدة للضيافة، وهى البيمارستان وتحوى خمسين سريراً ويقبل كذلك بها المجانين.

ويضيف جومار: إنه" كان يوجد بالقاهرة مكان آخر يعرف بالبيمارستان هو البيمارستان القديم، وهو بيت مهجور منذ زمن بعيد يقع فى جنوب المدينة غير بعيد من القلعة، كما كان يوجد سبيل ووكالتان بجوار السلطان الغورى تحمل أيضاً اسم البيمارستان، ذكر هذا فى كتابه «وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل»، ترجمة أيمن فؤاد سيد.

وقد عزا بعض المؤرخين السبب فى ندرة المشافى فى تلك الفترة إلى استيلاء المماليك على الأوقاف الخاصة بها واستغلال ريعها للإنفاق على جلب أطباء للعناية بهم ومستشفيات يعالجون هم فيها فقط دون جموع الشعب، الذى وقع فريسة فى أيدى الدجالين والمشعوذين والحلاقين الجهلاء.

على أى حال، لم تكن ندرة دور العلاج المتخصصة وقفا على العهد العثمانى فقط، بل كانت ظاهرة تميزت بها أيضاً العهود التى سبقته.

فمن خلال استعراضنا لتاريخ البيمارستانات فى مصر منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية الدولة الفاطمية، مروراً بعصر الولاة، وحتى الطولونيين، نجد أن بيمارستانا واحداً شيد فى كل فترة من الفترات السابقة.

أما عصر المماليك والذى امتد إلى ما يقرب من ٢٦٧عاماً، وتميز بالقوة والثروة ووجود عدد من البنائين العظام الذين خلفوا عمائر مختلفة الأغراض ومحكمة الصنعة والبناء، فلم تشر المصادر إلا إلى بيمارستين اثنين فقط، لأجل العناية بالمرضى ومداواتهم. وهما البيمارستان المنصورى والبيمارستان المؤيدى.

وبالنسبة للعهد العثمانى فكما سبق أن ذكرت فإن مجموع ما شيد من دور علاج طوال ثلاثة قرون، هى ستة بيمارستانات كانت ضمن مجموعات معمارية وليست دوراً منفصلة، وكانت تخص خفر السلطنة فقط.

وإذا كان الأمر كذلك فى مقر السلطنة فإنه ليس من الغريب ألا تشيد دور للعلاج فى الولايات التابعة لها.

ولم تكن القاهرة هى العاصمة الوحيدة التى عانت قلة دور العلاج، بل نرى أن معظم الولايات، إن لم يكن كلها، لم يشيد لها دار واحدة للعلاج، ففى دمشق لم نلحظ إنشاء مستشفيات، أو بيمارستانات فى العهد العثمانى حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكل ما رأيناه من جديد فى هذا المجال هو بناء المستشفى

العسكرى الذى بناه إبراهيم باشا بن محمد على عند احتلاله لمدينة دمشق عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بالقرب من مقبرة الصوفية، واقتصرت الخدمة الطبية فى مدينة دمشق على ما شيد بها من بيمارستانات فى عهد سابق.

وحتى الوالى الوحيد الذى تولى الحكم فى مصر والذى ينسب إليه تشييد أحد المستشفيات شيده فى بلدته كبزة عام ١٥٢٣م(٣) ولم يشيدها فى القاهرة، وربما يعود هذا لقصر المدة التى تولى الحكم فيها.

ويبدو أن بناء مثل تلك البنايات لم يحتل الأهمية اللائقة بها لدى ولاة مصر العثمانيين، أو حتى الأمراء المماليك، فالولاة كانت فترات توليهم قصيرة، كما كانت أيديهم مكبلة، والبعض منهم لم يكن له هم سوى جمع المال وقبض الرشاوى. أما الأمراء والمماليك فقد انقسموا إلى بيوتات متنافرة متناحرة وقامت بينهم حروب، استنفدت مواردهم وأرواحهم، بيد أن هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بوجود أسباب أخرى تضافرت مع سابقتها وأدت إلى الإعراض عن تشييد دور العلاج.

وإذا كان الأمر كذلك فيما يخص بناء دور العلاج، فإن الغريب والذى يصعب تفسيره أنه علي الرغم من وجود البيمارستانين اللذين يعدان إرثا من العهد المملوكى، فلم يحاول أى أمير من الأمراء، أو أى من ذوى اليسار، أن يعيد مثلاً الحياة لبيمارستان المؤيد شيخ، أو أن يزيد من كفاءة بيمارستان قلاوون. وإذا تقبلنا فكرة خراب بيمارستان المؤيد لقلة أوقافه فكيف نفسر صمت المصادر عن ذكر أى إصلاحات لبيمارستان قلاوون تمت بعد إصلاحات الناصر حسن عام ٧٥٥هـ وأن أول إصلاحات تمت بعد هذا التاريخ كانت على يد الأمير عبدالرحمن كتخدا فى عام ١١٧٤هـ ، أى بفارق زمنى قدره ٤١٩ عاماً، كان منها ١٦٨ عاما فى العهد المملوكى، و٢٥٧ عاماً فى العهد العثمانى، أى أن هذه المنشأة ظلت تعمل طوال هذه المدة دون إصلاحات، أو ترميم، ولنا أن نتصور ونتساءل كيف كانت هذه المنشأة تقوم بوظيفتها على نحو يؤدى فى النهاية إلى علاج المرضى والتخفيف عنهم. اللهم إلا إذا كانت هناك جهود غير معلنة ساعدت على بقاء البيمارستان واضطلاعه بوظيفته.

ولم تكن القاهرة وحدها ترزح تحت وطأة الأمراض وقلة دور العلاج، بل شاركها كثير من عواصم العالم آنذاك، ففى باريس فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثلاً كانت توجد دور علاج، ولكنها كانت فى حالة يرثى لها، ولحق

بها الخراب، وكان القصور والعجز السمة الغالبة لهذه المؤسسات القذرة المكتظة، حيث يختلط العجزة والمعلولون وصغار المجرمين والمومسات والمتسولون وغير المرغوب فيهم بالمرضى وضحايا السرطان والمختلون عقلياً، وعليه فإنه يمكن القول إن المستشفى استخدم كملجأ وسجن وملاذ، ويأتى العلاج فى نهاية الأولويات كشئ عرضى ولعل السبب الذى أدى به إلى هذه الحال هو عدم القدرة على التأقلم العلمى.

وفى مستشفى (أونيل ديو) بباريس كان يستلقى فى فراش واحد أربعة، أو خمسة، أو ستة، ونرى قدم الواحد فى جانب رأس الآخر، كما يشاهد الأطفال الصغار إلى جانب الشيوخ الشيب، وكان الإهمال سمة كل شئ، وكانت الأطعمة من أدنى الدرجات وبمقادير قليلة على أوقات غير منتظمة، كما كانت الحشرات تتراكم فى الدواء كله، وتفسد رائحة الهواء فى قاعات المرضى، حتى أن الزوار ما كانوا يجرءون على دخولها إلا بعد أن يضعوا على وجوههم إسفنجة مبللة بالخل. وتبقى عادة جثث الموتى أربعاً وعشرين ساعة فى الفراش ويغلب أن تبقى مدة أطول قبل أن تنقل.

ولم تكن لندن بأحسن حال، فقد كانت المستشفيات فيها قليلة فى القرن السابع عشر ومحدودة الإمكانيات، حيث كانت تقف عاجزة أمام الأوبئة، ولم تكن تقدم من العلاج شيئاً يذكر. والحق أن الأوبئة التى داهمت بلاد العالم فى العصور الوسطى والحديثة ما كانت لتعصف بكل هذه الأعداد لو وجدت مشافٍ ودور علاج تستطيع أن تمد يد المساعدة إلى أبنائها.

من خلال العرض السابق يتضح أن دور العلاج التى وجدت فى القاهرة فى العصر العثمانى كانت متواضعة للغاية، وعددها قليل، وخلت من منشأة متخصصة شيدت لهذا الغرض فى ذلك العصر.

ولكن على الرغم مما آلت إليه الأمور فى العصر العثمانى من قصور هائل فى الخدمات الطبية، فإنه وجد بصيص من نور ظل يقاوم غيابات الظلام، ذلك أن بعض الولاة والعلماء والأزهر الشريف أبقوا على جذوة العلم متقدة لعلها تجد من ينفث فيها ويعيد لها الحياة. ووجدت قبل أن أختم حديثى فى هذا الفصل أن أتحدث فى عجالة عن الحالة العلمية وما وصلت إليه فى العصر العثمانى.

الحالة العلمية فى مصر أثناء الحكم العثمانى

يعتبر الطب أحد أهم أفرع الحالة العلمية لأى مجتمع، وإن تقدم الطب يعكس بصورة، أو بأخرى مدى قوة وازدهار الحالة العلمية وتقدمها. وإذا أردنا أن نلقى مزيداً من الضوء على الأحوال الطبية فى مصر أثناء الحكم العثمانى، فإنه لا يتسنى لنا هذا دون معرفة ما وصلت إليه الحالة العلمية فى مصر فى تلك الفترة. وعند الحديث عن الحالة العلمية فى مصر أثناء الحكم العثمانى يجب أن نذكر حقيقة مهمة، وهى أن الصورة التى رسمها بعض الباحثين لهذه الفترة قد اعتراها كثير من المبالغة والتجنى، حيث أفاضوا فى ذكر الانحطاط والركود والتخلف الذى أصاب الحياة العلمية والثقافية فى تلك الفترة. والواقع أن الصورة لم تكن بتلك القتامة، وأن الحالة لم تكن بتلك الضحالة، صحيح أن النقاط المضيئة ومحاولات التمسك بالأسلوب العلمى كانت قليلة، إذا ما قورنت بطول الفترة التى امتدت زهاء ثلاثة قرون، ولكنها كانت موجودة وأن تراجعها لم يكن وليد العصر العثمانى، ولكنه بدأ منذ أواخر عهد الدولة المملوكية. ويجب علينا - بشئ من الموضوعية - أن نذكر الجانب الإيجابى، مثلما ذكرنا الجانب السلبى حتى نكون منصفين وحتى يخرج البحث متكاملاً بعيداً عن الهوى والأغراض ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وما يجدر ذكره أن بعض الولاة العثمانيين كانت لهم بعض الإسهامات المتواضعة فى مجال العلم، فقد عمل داود باشا (١٥٣٨-١٥٤٩م) على تزويد مكتبات جوامع القاهرة بالكتب والمخطوطات، وكانت محادثات جعفر باشا ١٦١٨م دسمة ومفيدة وأعجب به علماء الشريعة وفقهاؤها، كما أعجب به رجال العلوم، وكان لمقصود باشا (١٦٤٣م) علم واسع بالرياضيات، أما رامز باشا (١٧٠٥م) فكان يميل إلى مناقشة الموضوعات العلمية والطبية والفلسفية، وكان أحمد باشا (١٧٤٨-١٧٤٩م) يميل إلى الرياضيات.

والحقيقة أن المحاولات الجادة فى الأخذ بأسباب العلم وتطبيقه فى تلك الفترة لاقت صعوبات أعاقت سيرها، وإن لم تمنعها من المضى فى طريقها، وهى أسباب بعيدة كل البعد عن أهل العلم أنفسهم، فلم يكن مردها إلى تقاعس منهم، أو تخاذل، أو سطحية، وإنما ترجع إلى الظروف المحيطة التى كانت ترزح تحتها مصر بصفة عامة والقاهرة بصفة خاصة.

ولعل أبرز هذه المعوقات:

(١) الظروف الصحية من أوبئة وخلافه.

(٢) ثورات الجند وفتنهم التى كانت ظاهرة تميز بها العصر العثمانى وأفاض المؤرخون فى ذكرها، الأمر الذى هدد الأمن وروع الأهالى، وأثقل عليهم فى أمور لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

(٣) قلة عدد المدارس وضعف إمكانياتها، من حيث ترتيب دروس العلم وتوفير المدرسين وإعداد الكتب.

كانت تلك أهم الأسباب التى حالت دون وصول الحالة العلمية إلى المكانة المرجوة منها، ولكن فى ظل هذه الظروف استطاعت بعض المؤسسات الدينية وبعض الأفراد أن يحافظوا على قدر من المناخ العلمى جعل القاهرة قبلة العلماء والمتعلمين، واحتفظوا لها بالريادة فى هذا المجال.

الأزهر الشريف

يأتى الأزهر الشريف فى طليعة المؤسسات الدينية التى اضطلعت برسالة الحفاظ على الهوية العلمية التى صبغها بصبغته منذ إنشائه، يقول المقريزى صاحب الخطط: "لا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو والوعظ" مما أضفى عليه تلك المكانة المرموقة. وفى العصر العثمانى ظل الجامع الأزهر يؤدى دوره المنوط به فى الحفاظ على جذوة العلم، الأمر الذى حافظ عليها من أن يخبو نورها ويخمد توهجها. وأصبح الأزهر فى ذلك العصر بمثابة منارة للعلم تشع بنورها وهادياً لكل من يلتمس السير فى دروب العلم والتعليم. وإذا كانت الآراء قد أجمعت على أن الأزهر قد جمد فكره عند علوم السلف، فإنه ظل مقصد الطلاب التماساً للعلم من كل فج لينهلوا من علومه، وكان بينهم التركستانى والهندى والزيلعى والسنارى والشامى والمغربى والعجمى واليمنى.

وفى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، كان هناك بعض العلماء يدرسون علوماً أخرى إلى جانب العلوم الدينية مثل الطب، الذى ألف فيه الشيخ على الطحان منظومة سماها "منظومة الطب". ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين الذى زار مصر فى القرن الحادى عشر الهجرى، الـ١٧م، أنه وجد الأزهر مؤسسة وجامعة تعليمية تجتمع فيه الطلبة ويدرسون فيه الطب والفلك

والفلسفة، وأشار إلى أنه لابد من توقيع الكشف الطبى على الطلاب قبل انتسابهم إليه ويسمح لذويهم بالزيارة، كما ذكر النابلسى أنه خلال زيارته للقاهرة التى استغرقت ٨٣ يوماً حرص على حضور مجالس العلم "التى كانت تعقد فى الأزهر"، كما كان والده يذهب للقاهرة للدراسة بها.

ويحسب للعصر العثمانى أنه العصر الذى استحدثت فيه وظيفة مشيخة الأزهر فى نهاية القرن الـ١١هـ/١٧م، وأسندت أول مشيخة للأزهر للشيخ محمد عبد الله الخرشى. وأفاض الجبرتى فى الحديث عن الجامع الأزهر والعلماء الذين تولوا التدريس فيه وعن المشايخ الذين تولوا رئاسته. ولعل أبرز دليل على حفاظ الأزهر على مكانته العلمية طيلة القرون الماضية لجوء محمد على باشا إلى طلابه، ليكونوا نواة وطليعة للبعثات العملية التى أرسلها لأوروبا لدراسة مختلف العلوم العقلية، فكانوا بحق طلبة نجباء استطاعوا أن ينهلوا من مصادر المعرفة التى أتيحت لهم، ويعودوا لوطنهم حاملين مشعل العلم والتقدم باذلين غاية جهدهم لخدمة أبناء وطنهم.

دور العلماء:

نظراً للظروف التى ذكرناها والتى كانت تعوق مسيرة العلم، فقد آثر فريق من العلماء والأثرياء أن يعقدوا جلسات العلم فى دورهم، وتردد عليهم الطلبة ليأخذوا عنهم العلم، كما حول بعض الأثرياء دورهم إلى مكتبات ضمت ذخائر الكتب والمخطوطات، حتى ييسروا للطلبة سبل الاطلاع عليها ومعرفة محتوياتها، ذلك لأنهم كانوا يحترمون العلم والعلماء ويفخرون بذلك كل الفخر. ومن بين العائلات التى اشتهرت بحب العلم عائلة دادة الشرايبى، الذين عقدت فى دورهم المجالس العلمية، وأطلق على بيتهم المشهور فى بركة الأزبكية بيت العز والمجد والفخر، وتردد على منزلهم العلماء والفضلاء، وكانت مجالسهم عظيمة، وبدورهم خزانات الكتب التى ضمت نفائس ودرراً من المخطوطات التى تناولت شتى نواحى العلم. هذا وقد وجد بعض الولاة العثمانيين الذين شجعوا العلم، وقربوا إليهم العلماء مثل (على باشا الوزير) الذى قدم إلى مصر فى ١٥ شوال ٩٥٦هـ وعزل فى محرم ٩٦١هـ، وكان حاكماً عادلاً صالحاً محباً للفقراء والعلماء محسناً لهم، كذلك كان على باشا الخادم (٩٦٦/٩٦٧هـ) محباً للعلماء، ثم ولى أحمد باشا حافظ الخادم فى ١٨ رمضان ٩٩٩هـ إلى ٥ رمضان ١٠٠٣هـ وكان محباً للعلماء والفقراء وشيد عمارة ببولاق ووكايل وربوعاً وبيوتاً وأوقف جزءاً

للخير وذكر أيضاً من هؤلاء الولاة محمد باشا الصوفى (١٠٢٠/١٠٢٤هـ)، الذى كان محباً لأهل العلم، وأيضاً بيرم باشا (١٠٣٥/١٠٣٨هـ)، الذى كان أميراً عاقلاً محباً للعلماء.

الحالة الطبية

وبالنسبة للطب، فقد ظل البيمارستان المنصورى يؤدى مهمته سواء فى علاج المرضى، أو فى تعليم الطب حسبما تقتضيه الظروف، وأول من يطالعنا اسمه فى رئاسة الطب فى الديار المصرية فى الفترة العثمانية، الشيخ شهاب الدين بن الصائغ (٩٤٥-١٠٣٦هـ/ ١٥٣٥-١٦٢٦م)، وكانت رئاسته دليلاً على مكانته العالية وعلمه الغزير، وكان عمدة الأطباء وهو المنوط به إجازة الطب لمن يريد الاشتغال به.

والى جانب مساهمات الرجال، فقد ألفينا بعضاً من مساهمات النساء، والتى تمثلت فى حضور مجالس العلم والعلماء فى منازل الأعيان فى مختلف العلوم، أما إسهامهن فى مجال الطب، فيذكر أن ابنة داود الأنطاكى قد أدارت بنفسها مدرسة الطب التى خلفها والدها وكان ذلك عام ١٦٢٦م.

هذا فيما يخص مزاولة الطب كمهنة يتم تعاطيها لأجل تطبيب ومداواة المرضى فى فترة حكم العثمانيين لمصر؛ أما فيما يخص تدريس وتعلم الطب، فإننا ألفينا محاولات تعلم الطب فى الفترات التى كانت تسمح بها الظروف؛ حيث ورد ذكر اسم الشيخ أحمد الدمنهورى (ت١١٩٢,هـ/ ١٧٧٨م) الذى أخذ الطب عن الشيخ أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء، كما كان السيد قاسم محمد التونسى (ت١١٩٣هـ/١٧٧٩م) مدرساً للطب بالبيمارستان المنصورى، وقال عنه الجبرتى: "الشريف السيد قاسم بن محمد التونسى الذى كان إماماً فى الفنون وله يد طولى فى العلوم الخارجة، مثل الطب وكان معه وظيفة تدريس الطب بالبيمارستان المنصورى".

واستمراراً لدور البيمارستان فى توفير سبل العلم لطلابه الذين يفدون إليه نجد الطبيب المغربى ابن شقرون صاحب الأرجوزة الشقرونية يفد إليه ليدرس الطب على يد الطبيب أحمد الزيدان، وكان من جملة المواد التى درسه إياها ملخص قانون ابن سينا والذى لخصه ابن النفيس.

وقد أوردت لنا الوثائق بعض الأسماء التى كان لها شغف بالطب من شيوخ وعلماء، نذكر منهم على سبيل المثال: الشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا الشيخ

عبد الرحمن الجبرتى، والذى كان يحتفظ فى بيته بألوان من الدهون يعالج بها كثيراً من الأمراض والجراح، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها.

وكذلك الشريف الشيخ محمد بن زين المتوفى عام (١١٩١هـ/١٧٨١م) الذى كان واسع المعرفة بالمعقول والمنقول وله معرفة دقيقة بدقائق علم الطب، وكانت وصفاته الطبية تشفى المرضى وتزيل عنهم الآلام.

كما ورد ذكر الطبيب على بن محمد بن محمد بن على الجراح خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة (ت. فى صفر ١٠١١هـ) والطبيب الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين (ت. فى القرن الـ ١١هـ)، والطبيب شمس الدين محمد بن على المؤذن الجروانى (ق١١هـ)، والطبيب شمس الدين محمد القيم الذى كان جراحاً، وله دراية بطب الأسنان.

كما ذكر الجبرتى "الشيخ الإمام العلامة أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى المذاهبى الأزهرى، ولد بدمنهور الغربية سنة ١١٠١ هـ، وكانت له اهتمامات بالطب ورتب منظومة سمَّاها "القول الأقرب فى علاج لسع العقرب".

وخلاصة القول، كما يقول د. محمود المناوى فى كتابه «حكماء القصر العينى ص١٥»: "ونتيجة لتدهور الطب أصبح المصريون يعالجون أنفسهم بأنفسهم، إما بطريق الإيهام، أو بطريق التجارب، وكانت طبقة الجراحين والحجامين والحلاقين تحت زعامة رئيس لهم يدعى "جراح باشا"، ولم تتوافر لهم الوسائل لدراسة الفن الذى يزاولونه لأنهم لم يتعلموا بمدارس".

دور رعاية الحيوان

حث الإسلام فى تعاليمه على الرفق بالحيوان، وجاءت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية لتؤكد هذا المعنى الجليل. وبذلك سبق الإسلام الجمعيات والمؤسسات الحديثة التى تدعو، أو تطالب، بالرفق بالحيوان، بأكثر مما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان. وقد عدد القرآن الكريم منافع الحيوان على اختلاف أنواعه وعن رحمة الله بنا فى تسخيره لهذه الحيوانات، ليستفيد وينتفع بها بنو الإنسان. وقد شكل الحيوان أهمية كبرى حتى بدايات القرن العشرين فكان البعض منها قوام الحياة الاقتصادية بكل جوانبها مثل (الإبل- الأغنام- الماعز- الحمير والبغال) وكانت الخيل من العوامل الحاسمة فى أى معركة.

وكما نعلم أن دولتى المماليك والعثمانيين غلب عليهما الطابع العسكرى، فلا عجب أن يهتم أمراء كلتا الدولتين ورجالهما بالحيوان عموماً، وبالخيل بصفة خاصة. ولعل أصدق دليل على هذه العناية وتلك الرعاية، هو العدد الكبير من الأحواض التى شيدت من أجل رعاية الحيوان وأهمها (أحواض سقى الدواب)، حيث وصلنا ما يقرب من ٥٦ حوضاً تعود للعصر المملوكى، و٧٦ حوضاً ترجع للعصر العثمانى ما بين مندرس وقائم.

وأقدم الأمثلة الباقية للأحواض الملوكية الحوض المواجه لساقية مدرسة السلطان حسن (أثر رقم ١٣٣) (٧٥٧-٧٦٤هـ/١٣٥٦-١٣٦٢م). ثم حوض أم السلطان، شعبان بواجهة مدرستها بالتبانة (أثر رقم ١٢٥) (٧٧٠-٧٧١هـ/١٣٦٨-١٣٦٩م).

أما الأحواض العثمانية فكان أولها الحوض الذى أقامه سليمان باشا وشيده فى الفترة من (٩٦٣-٩٦٦هـ/١٥٥٦-١٥٥٩م).

وكان ضمن مجموعة معمارية كبيرة بخط باب الخلق تضم (جامعاً وسبيلاً ومكتبة وحوانيت وتكية ومنازل)، وقد أزيلت تلك المجموعة ودخلت فى حدود ميدان باب الخلق أيام تولية على باشا مبارك لوزارة الأشغال.

ولعل أشهر بناة الأحواض فى العصر العثمانى الأمير عبد الرحمن كتخدا سيد بنائى عصره، فقد أنشأ بمفرده ١٦ حوضاً لسقى الدواب فى مدينة القاهرة، لم يتبق منها للأسف سوى حوض واحد فقط هو حوض الحطابة. والحوض كان ضمن مجموعة معمارية وجاء أسفل مسجد من المساجد المعلقة. وهذا المسجد يعرف الآن بمسجد الشواذلية (أثر رقم ٤٥٠) ويقع بشارع الشواذلية المتفرع من شارع الموسكى. وإلى جانب المسجد والحوض ضمت المجموعة المعمارية فرناً وطاحوناً وساقية وحوشاً يحتوى على سبع قاعات وأربع طباقات ولم يتبق من هذه المجموعة سوى المسجد، حتى الحوض تم الاستيلاء عليه وفتح مكانه محلان للتجارة.

ومن مظاهر الاهتمام ورعاية الحيوان، ما ذكره إدوار لين من ملاحظات فى كتابه عن عادات المصريين وشمائلهم حول معاملة المصريين للكلاب، حيث قال: "وكانت رؤية الكلاب المشردة تضرب فى شوارع القاهرة ورؤية الرجال وهم يقومون بإطعامهم الخبز، ونجد فى كل منطقة من العاصمة أحواض ماء صغيرة يتم ملؤها يومياً للكلاب بواسطة السقا حتى تشرب فيها.

كذلك نعثر على حوض ماء مخصص للكلاب تحت كل محل (شربتلى) أى بائع

الشـربات ويسـتطرد قـائلاً: "الأمـر المثيـر فى القـاهرة أن يتولـى القـاضى رعـاية القطط المشردة على نفقته التامة تقريباً، ويتم إحضار كمية من فضلات الطعام ظهيرة كل يوم إلى الباحة الكبيرة الواقعة أمام المحكمة، وتجتمع القطط لتناول الطعام فيها، وقد أوصى الظاهر بيبرس بحديقة تعرف (بغيط القطط) الواقعة بالقرب من الجامع (جامع الظاهر بيبرس) شمال القاهرة لتسرح فيها القطط وتمرح، وهناك ريع يصرف منه على القطط المشردة، ويسأل القاضى مسئولية كاملة فى كامل نفقات إعالة هذه القطط.

الفصل الثانى



دور العلاج فى القاهرة :
عهد محمد على
حتى نهاية القرن الـ١٩م

تمهيـــد:

يعتبر مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر، واستيلاؤها عليها فى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، هو التاريخ الحقيقى لانتهاء فترة حكم العثمانيين الفعلى لها، صحيح أن التبعية ظلت للباب العالى حتى ١٩١٤م، عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، ولكنها كانت تبعية اسمية فقط. والحق أن السنوات التى سبقت مجئ الحملة كانت شديدة القسوة، بلغ الظلم فيها مداه، وعبر عن ذلك الجبرتى، بقوله: "واستهلت سنة تسع ومائتين وألف، ولم يقم بها شئ من الحوادث سوى جور الأمراء وتابع مظالمهم، واتخذ مراد بك الجيزة سكنا، وزاد فى عمارته، واستولى على غالب بلاد الجيزة بعضها بالثمن القليل، وبعضها غصبا، وبعضها معاوضة".

وعن حوادث سنة ١٢١٠هـ يقول "لم يقم بها شئ من الحوادث التى يعنى بذكرها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم".

كانت كلمات الجبرتى أصدق تعبيراً وأدق وصفاً لما كانت عليه حالة المصريين فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، وبداية القرن الثالث عشر الهجرى، وكان لابد أن يكون لهذا الظلم نهاية، وبدأت الأحوال تنذر بحدوث شئ جلل سيكون له من الآثار ما تغير شكل الحياة فى مصر كلها، وعن ذلك يقول الجبرتى أيضاً: "واستهلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور، وتوالى المحن واختلال الزمن، وانعكاس الطبوع وانقلاب الموضوع، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون".

وكان الجبرتى يعنى بذلك وصول الفرنسيين أرض مصر، بدءا بالإسكندرية فى صيف عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، بقيادة نابليون بونابرت..وقد ذكر الجبرتى وقائع الحملة وسرد أخبارها فى مؤلفه القيم (عجائب الآثار فى التراجم والاخبار جزء ٣، طبعة بولاق).

الأحوال الصحية لدى قدوم الحملة الفرنسية

عندما دخل الفرنسيون القاهرة، كانت المرافق الصحية وقواعد الصحة العامة مجهولة، وكانت قطعان الكلاب المسعورة تجوب الشوارع دون أن يمنعها أحد، واستشرى العمى الذى يسببه مرض الرمد الحبيبى حينذاك وهو مرض مازال منتشرا بمصر، وكانت نسبة وفيات الأطفال مذهلة.

وكانت أكثر الأمراض تفشياً الإسهال بأنواعه الذى أهلك الكثير من الجنود الفرنسيين والأهالى، كما اشتدت وكثرت الإصابة بأمراض الزهرى والسيلان، وهى ما يطلق عليها أمراض الاحتلال العسكرى، وقد استخدم الفرنسيون العنف فى مقاومة هذين المرضين، يتضح هذا عندما أوعز نابليون إلى أغا الإسكندرية بالتخلص من البغايا بإبعادهن عن معسكرات الجنود، فما كان من الأغا إلا أن قطع رأس ٤٠٠ منهن ،وألقى بجثثهن فى النيل، وبذلك ألقى نابليون بالتبعة على كاهل الأغا.

وعند دخول الفرنسيين إلى القاهرة لم يكن بها سوى مستشفى وحيد يوجد به خمسة وسبعون سريرا، منها خمسون مصنوعة من الحجر، ونحو أربعين مريضا من الجنسين جائعون مهملون، منهم خمسة عشر اختلت عقولهم وقيدوا بالأغلال، وكان العلاج يتم باستعمال بعض الأدوية والوصفات البلدية.

وقد عكف بعض أطباء الحملة على دراسة الطب الشعبى بعناية، ربما يجدون فيه شيئا من حكمة القدماء لأنهم كانوا يعلمون أنهم احتلوا بلداً له من الرصيد الحضارى نصيب زاخر، وبصفة خاصة فى العلوم الطبية.

الحملة الفرنسية والشئون الصحية

أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر شهدت القاهرة بعض الاهتمام بالشئون الصحية، من خلال بعض الأوامر والإجراءات التى أصدرها الفرنسيون وعملوا على تنفيذها بكل جدية ومنها:

١- الإبلاغ عن المرضى عند وجود وباء، وعدم الانتقال من مكان موبوء. ومن يخالف هذين الأمرين يقتل.

٢- منع دخول الناس للقاهرة مدة الوباء. ومن يدخل يقتل ولو كان فرنسيا.

٣- لابد أن يخضع المريض لفحص الطبيب وكتابة تقرير عن حالته.

٤- الأمر بنشر الثياب وتطهير المنازل حتى لا ينتقل منها، أو إليها الوباء.

وكان نابليون قد أمر بعد دخوله القاهرة بإنشاء محاجر صحية ببولاق يدخل إليها كل قادم للقاهرة، ويحتجزه الأطباء ليوقعوا الكشف الطبى عليه، فإن كان مريضا منع من الدخول، وينتقل إليها كل مريض حتى يشفى، أو يموت.

وكانت محاجر بولاق استكمالا للنظام الصحى الذى وضع أساسه بالإسكندرية.

وأمر نابليون كذلك بإقامة مستشفى عسكرى فى مقعد إبراهيم بك تجاه الروضة، كما أنشئت مستشفيات عسكرية فى الجيزة وبولاق ومصر القديمة، واهتم أطباؤها بالصحة العامة للمصريين الذين لم يجدوا غضاضة فى عرض أنفسهم على أطبائها وتناول ما يعطى لهم من دواء.

وكانت هناك محاولة لإنشاء مستشفى مدنى كبير يسع ٤٠٠ سرير لعلاج المرضى بالقاهرة، حسب ما أوصى به كبار أطباء الجيش، مع التوصية بإنشاء مدرسة طبية ملحقة به لتعليم الطب بالفرنسية.

كما كان هناك تفكير بإنشاء صيدلية مركزية بالقاهرة، تكون مهمتها توفير الأدوية لأفراد الشعب.

ولكن للأسف ظلت معظم هذه المشروعات حبرا على ورق، وذلك لقلة المال اللازم لتمويلها وعدم توفر الوقت للقيام على تنفيذها.

ولا شك أن هذه الإجراءات والتنظيمات قد انعكس أثرها الطيب على الأهالى الذين أرهقتهم الأوبئة المتلاحقة، وسقمت أبدانهم الأمراض المتوطنة، ولكن معظم هذه الإجراءات كانت وقاية وتأميناً لجنود الحملة، الذين جاءوا إلى بلاد لم يألفوها وأجواء لم يعتدوها، وسرعان ما تعرض الجنود الفرنسيون إلى الإصابة بأمراض مثل الرمد الحبيبى والدوسنتاريا والزهرى والسيلان، ولم يسلموا أيضاً من وباء الطاعون، الذى فشا فيهم بصورة كبيرة أثناء حملة نابليون على بلاد الشام، وأدى إلى وفاة عدد كبير من الجنود، الأمر الذى أزعج نابليون، مما اضطره إلى أن يأمر بتسميم الجنود المرضى بالمستشفى حتى يتخلص منهم ليستطيع التقدم لتحقيق هدفه.

هذا وقد درس علماء الحملة الفرنسية الأمراض المنتشرة فى مصر، ورتبوها وصنفوها وكتبوا عن أعراضها وطرق علاجها، كما عنوا بدراسة الحشرات والجراثيم التى تؤذى الأهالى وطرق مكافحتها.

هذه لمحة سريعة عن الحالة الصحية فى مصر والقاهرة عشية دخول الحملة الفرنسية إليها، تلك الحملة التى لم تمكث سوى ثلاث سنوات من ١٧٩٨-١٨٠١م فقط. والحق أن الصدام لم يكن بين قوتين عسكريتين، بقدر ما كان صداما بين حضارتين، إحداهما ما زالت تعيش بعقلية العصور الوسطى، والأخرى حديثة فتية، والذى يعنينا هنا أن الحملة الفرنسية لفتت نظر المصريين إلى أمور حضارية كانوا يجهلونها تماما، وأدركوا أنهم كانوا فى سبات عميق، فنهضوا ليلحقوا بركب الحضارة.

محمد على باشا والياً على مصر

يعتبر محمد على أول حاكم فى تاريخ مصر منذ عصورها القديمة يتم تعيينه نزولا على رغبة الشعب، والحق أنه كان يتمتع بسمات شخصية تؤهله للقيادة، وأدرك بثاقب نظره أن الظروف كلها مهيأة لكى يكون حاكما لهذا البلد، الذى حضر إليه كجندى ضمن الجيش التركى، الذى بعثه السلطان العثمانى لإجلاء الجيش الفرنسى عن مصر.

على أى حال تولى محمد على ولاية مصر فى عام ١٨٠٥م، وصادف فى أولى سنى حكمه بعض الصعاب والمشكلات، التى كانت إحداها كفيلة بالقضاء عليه وعلى حلمه الكبير الذى سعى لتحقيقه فيما بعد، وتمثلت هذه الصعاب فيما يلى:

١- محاولة السلطان العثمانى خلعه لعدم رضائه عن أسلوب تعيينه.

٢- الحملة الإنجليزية بقيادة (فريزر) عام ١٨٠٧م.

٣- المماليك وما كانوا يشكلونه من قوة مناوئة، رأت فيه أنه مغتصب للسلطة.

٤- الانتفاضة الشعبية بقيادة زعيمها السيد (عمر مكرم) ووقوفها للحد من أطماعه.

ومن حسن حظ محمد على أن اثنتين من تلك المشكلات لم يبذل فى التغلب عليهما جهدا، واستطاع الخروج منهما دون عناء، فالأولى تكفل بها زعماء الشعب بإصرارهم لدى السلطان على بقاء محمد على حاكما على مصر، أما

الثانية فقد تولى الأهالى فى رشيد مهمة الذود والدفاع عن بلادهم، ولقنوا الإنجليز هزيمة قاسية، وأجبروهم على الخروج من البلاد. أما الثالثة والرابعة فقد تولاهما بنفسه، لأن الغدر والمكيدة والقوة كانت الأسلوب الأمثل فى مواجهتهما بناءً على تقديره هو.

بالنسبة للشعب وزعامته فقد تنكر لهم وضرب بقسوة هذا التيار الوطنى الوليد، وأطاح بزعامته المتمثلة فى السيد عمر مكرم الذى نفاه إلى دمياط. أما عن المماليك فقد تم القضاء عليهم بوحشية فى أشهر مذبحة فى التاريخ، عرفت بمذبحة القلعة عام ١٨١١م.

استتب الأمر لمحمد على وبدأ فى ترتيب أمور ولايته، وأيقن أن البدء فى تكوين جيش قوى، أمر يأتى فى مقدمة وطليعة كل الأمور، وأن ما يستحدث من تنظيمات وإجراءات، إنما يُتخذ لخدمة هذا الجيش وتلبية لاحتياجاته، ويأتى على رأس هذه الإجراءات الشئون الصحية، التى تمثل أهمية قصوى فى الوقاية والحفاظ على سلامة وصحة أفراد الجيش.

الرعاية الصحية فى عهد محمد على

يرجع اهتمام محمد على بالشئون الصحية إلى الانتشار المرعب للأوبئة مثل (الطاعون والجدرى)، وما كانت تسببه من وفيات كثيرة وآثار وخيمة على المجتمع، ثم ظهر الوباء الجديد الذى جاء مع حجاج بيت الله الحرام،، وكان بالغ القسوة شديد التأثير قوى الإبادة، وهو ما يطلق عليه اسمٍ وباء (الكوليرا). لذا انصب اهتمامه على تأمين البلاد من الأمراض الوافدة أولاً، ثم الالتفات إلى ما يوجد داخل القطر من أمراض، والتصدى لها.

نظام الحجر الصحى فى مصر (الكارنتينا)

تعود فكرة إنشاء حجر صحى فى مصر إلى السنوات الأولى من حكم محمد على، فيذكر الجبرتى أنه عندما جاء الطاعون فى عام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٢م، أشار الأطباء على محمد على بعمل كارنتينة بميناء الإسكندرية، فلا يدعون أحد المسافرين الواردين على المراكب من الديار الروحية يصعد إلى البر إلا بعد مضى ٤٠ يوماً من وروده"، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أخذ مصر بنظام الحجر الصحى وكانت أسبق من دولة السلطان العثمانى، التى لم تعمل به إلا فى عام

١٨٣١م. فقد أشار كبير الأطباء لدى الباب العالى الدكتور مصطفى بهجت على السلطان بعمل محجر صحى فى مضيق اسطنبول عندما ظهرت الموجات الأولى لمرض الكوليرا فى العديد من الدول مثل (الهند، وإيران، وروسيا) فوافق السلطان على الفور.

وفى شهر جمادى الآخر من عام ١٢٣٤هـ/ مارس ١٨١٨م، قام محمد على بعمل محاجر صحية داخلية عندما ظهرت حالات وفيات من الطاعون فى مصر، فيذكر الجيرتى أنه: "فى هذا الشهر حدثت بعض الوفيات بالطاعون، فمنع الناس بسبب ما حدث من الخروج، وتم عمل الكارنتينات، وتجنب الاختلاط وأمر يتبخير الأرواق والمجالس ونحو ذلك، وقضى الباشا شهر رمضان من هذا العام وهو مكرتن (مقيم) بشبرا ولم يطلع القلعة كعادته فى شهر رمضان المعظم.

وأدرك محمد على أن أكبر منفذ لعبور الأوبئة يأتى من جهة الشرق، وبصفة خاصة مع حجاج بيت الله الحرام الذين يختلطون أثناء تأدية مناسك الحج مع أجناس شتى يحملون الكثير من الميكروبات والعدوى لكثير من الأمراض المهلكة. ويأتى على رأس أولئك الأجناس حجاج جنوب شرق أسيا (الهند وإندونيسيا وغيرهما)، وكانت أخطر نوبات الوباء التى جاء بها الحجاج تلك التى حدثت عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م، عندما حمل العائدون من الحجاز ميكروب الكوليرا إلى السويس، ومنها انتشر بسرعة مذهلة إلى القاهرة والإسكندرية، وأدى إلى وقوع ضحايا كثيرين، مما جعل محمد على يصدر أوامره بعمل حجر صحى بميناء السويس مدته أربعون يوماً على كل من أتى من الحجاز. وفى العام التالى وتحديداً فى ١٣ رمضان ١٢٤٢هـ/١٨٣١م أصدر أمراً إلى محرم بك (محافظ الإسكندرية) بترجمة الترتيب الخاص بعمل الكارنتينات بمعرفة الجنرال (تيله)، والحكيم (جرول)، والقناصل يقضى بإنشاء أماكن بالقرب من الميناء الجديدة الشرقية وبالقرب من طابية الفنار.

وبمرور الوقت تقلصت مدة الحجر الصحى، وأصبحت نصف المدة السابقة تقريباً. أما الحجر الصحى فى الطور فيقوم بالتفتيش فيه جماعة من الأروام المسيحيين ليسوا على طريقة واحدة فى معاملة المسافرين وبحث الأمتعة، فمنهم من يبحث المتاع قطعة قطعة مع أدب وحسن معاملة، ومنهم من هو فظ سيىء الخلق، يعبث بمقتنيات الحجاج بحدة ويبعثرها بأسلوب غير مبالٍ ولا مكترث. وكانوا يأخذون الملابس لكى يقوموا بتبخيرها، ثم يرجعوها مختلطة ببعضها؛ الأمر الذى يجعل من الصعب على الحاج التعرف على ما يخصه منها. والشىء نفسه

يحدث للأمتعة التى ينزلونها من الباخرة، لكى يقوموا بتبخيرها أيضاً، وعندما يعيدونها يكون قد سرق جزء كبير منها، وأتلف بعضها وكان أغلبها أشياء ثمينة.

ثم ينتقل الحجيج بعد ذلك إلى السويس، وكان عليهم اتباع التعليمات الآتية:

١- لا يصرح لأحد بالنزول من الباخرة حتى ترسو على الرصيف المعد لها.

٢- يكون نزول المسافرين بالترتيب الآتى: المرضى، فالحجاج، فأسر موظفى المحمل، فخدمه، فقوته.

٣- يجب على كل فرد حين نزوله أن يقيد اسمه ولقبه وسكنه بالضبط، وبعد ذلك يكشف عليه الطبيب، أما السيدات فيكشف عليهن فى مكان أعد خصيصاً لهن، وتقوم بإجراء الكشف ممرضة أجنبية تساعدها طبيبة وطنية (مصرية)، فإذا دعت الحال لكشف طبيب السويس عليهن فعليه القيام بذلك.

٤- بعد خلو الباخرة من جميع ما فيها، يفتشها طبيب الصحة تفتيشاً دقيقاً ومعه ضابط الشرطة، ومندوب من قبل أمير الحاج[1]، وعلى الركاب الذين معهم مفاتيح حجرات تسليمها إلى المندوب المذكور.

وعند وصول الباخرة إلى السويس يفتشها الأطباء وكان رجال الحجر البحريون يطوفون طوال الليل حول الباخرة، كما كان الأطباء البحريون والذين يعملون بالبر وعمال الجمرك يحيطون بالحجاج حتى لا يتسلل منهم أحد.

وتابع محمد على إصدار أوامره بإنشاء المحاجر الصحية، ففى ٢٧ ربيع ثان عام ١٢٤٧هـ أصدر إلى محافظ رشيد أوامر ببناء كورنتينة بجهة رشيد بمعرفة أحمد أفندى ناظر مبانى الإسكندرية، ويكون البناء خارج بوغاز رشيد، حيث رسم المهندس سيتزرن، ويتم إخطار القناصل بذلك.

مما سبق رأينا أن العديد من المحاجر الصحية أنشئت بموانى مصر، ولكن للأسف اندثر معظمها ولم يبق منه أثر، أما الأمثلة التى ما زالت موجودة فهى عبارة عن بقايا أصابها كثير من التعديات، أولها بمدينة الطور وقد اتخذت القوات المسلحة الباقى منه معسكراً لقواتها، والثانى يوجد بمدينة القصير بمحافظة البحر الأحمر وهو فى حالة سيئة وإن كان محتفظاً ببعض التفاصيل المعمارية الرئيسية مثل السور الخارجى وبوابة الدخول.

---

(١) من اجل وأرفع المناصب فى دولتى المماليك ومصر العثمانية حتى عهد محمد على ، حيث كان يقود قافلة الحجيج المصرى وما ينضم اليها . للمزيد من الألقاب والوظائف أنظر د. مصطفى بركات فى كتابه «الألقاب والوظائف الغثمانية، دراسة فى تطور الالقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى انتهاء الخلافة العثمانية».

أولاً: محجر الطور

سميت مدينة الطور بهذا الاسم نسبة إلى طور سيناء، الذى هو أشهر جبالها، وكانت تسمى قديماً (ريثو) وبقيت معروفة بهذا الاسم حتى القرن الـ١٥ الميلادى.

والطور ميناء صغير على شاطئ خليج السويس الشرقى، ولهذا الميناء جرف مرجانى يمتد عشرات من الأمتار تحت الماء، حتى أنه لا يسمح للسفن البخارية الكبيرة بالاقتراب من البر بسببه وهو ضيق جداً لا يسع إلا السفن الصغيرة. وأغلب سكان الطور من الأقباط والأروام وفى ضواحيها كثير من البدو وبالقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء يعود للخديو عباس الأول يسمى حمام موسى، واشتهر أنه نافع للأمراض الروماتيزمية. وعلى بعد من المدينة يوجد دير الطور المشهور، وفيه بساتين تنتج كثيراً من الفاكهة، وفى شمالها الشرقى يقع جبل المناجاة الذى كلم الله عليه موسى.

موقع المحجر

يذكر نعوم بك شقير فى كتابه «تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ص١٥٠» أن المحجر يقع جنوب مدينة الطور على شاطئ البحر على نحو ٦٤٠مترا، بينما يذكر محمد لبيب البتانونى فى كتابه «الرحلة الحجازية لولى النعم الحاج عباس حلمى باشا الثانى خديوى مصر» أن المحجر يقع فى شرق المدينة وهو فى نقطة صحية جداً. والحق أن تحديد نعوم بك شقير أقرب للواقع، وإن كان أحد أجنحة المحجر يميل ناحية الجنوب الشرقى. وقد أسس المحجر عام ١٨٥٨م، ولكن لم يبدأ تنظيمه على الطراز الحديث وتجهيزه بأحدث المعدات والأدوات الصحية إلا بعد صدور الأمر العالى بذلك سنة ١٨٩٣م. وتبلغ مساحته نحو ٤ كيلومترات مربعة يحده من الغرب خليج السويس، ويحيط به من جهة البر شبكة من الأسلاك مرفوعة على عمد خشبية مثبتة ارتفاعها أربعة أمتار وهو محجر مصر العام والحجاج المصريين. والمحجر على شكل طائر عظيم جاثم فى البحر وباسط جناحين فى البر، وله ثلاث أرجل، وهى ثلاث مباخر من أحدث طرز مدت منها جسور فى البحر إلى آخر حد الجرف المرجانى ليتسنى للسفن الصغيرة الاقتراب من البر. وفى رأسه: معزل الموبوئين، أو مستشفى للأمراض غير العادية. وفى عنقه: أربعة مستشفيات مستشفى للجراحة وثلاثة للأمراض العادية وصيدلية كبيرة ومنازل للأطباء والممرضين والممرضات والعساكر وبيت المال ومخزن للكهرباء ينير المحجر كله وجهاز للتليفون يربط مراكز المحجر الرئيسية بعضها ببعض.

وفى جناحيه: صفان من الجزاءات، أو المنازل للحجاج فى كل صف عشرة، فالتى إلى اليمين مبنية بالحجر وقد خصصت للحجاج القادمين من جدة والتى إلى اليسار مجهزة بالخيام، وهى للحجاج القادمين من ينبع، وهى تؤوى آلافا من الحجاج فى وقت واحد. وفى بدنة: بئر عذبة الماء تدعى "بئر مراد" وقد ركب عليها وابور لرفع الماء. ومنها يشرب أهل المحجر ومدينة الطور. وحديقة متسعة من النخيل وأشجار الفاكهة. ومنزل لناظر المحجر ومنزل للمأمور ومخزن للخيام ومكتب للإدارة. هذا ويخترقه سكة حديد ضيقة من رأسه إلى قدمه. تنشأ من البحر من آخر حد الجرف المرجانى، وتمر بالمباخر والجزاءات وجميع المراكز الرئيسية فى المحجر إلى أن تنتهى بمعزل الموبوئين وخارج المحجر منزل الرئيس وخزانات الماء.

وكانت السردارية المصرية قد مدت إلى مدينة الطور خط التلغراف من السويس سنة ١٨٩٧، وأسست مصلحة البريد منها فرعاً سنة ١٩٠٠، فلما تم نظام المحجر سنة ١٩٠٧ نقل التلغراف والبريد إليه وجعلا عند مدخله، وكان البريد قديماً يحمل بالبر على الهجن. فلما انتظم المحجر وأسست مصلحة البريد فرعاً فى مدينة الطور صارت تمر بها مرة فى كل أسبوع باخرة من بواخر الشركة الخديوية فى السويس وذلك فى ذهابها إلى سواكن وجدة وفى رجوعها منهما. وفى موسم الحج يساعد على نقل البريد سفينة بخارية خاصة تبحر بين الطور والسويس مرتين فى الأسبوع. وللمحجر فى موسم الحج خفر داخلى من البوليس يأتيه من مصر وخفر خارجى من البوليس وبدو الطور، وفى نظارة الداخلية فى القاهرة قلم للمحاجر المصرية يخص بالعناية محجر الطور.

ويقع المحجر على بعد ١٢٥ ميلا من مدينة السويس ومن هناك تأتى بشائر الحجاج بوصولهم إلى مصر بالسلامة وذلك عن طريق التلغراف والبريد.

ثانياً: محجر مدينة القصير

تقع مدينة القصير على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر، وكانت منذ أقدم العصور نهاية درب القوافل الذى يربط وادى النيل بالبحر الأحمر عبر منطقة صحراوية تمتد نحو مائتى كيلو متر. وأطلق على القصير عدة أسماء؛ ففى العصور الفرعونية كانت تسمى (ثاغو)، و(ليوكوسى ليمن) فى العصر البطلمى وتعنى البناء الأبيض، أما فى العصر الرومانى فأطلق عليها (بورتوس البوس) وتعنى أيضاً البناء الأبيض. أما التسمية الحالية والتى تعود إلى العصر الإسلامى فهى صيغة التصغير لكلمة القصر بمعنى (الحصن) لأن المدينة تبدو

رابضة فى موقعها وكأنها حصن يحمى البلاد،، وكان هذا الاسم يطلق على العديد من الثغور التى تحمى منافذ الدولة الإسلامية.

وفى عهد الدولة العثمانية اهتم السلطان سليم الأول بميناء القصير فأمر بإنشاء القلعة (وهى موجودة حتى الآن) وديوان محافظة القصير (وهو موجود حتى الآن ويشغله قسم شرطة القصير) وجمرك القصير.

تاريخ محجر القصير

كان أصله شونة للغلال التى تخزن فيها لتصديرها إلى البلاد العربية، وخاصة ميرة (مؤنة) الحرمين الشريفين التى كانت تشحن إلى ميناءى جدة وينبع، ثم استخدمها محمد على باشا كمستودعات لتخزين الحبوب وشحنها منها لتموين حملته على الجزيرة العربية عام ١٢٢٦هـ/١٨١٨م ويعلو المدخل الرئيسى للشونة نص تأسيس يحمل تاريخ التأسيس والإنشاء وهو عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٧ - ١٧٩٨م أى فى عهد السلطان العثمانى سليم الثانى (١٧٩٨ - ١٨٠٧م) ولكن للأسف ضاعت هذه الكتابات وطمست بمادة طلاء قاتمة يصعب معها تصويرها. وملحق بالشونة مسجد صغير يسمى حالياً بمسجد السمان، وكان فيما مضى متصلاً بالشونة بواسطة باب داخلى فى جداره الشمالى، وكان الغرض من إنشائه هو مساعدة التجار والكيالين والعاملين بالشونة على أداء فريضة الصلاة عن قرب؛ حتى لا يتوقف دولاب العمل. هذا وقد أهمل هذا المسجد طويلاً إلى أن قيض الله له من يجدده ويعيد افتتاحه، وكان ذلك فى ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٣هـ/ أول يناير ١٩٣٥م على يد الصاغ عبد العزيز فهمى يوسف مأمور مركز القصير حينذاك وبعض فاعلى الخير من أهل البلدة.

وفى عهد الخديو سعيد باشا أضيفت للشونة بعض المبانى التى غيرت من وظيفتها وأصبحت محجراً صحياً، وقد أطلق عليها البعض خطأ اسم (المحجر العثمانى) ومن أسماء الأطباء الأجانب الذين عملوا بمحجر القصير الطبيب الألمانى (كارل بنيامين كلو نسنجر) الذى عمل على فترتين، الأولى من (١٨٦٤ - ١٨٦٩م) والأخرى من (١٨٧٢ - ١٨٧٥م).

وحتى تتكامل الخدمة الصحية أنشئ فى عهد الخديو إسماعيل فى سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م أول مستشفى بمدينة القصير يشتمل على ٢٥ سريراً، وكان موقعه فى المنطقة التى يوجد بها المبنى التابع لمحطة اللاسلكى بالقرب من شاطئ البحر.

والحق أن الأخذ بنظام الحجر االصحي كان من أكثر الأنظمة الحضارية التي اتخذها محمد علي للحد من خطر الأوبئة الوافدة من خارج البلاد، وكانت مصر أسبق من دولة الخلافة في الأخذ بهذا النظام وإن لم يقض علي الأوبئة بصورة كاملة؛ ومن ثم تتابعت جهوده للقضاء علي جميع الأمراض التي تفتك بأجساد المصريين؛ فقد اهتم محمد على بالقضاء على الجدرى الذى ظهر بشكل وبائى فى بعض السنوات، كما حدث فى عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م، ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م وذلك بالقيام بحملة تطعيم شاملة على مستوى البلاد بعد أن أصدر محمد على أمرا لجميع الجهات بأنه استقدم اثنين من الحكماء الفرنسيين بواسطة قنصل فرنسا، وأنهما سيقومان بتطعيم الأهالى بمادة الجدرى وتعليم من يلزم فن التطعيم.

كما اتخذ محمد على عدة إجراءات كان من شأنها الحد من تطور الأمراض، وازدياد الوعى الصحى لدى المواطنين وكان منها الأمر الذى أصدره، وينص على ما يلى:

أولاً: إبعاد الجبانات خارج جميع المدن والقرى ونقل أسواق السمك وأماكن الذبح إلى أرض خلاء بعيدة عن السكن. وفى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م منع زراعة وتجارة الحشيش والأفيون لما يسببه من ضرر شديد لأفراد الشعب، وخاصة الشغالة منهم بالرغم من عائدها الكبير الذى بلغ ٣٠٢٤٩٣ قرشا فى ذلك العام.

ثانياً: مقاومة ومطاردة الدجالين من الوطنيين والأجانب الذين كانوا يغررون بأبناء البلاد، وينتحلون لأنفسهم صفة الأطباء، حتى يروجوا لأعمالهم الباطلة والزائفة، كما حدث مع أربعة من الأجانب الذين ادعوا الطب والذين أمر محمد على بطردهم خارج البلاد وقال: "ولو فعل مثل هذه الفعلة أحد المسلمين لجوزى بالقتل، أو الخاذوق".

ثالثاً: استقدام الأطباء من الخارج

أحست الحكومة بالحاجة الشديدة إلى العناية بالصحة العامة من جهة، وصحة رجال الجيش والأسطول من جهة أخرى، فشرعت تستدعى الأطباء الأجانب ليقوموا بهذا العمل، ومن أشهر الأطباء الأجانب الذين تم استدعاؤهم الدكتور "أنطوان كلوت بك" الذى تم تعيينه طبيبا ورئيسا للجراحين بالجيش المصرى.

كما أصدر محمد على باشا فى غرة ربيع الثانى فى عام ١٢٣٩هـ أمرا للخواجة (باغوص) باستحضار اثنين من أطباء أمريكا لتعهد السودانيين المجلوبين لمصر وحفظ حياتهم من التلف لخبرتهم بما يدفع الضرر عن هذا النوع لوجود زنوج أمثالهم بأمريكا، كما تمت الموافقة على إحضار نخبة من أعظم أطباء أوروبا منهم (جايتانى) الطبيب الإسبانى تلميذ (فاكا) الذى صار فيما بعد عضوا بمجلس الصحة العامة وطبيبا خاصا لسمو الوالى، والطبيب (دوفيتو) من جامعة الطب الباريسية والأطباء (سليزيا وفيجارى وبرنارد وبرتلمى)، وكذلك الطبيبان البافاريان (برونر وفيشر)، وجاء من باريس (بيرون) الكيماوى المعروف، ومن جامعة باريس جاء الطبيبان (باشنود وسيسرن) وقد عمل هؤلاء الأطباء أيضاً بمدرسة الطب التى تولى امرها كلوت بك والتى سنتحدث عنها فيما بعد.

رابعاً: البعثات العلمية لدول أوروبا

منذ وقت مبكر بدأ محمد على التفكير فى إرسال بعثات من الطلبة المصريين إلى الدول الأوروبية لتلقى العلم على الطرق الحديثة، وكانت أولى تلك البعثات فى عام ١٨١٣م متجهة إلى إيطاليا لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة، ثم أرسل عدداً من الطلبة إلى إنجلترا وفرنسا وقد بلغ عدد الطلبة فى هذه البعثات الأولية ٢٨ طالبا، لم يعرف منهم سوى (نقولا مسايكى) الذى تعلم فن الطباعة فى روما وميلانو لمدة أربع سنوات، ثم عاد وتولى رئاسة مطبعة بولاق من ١٨٢١م حتى وفاته عام ١٨٣١م كذلك عثمان نور الدين أفندى من أعضاء بعثة فرنسا والذى صار أميرالاى للأسطول المصرى فيما بعد.

أما بداية البعثات الكبرى، فقد انطلقت من عام ١٨٢٦م، وكانت مؤلفة من ٤٠ طالبا، وولت وجهها شطر فرنسا، وفى عام ١٨٢٨م، ثم إلحاق أربعة طلاب بها، فصار عددهم ٤٤ طالبا، وكانت متنوعة الأغراض والأهداف، فهناك دارسون (للحقوق والفنون الحربية والعلوم السياسية والملاحة البحرية والمدفعية والزراعة وغيرها).

وكان من ضمن هذه البعثة تلميذان تخصصا فى دراسة الطب والجراحة هما (على هيبة والشيخ محمد الدشطوطى) وكان إمامها العلامة رفاعة رافع الطهطاوى.

أما البعثة الثانية فكانت فى عام ١٨٢٨م، وكان قوامها ٢٤ تلميذا، تخصص معظمهم فى الهندسة والرياضيات، وكانت أيضاً مرسلة إلى فرنسا وضمت أيضاً أحد دارسى الطب والجراحة، وهو (محمد أفندى عبد الفتاح)، ثم توالى إرسال البعثات؛ ففى سنة ١٨٢٩م تم إرسال ٥٨ طالبا دفعة واحدة لثلاث دول هى فرنسا والنمسا وإنجلترا والذى يعنينا من أمر هذه البعثة أنها كانت تضم تلاميذ لتعلم صناعة الآلات الجراحية فى فرنسا.

وفى عام ١٨٣٢م أوصى كلوت بك بإيفاد بعثة طبية من خريجى مدرسة الطب (أول دفعة)، وكان عددهم ١٢ طبيبا إلى فرنسا لزيادة التحصيل والاستفادة من خبرات الفرنسيين، وكان ترتيب هذه البعثة الرابعة من جملة البعثات الخارجية، وهى أول بعثة يكون أعضاؤها متخصصين فى فرع واحد من العلوم ويتبعون جهة واحدة فقط، وهى مدرسة الطب، ومن ضمن هؤلاء الأطباء نذكر محمد على البقلى ومصطفى السبكى وإبراهيم النبراوى ومحمد السباس ومحمد الشافعى ومحمد السكرى.

وتوالى إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وجاءت البعثة الخامسة التى تعتبر كبرى البعثات التى أرسلت إلى فرنسا، حيث كان عدد طلابها ٧٠ طالبا، وسمَّاها على باشا مبارك «بعثة الأنجال»، لأنها ضمت عددا من أبناء محمد على باشا، وهم الأمير عبد الحليم والأمير حسين والأمير أحمد والأمير إسماعيل (الخديو إسماعيل فيما بعد). وقد ضمت أيضاً عدداً من دارسى الطب كان منهم (عبد الرحمن الهراوى ومصطفى الواطى وعثمان إبراهيم وبدوى سالم).

وقد بلغ عدد البعثات التى أرسلها محمد على إلى أوروبا تسع بعثات، كان آخرها بعثة عام ١٨٤٧م.

هذا وقد بلغ عدد الطلبة الذين أرسلوا فى هذه البعثات ٣١٩ تلميذا، ابتداءً من عام ١٨١٣ وحتى ١٨٤٧م، وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التى بلغتها مصر فى ذلك العصر، وبلغ إجمالى ما أنفق على تلك البعثات مبلغ ٣٠٣٣٦٠ جنيها، وهو مبلغ ضئيل، إذا قيس بحجم الفوائد التى عادت على مصر من وراء إرسال تلك البعثات التى ألحقت مصر بركب الحضارة الحديثة.

خامسا: الاهتمام بصحة التلاميذ

أعطى محمد على اهتماما كبيرا بصحة التلاميذ فى المرحلة الأولية، لأنه أدرك أن الاهتمام بالنشء هو فى حد ذاته اهتمام بالمستقبل، فأمر بتعيين طبيب لكل ثلاث مدارس، ثم أصبح بعد ذلك طبيب لكل مدرسة، يقوم كل منهم بمراعاة وملاحظة التلاميذ وفحصهم، ورتب أجزخانة لصرف الأدوية فى إحدى المدارس، وتكون مسئولة عن توفير الأدوية لعدد من المدارس حولها، وكان الأطباء مكلفين بعلاج الأمراض البسيطة، أما الأمراض المستعصية، أو العمليات الجراحية، فيتم تحويلها إلى المستشفى العام، وكان الأطباء الذين يتم تعيينهم بالمدارس من الأوروبيين، ولكن بمضى الزمن بدأ إحلال الأطباء المصريين الذين أتموا دراستهم بمدرسة الطب محل الأطباء الأجانب.

جهود كلوت بك فى تنظيم الإدارة الطبية المصرية

استطاع كلوت بك أن يحظى بثقة محمد على فى زمن قصير، والحق أنه كان من الشخصيات الأوروبية القليلة التى أسدت إلى مصر خدمات جليلة، حيث كان أميناً فى النصح والإرشاد، وعندما حضر كلوت بك إلى مصر، وجد خللا مستحكما فى الإدارة الطبية، حيث لم تكن هناك قوانين للأطباء تنظم أحوالهم، ولا قواعد متبعة فى مواجهة الأمراض، وتقديم الرعاية الطبية المناسبة للأهالى.

وكان أول ما قرر إنشاءه من تنظيمات إدارية طبية هو استحداث (مجلس الصحة)، أو (شورى الأطباء) على غرار الموجود بفرنسا، وضم ثلاثة أعضاء، كان منهم الطبيب (يوازى) الطبيب الخاص بمحمد على، وعقد أول اجتماع لهيئة المجلس فى ٢٥ مارس عام ١٨٢٥ وخوله محمد على السلطة على الأطباء، وبعد فترة انضم إلى المجلس (كلوت بك) و(لوبسى السندرى) صاحب صيدلية القلعة.

وفكر كلوت بك، عندما أصبح مسئولا عن صحة رجال الجيش، فى إنشاء مستشفى لهم، فوقع اختياره على مكان فسيح كان يستخدم كمعسكر للجيش فى منطقة أبى زعبل ليكون مستشفى للجند، ثم ما لبث بعد مدة أن صار لجميع المرضى عسكريين ومدنين.

ثم تتابعت جهود كلوت بك فى محاولة لتحسين الحالة الصحية للمصريين، وأدرك أن هذا لن يتأتى إلا بتأهيل عدد من الأطباء يتولون مساعدته فى هذا

المجال، وكان التفكير فى إنشاء مدرسة للطب أمرا منطقيا، وسرعان ما وافق (محمد على) على إنشاء المدرسة التى اتخذت مكانها إلى جانب المستشفى بضاحية أبى زعبل القريبة من القاهرة، وقد واجه كلوت بك صعوبات فى سبيل إتمام مشروع المدرسة الطبية، تمثلت إحداها فى صعوبة تعليم الطب باللغات الأجنبية، نظرا لجهل المصريين بها، الأمر الذى يتطلب توفير عدد من المترجمين لتوصيل المعلومات إلى الطلبة، وثانيتها معارض رجال الدين لمبدأ تشريح الجسد الإنسانى لمخالفة ذلك لمبادئ الدين وحرمة هذا الجسد، ولكن كلوت بك بشئ من الإقناع والشرح استطاع أن يجتاز تلك المشكلة، والتى كانت أخطرها على مشروع إنشاء المدرسة. والذى يسترعى الانتباه هنا أن محمد على لم يتبع الطريقة ذاتها التى اتبعها فى اختيار الطلبة، مثلما يفعل فى اختيار طلبة المدرستين الحربيتين التحضيرية والعسكرية، بل اختار تلامذتها من المصرين طلبة الأزهر الشريف. واختارت الحكومة مائة تلميذ من النجباء، تتلمذوا على أيدى أساتذة أكفاء، معظمهم من الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعى والطبيعة والكيمياء والنباتات، وكان فيها أساتذة لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الأزهريين.

وبدأت الدراسة فى مدرسة الطب فى غرة شعبان عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م، وقد خصص لكل تلميذ فى كل شهر مائة قرش ماهية، ما خلا الكسوة والتعيين، وقسم هؤلاء الطلبة إلى عشرات يرأس كل عشرة أكثرهم علما.

وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى من تلاميذها، فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش، واختير من بينهم المتفوقون على أقرانهم، وهم عشرون، فأبقى منهم ثمانية فى المدرسة فى وظيفة معيدين للدروس، وأرسل الاثنا عشر الباقون إلى باريس لإتقان علومهم وإتمامها، ثم عينوا أساتذة بالمدرسة وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الطبية الرابعة. وكان على خريجى المدرسة أن يرددوا قسم الأطباء المستوحى من عاداتنا وتقاليدنا، وهو مغاير لقسم أبقراط واصطلح على تسميته بقسم الأطبا.

والحق أن مدرسة الطب كانت أكثر المدارس التى أنشأتها حكومة محمد على إنتاجا، وتحقيقا للغرض الذى أنشئت من أجله، وهى أول مدرسة (عالية) أنشئت فى مصر، ويعود الفضل الأول فى وجود المدرسة إلى كلوت بك، وما حصل عليه من تسهيلات وتيسيرات من الحكومة.

وألحق بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة بلغ عدد تلاميذها ٥٠ تلميذا فى عام ١٨٣٧م، كما ألحقت بها مدرسة لتخريج القابلات والحكيمات، وقد تم اختيارهن فى أول الأمر من السودانيات والحبشيات، تعلمن فيها مبادئ اللغة العربية وفن الولادة وألحق بمدرستهن مستشفى صغير للنساء، وقد اضطر كلوت بك إلى الاستعانة بالسودانيات والحبشيات ليكن نواة المدرسة، وذلك لعزوف المصريين عن إرسال بناتهن إلى المدارس بصفة عامة، وهذا النوع منها بصفة خاصة، كما أن المصريات يفضلن الولادة بدورهن على الذهاب إلى المستشفى، لذلك كانت الحكومة تلجأ لتشجيعهن على الذهاب إلى المستشفى بإعطائهن المنح والهبات والمزايا العينية.

ولعل أشهر خريجة فى هذه المدرسة من غير الحبشيات والسودانيات كانت (السيدة تمرهان)، أنبغ من تعلمت طب النسا بمدرسة الولادة، ثم أصبحت معلمة لهذه العلوم بالمدرسة، وكانت زوجة للدكتور صالح على بك، الذى تعلم الصيدلة بالمدرسة الطبية بمصر، وسافر إلى باريس فى بعثة علمية، وعند عودته عين صيدلياً بالمستشفى، ومعلما بمدرسة الطب.

وقد تلازم عمل مدرسة الطب والبيمارستان إلى عام ١٨٣٧م عندما تم نقلهما إلى مكانهما الجديد بالقرب من القاهرة، ولم يكن الفرق بين عملهما واضحاً فى تلك الفترة، حتى أن صاحب تقويم النيل لم يفصل بين طبيعة كل منهما، حيث ذكر أنه "صدر أمر محمد على بإنشاء بيمارستان بأبى زعبل المجاور لمعسكر الجند يسع ١٥٠٠ مريض برياسة طبيب، ويرتب تحت يده مائة تلميذ من أبناء مصر المستعدين، ويخصص معه ما يلزم من الأساتذة وتستحضر الكتب الطبية فأنشأ البيمارستان بإشراف الخواجة كلوت بك و كل ما يلزم لراحة المريض من أسرة وغيرها و استحضرت الأدوية فى خزانته.

وقيل إن بيمارستان أبى زعبل احتوى على ٧٢٠ سريرا، وإن غرفه منسقة تنسيقا بديعا يتخللها الهواء الطلق وتسودها النظافة، حيث عهد إلى مدرسى مدرسة الطب بملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة البيمارستان.

وعلى مدى عشر سنوات هى عمر مدرسة الطب فى أبى زعبل تخرج ٤٣٠ طبيبا فى مختلف التخصصات، أخذوا على عاتقهم مهمة تخفيف آلام المرضى.

وإلى جانب مدرسة الطب البشرى أصدر محمد على باشا فى ٤ جمادى أول

عام ١٢٤٦هـ أمرا بإنشاء مدرسة للطب البيطرى بجوار مدرسة الطب البشرى بأبى زعبل لأن العلوم الإضافية للطب كعلم الطبيعة والمركبات والمفردات يمكن أن يتعلمها تلامذة المدرستين معا من المعلمين المقيدين بمدرسة الطب البشرى.. وأما العلوم المخصصة بالطب البيطرى فالمعلم لها هو ناظر مدرسة الطب البيطرى، وتقرر أن يكون الطبيب (آمو) ناظرا لمدرسة الطب البيطرى. وهو أحد أرباب مدرسى العلوم والمشرف على جورنال الطب البيطرى فى فرنسا.

وفى البعثة الخامسة عام ١٨٤٤ تم إيفاد إبراهيم جركس وعبد الهادى إسماعيل لدراسة علم البيطرة على الأصول الحديثة، ولما عادا عمل الأول مدرسا بمدرسة البيطرة وتولى الثانى نظارتها فى فترة لاحقة.

والحق أن الخطوة السابقة كانت مهمة، فمن المعروف أنه لم يكن بمصر أول القرن الـ١٩ أطباء بيطريون للعناية بالحيوانات وعلاج المريض منها، بل كان الكلاف الذى يلاحظ حيوانات الملتزم هو بيطرى القرية لمعرفته بعض قواعد الفن البيطرى، أو كان بياطرة الخيل والدواب يمارسون البيطرة بحسب ما عندهم من قواعد الطب البيطرى الناضجة القليلة، كما كانت هناك قبيلة غجرية تسمى "حلبية" اشتهر رجالها منذ زمن بعيد بأنهم بياطرة مهرة للخيل والحمير.

التوسع فى الرعاية الصحية وإقامة المستشفيات

تطلب بناء الدولة الحديثة الأخذ بأسباب العلم، وكانت الأبنية تشيد بطريقة آمنة؛ ولكن نظرا لخطورة بعض المواقع فقد ألحق بها مستشفى، حدث هذا عندما أصدر محمد على أمرا فى نهاية صفر ١٢٤٥ هـ بإنشاء جبخانة فى أثر النبى بدل الكائنة تجاه الجيوش وكان طولها ٣٣٠ ذراعاً وعرضها ٢٠٠ ذراع. وأن تنشأ حولها أربع طابيات ومستشفى يسع مائة شخص، وهى تسع ١٢٠,٠٠٠ قنطار من البارود وبلغت نفقة إنشائها ١٠٠٣ أكياس والقديمة أعدت لربط الفشنك.

كما أنشىء مستشفى ملكى فى ميدان الأزبكية عام ١٨٣٧م لكى تقوم بعلاج فقراء المرضى من الذكور والإناث، وقد نقل إلى المستشفى نزلاء البيمارستان حتى يلاقوا عناية أفضل.

وفى ٢٥ من شعبان عام ١٢٥٠هـ صدر أمر محمد على إلى ناظر مبانى الإسكندرية بالموافقة على رسم المستشفى الخاص بالعساكر وإنشائه على مقتضاه.

وفى العام السابق نفسه صدر قرار بتحويل مجلس الصحة والمستشفيات الذى تأسس عام ١٢٤٢هـ إلى مجلس الصحة العمومية.

وقد أدرك محمد على أن اللغة كانت تقف حائلاً بين الأطباء الأوروبيين وبين أفراد الشعب، فلا الطبيب يفهم شكوى المريض، ولا المريض قادر على استيعاب أوامر الطبيب، لذا فقد أصدر فى ٢٨ من رجب عام ١٢٥١هـ أوامره إلى وكيل الجهادية بأن يتم التنبيه على مجلس شورى الأطباء الأجانب بالحرص والاجتهاد فى تعلم اللغة العربية، والاستغناء عن المترجمين الملازمين للأطباء الذين أمضوا سنة فى خدمة الحكومة المصرية.

وفى ١٢ من رمضان عام ١٢٥٢هـ صدر أمر محمد على إلى حبيب أفندى بأن الجوارى الحبش السابق إرسالهن إلى مستشفى أبى زعبل لتعلم أصول الولادة والحجامة وتطعيم الجدرى، وأصبحن مؤهلات لمباشرة عملهن، أن يتواجدن هن والطواشية الذين سبق تعليمهم تلك الحرف، وأن يتم تدبير منزل متسع فى وسط المدينة يخصص لسكناهم ولمباشرة عملهم.

ولم تقتصر أوامر محمد على على توفير العناية الصحية فى العاصمة فقط ولكنها شملت أيضاً الأقاليم بعنايته، ففى ٢٣ من ذى الحجة عام ١٢٥٩هـ أصدر أوامره إلى ناظر الجهادية ومدير المدارس بتخصيص حكماء وأجزاجية تلاميذ مدرسة الطب البشرى لخدمة الصحة بالأقاليم، كما أصدر فى عام ١٢٦٣هـ أمرا بإنشاء مستشفى ملكى متصل بمستشفى التلاميذ بالبحرية لمعالجة المرضى من أهالى الإسكندرية.

وجاء هذا المستشفى بناء على اقتراح كلوت بك فشيد مستشفى يسع ١٥٠٠ مريض لعلاج القوات البحرية، وشيد مستشفى آخر للجيش يحوى ٦٠٠ سرير، وأطلق عليه اسم مستشفى المحمودية وكان يخدم ٢٦ ألف جندى، و١١ ألف معتقل فى الليمان.

الاسبتالية الملكية (الأهلية)

أصدر محمد على أوامره بإنشاء الاسبتالية الملكية فى عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م بميدان الأزبكية، وكان الغرض من إنشائها هو القيام بعلاج المرضى الفقراء ذكوراً كانوا أو إناثاً، كما نقل إليه جانب كبير من نزلاء البيمارستان المنصورى، حتى يلاقوا عناية أفضل.

والحق أن هذه الاسبتالية لم تعمر طويلاً وتوقفت عن تقديم الخدمات

العلاجية بعد إنشائها لفترة قصيرة، ويتضح ذلك من وثيقة البيع المحفوظة بدار الوثائق القومية والتى تثبت أن الاسبتالية قد تغيرت وظيفتها مرتين خلال ٤٠ عاماً، أى حتى عام ١٢٩٠هـ (تاريخ البيع)، كما هو واضح من نص الوثيقة.

"..... واشترى سعادة الأمير مصطفى فهمى باشا (ناظر ديوان خاصة خديوى) المومىء إليه بما فيه لنفسه من سعادة الوكيل البائع الموقر إليه عن جهة الميرى المذكورة لوجود المصوغ الشرعى الآتى ذكره فيه جميع المكان المعروف سابقاً بمحل الاسبتالية الملكية، ثم عرف بديوان الضبطية والآن يعرف بمحل الأورناتو الكاين بمصر المحروسة بخط الأزبكية ذلك لدلالة ما يأتى ذكره فيه على واجهة شرقية جهة الشارع لغاية الحرمدان بها باب مكبر بأحزمة وعوارض خشب وضبة...."

وكانت الحدود الأربعة التى حددتها الوثيقة للاسبتالية الملكية كالآتى:

"...... بحدود أربعة بالدلالة المذكورة، الحد الشرقى: الشارع الموصل للموسكى، والحد البحرى: الشارع الموصل للأزبكية، والحد الغربى: بظهر الثلج خانة، والحد القبلى: مدرسة الولادة".

ومن خلال قراءة ودراسة الوثيقة يتبين لنا الآتى:

١- إن المكان محل الدراسة كان مقراً لعلاج المرضى، حيث يعود تاريخ استخدامه كاسبتالية لنفس تاريخ انتقال مدرسة الطب إلى قصر العينى، لذا فقد جهز هذا المكان لاستقبال فقراء المرضى لحين استكمال مبانى قصر العينى، وبصفة خاصة المستشفى، لينقل بعدها المرضى إليه ليكون بمثابة التطبيق العملى لطلبة مدرسة الطب، والدليل على هذا الاستنتاج تواضع المبنى وعدم تجهيزه كأسبتالية، كذلك غالبية الأسقف من البوص، كما نصت الوثيقة.

٢- ظهور بعض المصطلحات الوثائقية الجديدة مثل (الشبابيك خارجها حديد وداخلها زجاج، أدب خانة، "كرسى راحة"، باب مكبر، كليون من الخارج، ترباس بلدى، مدخنتين مطبخ، باكية حجر، كراويتة...".

٣- من نص الوثيقة استطعنا التعرف على أن الاسبتالية كان موجودا بها حوش داخلى، حيث ذكرت الوثيقة (...أما الحوش فهو أرضى وسماوى به أربع شجرات لبخ...).

٤- كان هذا المبنى يجاور مدرسة القابلات التى أنشئت عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٢م، ومن ثم جاء التفكير فى اتخاذه اسبتالية، أى أنه لم يشيد لهذا الغرض، وكما سبق أن ذكرت أنه كان اسبتالية انتقالية إذا جاز استخدام هذا التعبير.

وتابع محمد على إصدار أوامره الخاصة للحفاظ على صحة جيشه وصحة المواطنين، ففى ٢٧ من ربيع ثان عام ١٢٤٧هـ أمر ناظر الجهادية ببناء صيدلية بجهة بولاق حسب الرسم الوارد له من المضبطية المحتوية على مايلزم بناء ذلك مع ترسيم المخزن العمومى مبلغ ٩٥٠٠٠ قرش.

وفى مجال صحة الحيوان أصدر محمد على أمرا بإنشاء عدة معامل للدجاج، وكذلك استحضر اثنين من البيطريين الفرنسيين لمعالجة البقر المصرى بواسطة قنصل فرنسا المسيو (دروينى).

وإذا كانت هذه المنشآت التى صدرت الأوامر تباعاً بإنشائها قد أدت دورها فى سبيل تحسين الحالة الصحية للمواطنين ثم اختفت وأصبحت ذكرى وأطلالاً، فإن واحدة من هذه المنشآت استطاعت أن تصمد لعوامل الزمن لما لها من جذور حضارية أهلتها لكى تكون أعظم منشأة طبية فى مصر وأعنى بها قصر العينى.

وبالقرب من المستشفى الملكى سابق الذكر بميدان الأزبكية أنشئت مدرسة للقابلات ونظراً لأهمية وحداثة فكرة وجود مثل هذه المدرسة فسوف ألقى عليها مزيدا من الضوء.

مدرسة القابلات (الدايات)

أُنشئت هذه المدرسة فى عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٢م بناء على الأمر العالى الصادر من محمد على والخاص بتعليم الفتيات مهنة القبالة على أسس ومعايير حديثة، حيث إنه من المعروف أن المصريات اعتدن منذ زمن بعيد الاعتماد على القابلات الشعبيات (الدايات) اللاتى توارثن المهنة عن أسلافهن.

وبدأ البحث عن فتيات يتعلمن هذا الفن والالتحاق بالمدرسة من ناحية، ثم محاولة إقناع ذويهن بالموافقة على إدراج فتياتهن فى كشوف الدراسة من ناحية أخرى، وكان منهج الدراسة بالمدرسة ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: ومدتها عامان تقضيها الطالبات فى محو الأمية.

المرحلة الثانية: ومدتها أربع سنوات من الدراسة التخصصية، وتشمل

المجالات الآتية (الولادة، العناية بالأم قبل الولادة وبعدها، تضميد الجراح، الكى، التطعيم، التشريط، الحجامة، وضع العلقات) هذا، بالإضافة إلى دراسة معظم الأدوية المعروفة آنذاك، ومن ثم طرق تحضيرها.

ولم تستمر أيضاً مدرسة القابلات طويلاً فى هذا المكان، شأنها فى ذلك شأن الاسبتالية الملكية، إذ عرفت فى فترة لاحقة لإنشائها بتفتيش الصحة، ثم مدرسة الأمريكان، كما نصت بذلك الوثيقة (.... وجميع بنى المكان المعروف سابقاً بمدرسة الولادة ثم عرف بتفتيش الصحة، ومدرسة الأمريكان الكاين ذلك بمصر المحروسة بخط الأزبكية المرقوم بجوار المكان المذكور أولاً أعلاه، ذلك بالدلالة المذكورة على واجهة شرقية جهة الشارع...).

الحوافز والعطايا المقدمة لخريجات المدرسة

كانت الطالبات خلال إقامتهن فى المدرسة تتلقين راتباً شهرياً من الحكومة إلى جانب الإقامة والطعام، وعند تخرجهن كن يحصلن على راتب شهرى قدره ٢٥٠ قرشاً، ورتبة عسكرية مساوية لرتبة زملائهن الأطباء الذكور، ووسيلة مواصلات، ومكان للإقامة، وعمل داخل مؤسسة الصحة الحكومية، عادة فى مكاتب الصحة التى أقيمت فى القاهرة والمديريات لتقديم المشورة الطبية مجاناً للسكان.. الأمر الذى مكن خريجات مدرسة القابلات من تبوء مكانة مناسبة فى المجتمع.

قصر العينى

يرجع تاريخ المنطقة التى شيد بها قصر العينى إلى زمن السلطان الظاهر بيبرس، حيث انحسرت مياه النيل عن تلك البقعة وتم تجفيفها وأقيمت عليها المتنزهات الجميلة، وزاد عمرانها زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فزادت المتنزهات وأقيمت الدور، وفى وقت لاحق أطلق على هذه المنطقة منشأة المهرانى.

وتقع تلك المنطقة قبالة جزيرة الروضة، وهى منطقة كثرت بها البساتين والأحكار، وأقيمت بها المناظر الجميلة، فأصبحت مزار السلاطين والأمراء ومتنفساً لأفراد الشعب. وفى هذه المنطقة شيد (أحمد بن العينى) مقره فى عام ٨٨١ هـ/١٤٦٥م والذى كان قصرا منيفا رائع الجمال، اتخذه السلاطين مقراً

للراحة والتريض. وأعتقد أنه لم يدر بخلد أحمد بن العينى أن قصره سيكتب له الخلود حتى ولو كان اسما فقط.

ظل القصر قائما طوال العصر العثمانى وأدركته الحملة الفرنسية، حيث كانوا هم أول من حولوه إلى مستشفى عسكرى ولما قتل كليبر وضع نعشه على ربوة فى قصر العينى حتى نقلت جثته إلى فرنسا.

وقد أقيمت على هذا الموقع عدة عمائر فى أوقات مختلفة؛ ففى سنة ١٠٣٣هـ/١٦٧٢م أنشأ الكتخدا إبراهيم باشا فى أحد أركان الموقع قصرا عالى البنيان وفى عام ١٠٨٨هـ/١٧٢٦م ضم إليه الوالى عبد الرحمن باشا قصرا آخر، كما كان الموقع يحتوى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر على ثلاث وأربعين مقعدة، أو منظرة تطل على النيل حسبما ذكر الرحالة (أوليا جلبى) فى الجزء العاشر من كتابه «سياحة نامة»، كما وصفه بأنه كان متنزها وكان ترويحاً عن النفس لكثير من السلاطين والملوك السابقين وقد أضيف إليه الكثير من القاعات والمصاطب والمناظر والغرف والأحواض والمقاعد التى تليق بجلوس الملوك، كما ذكر أن أعيان مصر كانوا يأتون إليه للمتعة والترويح عن النفس.

أما أهم البنايات التى كانت لها صبغة دينية فكانت التكية البكتاشية، والتى أطلق عليها تكية قصر العينى، وقد شيدت التكية قبل سنة ١٠٨١ هـ/١٦٧٠م وهو عام تشييد إبراهيم باشا لقصره إلى جانب قصر العينى حسبما أورد اوليا جلبى ويقول عن التكية "إنها شيدت وسط الحديقة الغناء وهى قبة عالية بيضاء مطلية بالجير الأبيض داخلها مساحة عظيمة تتسع لألف نفر، فرشت أراضيها بالرخام الأبيض وجوانبها الأربعة مفروشة بفراء الأضاحى التى يجلسون عليها، ففى صدر المحراب فروة الشيخ محمد درة وتليها فروة خليفته الأول ثم الإمام ثم المؤذن ثم المنشد ثم الفقيه ثم أستاذ الطريقة ثم صاحب العصا ثم ...... ثم ......

والجماعة يؤدى كل منها عملا، فمنهم من يقوم بالتدريس ومنهم من يقوم بتلاوة القرآن ومنهم من يعمل على اكتساب المعرفة ومنهم من يقوم بخدمة المترددين على التكية ومن قراءة وصف أوليا جلبى نلمح ذلك الحس الصوفى فى المنقطعين بهذه التكية، وإن كانت الحياة فيها تشبه إلى حد كبير حياة الرهبنة والنسك.

قصر العينى زمن محمد على

استخدم الفرنسيون قصر العينى كمستشفى عسكرى، كما سبق أن ذكرت ولكن بعد رحيلهم استخدمه الجند الأتراك الذين حضروا فى أعقاب خروج الفرنسيين كثكنة للفرسان، وظل كذلك حتى وصول محمد على إلى حكم مصر ونظرا لموقع قصر العينى البعيد نسبيا عن القاهرة قرر محمد على تحويله إلى قشلاق لمعسكر الشرطة بعد هدمه للمكان القديم واستحداثه مبنى آخر حديثا افتتح فى سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٢م، كما هو منقوش على اللوحة التسجيلية أعلى مدخل المبنى.

ويبدو أن أمر القشلاق لم يدم طويلا فاستبدله محمد على بمكان آخر، وجعل قصر العينى مدرسة ألحق بها نحو خمسمائة طفل من أبناء الشراكسة والأكراد والأرناؤوط الأرمن واليونان ممن كانوا فى خدمة محمد على، وكان التلاميذ يتعلمون بها فنون الجهادية والحربية وغيرهما، ورتب لهم الباشا معلمين أكفاء ونظارا وضباطا وشهرية وكسوة ومأكلا ومشربا يكفيهم بل يزيد عما يحتاجونه حتى يتعلموا العلوم الأوروبية والفنون الحربية والخط الثلث والرقعة وكانت المدرسة تعد وتجهز لمدارس الطب والمشاة والفرسان.

وكانت المدارس فى مصر فى عصر محمد على تخضع لرئاستين (فنية) ويتولاها الباشخوجة وهو الرئيس الفنى للمدرسين، أو الخوجات ثم (إدارية) ويتولاها الناظر.

وألحق بهذا المبنى مكتبة احتوت على خمسة عشر ألف مجلد لمؤلفين فرنسيين وإيطاليين، وفى وقت لاحق سمح لأبناء المصريين بالالتحاق بهذه المدرسة وبلغ عددهم هم وأقرانهم الأتراك نحو ٨٠٠ طالب تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة يتعلمون اللغات العربية والفرنسية والتركية.

قصر العينى والتحول الأخير

شهد عام ١٢٥٣ هـ/١٨٣٧م التحول الأخير لقصر العينى، حيث تأرجح واستخدم لعدة وظائف. وهذا التحول يعتبر البداية التاريخية والحقيقية للمسيرة الطبية فى مصر فى عصرها الحديث وشهد مولد واحدة من أعرق كليات الطب فى الشرق، على أى حال فقد حول المبنى إلى مستشفى، وأضيف إليه من الغرب مبنيان آخران يفصل بينهما فناء أحدهما فى اتجاه الشمال

خصص لعلاج النساء وسمى "بيت صحة النساء"، أما الآخر فنحو الجنوب وخصص لعلاج الرجال وسمى بيت صحة الرجال، ويوجد أعلى مدخل كل منهما لوحة تشمل اسم المبنى وتاريخ إنشائه.

وفى هذا التاريخ أيضاً استخدم قصر العينى مقرا لدراسة الطب، حيث نقلت إليه مدرسة الطب التى سبق افتتاحها فى أبى زعبل ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م.، كما نقلت أيضاً مدرسة الصيدلة ومدرسة القابلات إلى المقر الجديد.

ووصف كلوت بك مدرسة الطب الجديدة بقوله: «إنه بناء مربع الشكل تحيط به المتنزهات الجميلة ويتألف من طابق أرضى وفوقه طابقان، وتنتظم أجنحته على صفين من الغرف يفصلهما دهاليز بقدر امتدادهما، وينفصل كل جناح إلى أربع غرف كبيرة فى كل غرفة خمسون سريرا، ويتألف الطابق الأرضى من مناور معقودة تصلح مستودعات ومخازن وفى وسط البنيان فناء فسيح مغروس بالأشجار ويتكون الجناح القبلى من أربع بنايات مفصولة بعضها عن بعض.

البناية الأولى تشتمل على قاعات للمحاضرات ومعامل الكيمياء وحجرات الطبيعة والتاريخ الطبيعى، والبناية الثانية تشمل محلات النوم وقاعات الطعام. والبناية الثالثة تضم الصيدلية العمومية، وتشمل البناية الرابعة المطابخ والحمامات والمغاسل.

وعن اختيار المكان يذكر كلوت بك "أن هذا المكان يعتبر أصح الأماكن وأحسنها ومن جهة أخرى فإنه قريب من مكان الحامية وأن المرضى لا يحتاجون فى الوصول إليه إلى قطع مسافات طويلة لاسيما وأن فى استطاعتهم اختصار الطريق الموصل إليه سواء برا، أو عن طريق النيل وكان عدد الطلبة ٣٠٠ طالب ومدة الدراسة خمس سنوات".

أما عن عدد المرضى الذين يمكن استيعابهم بهذا المستشفى، فإنه كان يتراوح بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ مريض، وكان يقدم الخدمات العلاجية للمدنيين والعسكريين على حد سواء، بالإضافة إلى تعليم الطب لطلبة المدرسة.

وعند انتقال مدرسة الطب إلى قصر العينى، كان عدد طلابها يقدر بنحو ٣٠٠ طالب يتعلمون ويلبسون مجانا، وجميعهم مقيمون بالقصر، وتدفع لهم رواتب شهرية وواكب انتقال مدرسة الطب إلى قصر العينى وصول أفراد البعثة الطبية التى سافرت إلى فرنسا برفقة كلوت بك عام ١٨٣٢م، فعين أكثرهم أساتذة بالمدرسة، وحتى عام ١٨٤٨م، كان عدد الأطباء الذين تخرجوا فى

مدرسة الطب ٨٠٠ طبيب فى مختلف التخصصات، وكانت مدرسة الطب محل تقدير من جانب الأطباء الكبار الذين وفدوا إلى مصر، ومنهم البروفسير لاليماند، الذى جاء إلى مصر بناء على طلب إبراهيم باشا الذى صرح بقوله: "امتننت جدا من امتحان طلبة الطب فى الأيام الثمانية، وفى ظنى أنه لو تقدم طلبة من الفرنسيين فى هذه الظروف، وبعد هذه المدة، لما كانوا أسبق من الطلبة المصريين فى مثل هذا الاختصاص".

وبلغت مدرسة الطب المصرية مكانة رفيعة، أقبل عليها العلماء من جميع أنحاء العالم، وبلغت شهرتها اليونان والأستانة وبلاد الشام، وجاءها المرضى من دول عديدة طلبا للعلاج وإجراء العمليات الجراحية.

ولعل أصدق دليل على ذلك ما ذكره أحد الأطباء الذين زاروا المستشفى، إذ يقول: "هذه المؤسسة الرائعة هى بلا جدال الأفضل تأسيساً، فهى تقع وسط أفضل الحدائق الساحرة، كما تعد من أكثر المؤسسات الطبية التى زرتها على الإطلاق نظافة وتنظيماً وكفاءة فى الإدارة.

وقد تولى رئاسة المدرسة بعد كلوت بك الطبيب (بيرون بك) ١٨٤٠ - ١٨٤٦م، ثم خلفه دوفينيو. أما أول رئيس مصرى تولاها فهو الدكتور شافعى بك، وفى عهد كلوت بك ترجم وحتى سنة ١٨٤٩م نحو (٨٦) مرجعا فرنسيا فى الطب على أيدى الأساتذة المصريين، كما ترجم قاموس نيستين Nystenالطبى، مما ساعد كثيرا فى الإقبال على تعلم الطب، خاصة فى البدايات الأولى للمدرسة.

ومن جملة ما أنشأ كلوت بك مدرسة طبية فى بولاق لتعليم فن الولادة، ومستشفى لأمراض النسا، بالإضافة إلى تأسيس مراكز للاستشارة الطبية فى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن، حوت كل منها ٢٥ سريرا، وزودها بالأطباء والصيادلة والصيدليات، وأشرف على إنشاء مستشفى يعالج المجانين جهة الأزبكية، ونقل المجانين الموجودين بالمستشفى الملكى إليها.

عباس باشا

توفى محمد على فى عام ١٨٤٨م، وخلفه على العرش الخديو عباس (١٨٤٨م -يوليو ١٨٥٤م) وفى عهده تراجعت النهضة التى بدأها محمد على، ومرد ذلك إلى شخصية عباس التى أثارت جدلاً ودارت حولها علامات استفهام كثيرة هذا من ناحية، وكرهه للفرنسيين وحقده عليهم من ناحية أخرى. وبالنسبة للطب

ومدرسته فى قصر العينى فقد اضطرب أمرها نظراً للتغير الذى طرأ على هيئة التدريس بها، والتى استبدلها عباس بفريق عمل ألمانى برئاسة الدكتور (إلكسندر راير)، كما أرسلت البعثات إلى النمسا بدلاً من فرنسا، وبعد مدة وجيزة أصبحت المدرسة تحت الإدارة الألمانية. ولعل من مآثر هذا التغيير أن جاء إلى مصر الدكتور العلامة (تيودور بلهارس)، الذى واصل أبحاثه التى أدت فى النهاية إلى اكتشاف (دودة البلهارسيا)، تلك الآفة التى لازمت المصريين منذ فجر تاريخهم وحتى الآن وأثرت، وما زالت، على صحة قطاع كبير من أبناء الريف المصرى.

ورغم كثرة هذه الأبحاث والترجمات الطبية، فإنها كانت فردية، ولم تقدم للمدرسة شيئاً جديداً، فاستمر التدهور لغياب الإشراف السليم. ولم تكن مدرسة الطب هى الوحيدة التى نالها التدهور، فقد ألغيت معظم المدارس، وانحصر الأمر أخيراً فى مدرسة واحدة لها ناظر واحد، وبلغت نفقات التعليم فى آخر سنة من حكمه ٥٠٠٠ جنيه، بعد أن كانت فى آخر عهد محمد على ٨٨٠٠٠ جنيه تقريباً، وقد بدأ ضيقه بالتعليم والمدارس مبكراً، فبعد شهرين من توليه الحكم أصدر أمراً بإغلاق مدرسة الطب البيطرى لأسباب واهية، ضمنها فرمان الإغلاق الذى جاء فيه: «ومستغن عن التفصيل والبيان أن المتخرجين فى مدرسة الطب البيطرى والمعينين فى تفاتيش الحكومة لإصلاح جنس الحيوانات ومداواتها قد تسببوا فى خسارات جسيمة وتلفيات عدة من الحيوانات المودعة تحت أيديهم، فضلاً على ذلك فقد تسببوا فى تلف الجوادين الكريمين السقلاوى والأحمرانى الواردين هدية من طرف حضرة شريف مكة لابننا الكبير، كما أنهم تسببوا فى مرض الجواد عسيان الأحمر المقدم لنا من طرف الامير فيصل يمرض السقاوى، وظهر حقيقة هذا بمشاهدتنا الجواد المريض المذكور، فبناء عليه ثبت أن كل التعب والمشقة والمصاريف الوافرة التى صرفت لهؤلاء الأطباء البيطريين من صغر سنهم إلى اليوم ذهبت هباء... فعندما يصل أمرى إليكم عليكم أن تبطلوا وتلغوا مدرسة الطب البيطرى.

وتم له ما أراد، فأغلقت المدرسة وطرد الأطباء البيطريون من خدمة الحكومة عام ١٨٤٩، وفى عام ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م تقرر إغلاق المستشفى الملكى، وتوفير مصروفاتها ونقل محتوياتها من أدوات وأسرة ومرضى إلى مستشفى قصر العينى، وفى ذلك العام تقرر إنشاء بيمارستان بفم الخليج على أن يكون على حرف الطريق الذى يوصل من القصر إلى السيدة زينب، كما زرعت حديقة حول

المستشفى الذى يتجلى الغرض من إنشائه أنه خصص لنقل المجانين من القاهرة بعيداً عن السكان.

وفى أواخر أيام حكمه حاول الخديو عباس الاستعانة بالإيطاليين بدلاً من الألمان فى إدارة مدرسة الطب إلا أنهم فشلوا. وبعدها بشهور قتل الخديو عباس فى يوليو عام ١٨٥٤م ونسب إلى على مبارك فى موسوعة العمارة أن عهد عباس شهد خمس إسبيتاليات (مستشفيات) ولكن بالرجوع إلى الخطط التوفيقية نرى أن على مبارك عندما تحدث عن الإسبيتاليات لم يذكر عهد عباس ولكنه قال "ويوجد الآن بالقاهرة لعلاج المرضى خمس إسبيتاليات" أى فى زمنه هو.

وبالرجوع إلى وثائق تلك الفترة أمكن التوصل إلى أن عباس باشا أمر فى أوائل سنوات حكمه ببناء مستشفى ملكى، وقد جاء فى الوثائق.."إن الذى ألجأ الذات الخديوية إلى إنشاء وفتح إسبتالية ملكية كان من قبيل الشفقة على عبيده المصابين بالآفات المختلفة، ولم يكن لهم مقدرة على المعالجة، لذلك صدر قراره الكريم بقبول ومعالجة كل من أقبل إلى تلك الإسبتالية إذا كان من أهالى المحروسة، أو من الخارج، وتقدم المعالجة لكل إنسان مهما تكن ملته، أو ديانته، وإن كلاً منهم تعطى له الإسعافات اللازمة دون تمييز ومن كان يلزم له عمليات جراحية لا يمكن عملها فى تلك الإسبتالية، كان يرسل إلى اسبتالية قصر العينى بدون أجر أيضا.، كما أن إرسالهم لإسبتالية قصر العينى يكون فى خدمة تلامذة مدرسة الطب. وصدر القرار لناظر الإسبتالية الملكية بأنه من الآن فصاعداً لا يقبل أحد من المرضى ما لم يكن معه تذكرة، إما من ضابط المحروسة، أو من شيخ الثمن».

سعيد باشا

اضطر الخديو سعيد فى يوليو ١٨٥٤/ يناير ١٨٦٣م إلى إغلاق مدرسة الطب بعدما أصابها التدهور وعدم التنظيم. لكنه انتهز فرصة زيارة كلوت بك لمصر وطلب مساعدته فى إعادة فتح المدرسة من جديد. وفى سنة ١٨٥٦، أصدر الخديو سعيد قراراً بإنشاء مجلس خصوصى للطب وأتبعه بإصدار أمر ثان بإعادة ترتيب مدرسة الطب فى قصر العينى ملحقة (باسبتالية) القصر لتعليمً الطب والجراحة والعلوم الطبية والأجزاجية (الصيدلة) وتقرر فتحها فى أول سبتمبر سنة ١٨٥٦م (غرة المحرم سنة ١٢٧٣هـ)، وكان تلاميذها ممن يحسنون

القراءة والكتابة ويعرفون القواعد الأصلية للحساب وتكون سنهم نحو ١٥ سنة، وتقرر أن يكون عدد التلاميذ ٨٠ تلميذاً منهم ٦٠ لتعلم الطب والجراحة ليكونوا حكماء و ٢٠ لتعلم العلوم الطبية والأجزاجية ليكونوا أجزاجية. ويتضح من الأمر كيفية معاملة التلاميذ من، حيث الكساوى والمأكولات والإقامة والفسحة (الإجازة) والامتحان والخروج (التخرج) عند انتهاء التعليم بالتدريج على مدى خمس سنوات.، كما ربط ماهية لكل طالب ٧٥ قرشاً شهرياً قابلة للزيادة والترقى. ويسمح لمن يرغب من الأهالى فى الانضمام إلى المدرسة زيادة عن العدد المذكور ويلقون المعاملة نفسها.

وقدم كلوت بك لائحة من ٣٩ بنداً لترتيب إدارة المدرسة، شملت كل ما تحتاجه المدرسة لكى تنهض بوظيفتها، ومنها كيفية قبول التلاميذ، ودخولهم المدرسة وبيان الدروس وتقسيمها على الفصول بالأيام والساعات والسنوات ومدتها ومباشرة الطلبة وتوفير صنايعى للعناية بالآلات الطبية وسكاكينى لأدوات الجراحة وترتيب الكساوى للطلبة والأغذية والنوم والنظافة، كما نصت على وجود لائحة جزاءات، يدفع الطالب المخالف مقابلاً نقدياً تكفيراً عن ذنبه، ومن حصيلة هذه النقود يشترى بها كتب وأشياء نافعة.

والحق أن كلوت بك قد أسدى لمصر وشعبها خدمات جليلة ومنافع عظيمة وكان محباً لها ولحضارتها حتى أنه صمم قبره بنفسه على الطراز المملوكى بمدينة مرسيليا لينعم بسحر الشرق حتى بعد وفاته.

وقد ذكر أحد المراجع أن الخديو سعيد باشا أنشأ مستشفى أطلق عليه الاسبتالية السعيدية وعمل بها د. عيسى حمدى باشا عام ١٨٦٠ م بمرتب شهرى ١٥٠ قرشاً، للمزيد انظر اكاديمية البحث العلمى وتاريخ الحركة العلمية فى مصر الحديثة (العلوم الطبية) ص٥٤٤.

مدرسة الطب والحالة الصحية أواخر القرن التاسع عشر

كان للتنظيم الذى وضعه كلوت بك دور كبير فى استمرار المدرسة لأداء وظيفتها فى تعليم الطب وتخريج الأطباء الأكفاء الذين عينوا أطباء فى مديريات الصحة التى تم إنشاؤها فى كثير من محافظات مصر لرعاية صحة الأهالى.

وعندما تولى الخديو إسماعيل الحكم (يناير ١٨٦٣/ يونيو ١٨٧٩ م) أبدى عناية كبيرة بمدرسة الطب، وعين لرئاستها الطبيب والجراح المصرى المشهور (محمد على باشا البقلى) واستمر فى منصبه حتى خلعه الخديو إسماعيل عام

١٨٧٩م ولم تكن مدرسة الطب المصرية وقفاً على الطلبة المصريين فقط، بل فتحت أبوابها لكل من يرغب فى التعلم من أبناء البلدان المجاورة، ففى عام ١٨٦٣ م طلب الراهب اللبنانى (راميا نجم) من الخديو إسماعيل أن يمنح أهل لبنان عشرة مراكز للدراسة فى مدرسة طب قصر العينى، فأجيب إلى طلبه، وكان من أوائل هؤلاء الطلبة (فارس نجم والشيخ شيبان الخان وميلاد صغير وإبراهيم صافى وسليمان أبى التحول) أما طلبة الدفعة الثانية التى حضرت عام ١٨٦٧م فكان منهم (شاكر الخورى واليال المرور ونقولا لويس) ولما أتموا تعليمهم عادوا إلى بلادهم فكانوا طليعة أطباء الشام الذين درسوا علم الطب بطرقه الحديثة التى وفرتها مصر فى مدرستها العريقة.

ويذكر دى فوجانى وهو أحد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر أواخر القرن الـ ١٩ "أنه يوجد بمدرسة الطب فى الوقت الحالى ١٠٠ طالب مقسمين على ستة فصول، يقوم بالتدريس ٢٥ أستاذاً، ١٦ للعلوم الطبية، و٥ لكل من العلوم الفيزيائية والكيمائية وواحد للعلوم الطبيعية وثلاثة للغات، مع أساتذة مشرفين أيضاً على المستشفى، وترتبط مدرسة الصيدلة بمدرسة الطب وبها ٧ تلاميذ، ومدرسة القابلات ١٣ تلميذا وقد ضمن رحلته فى كتابه بعنوان «القاهرة وضواحيها» ترجمة مدحت عايد فهمى.

وإلى جانب المستشفى المدنى ألحق الخديو إسماعيل مستشفى عسكرياً ومعملاً كيماوياً خاصاً بقسم الصيدلة بمدرسة الطب بقصر العينى، وتوسع فى البستان النباتى وزود المكتبة بأمهات كتب الطب مجموعات تجهيزية تشريحية ومجموعات تاريخ طبيعى. وقد بلغ عدد البعثات التى أرسلها الخديو إسماعيل لدراسة الطب والصيدلة فى الفترة من ١٨٦٣م وحتى ١٨٧٩م ٢٦ بعثة والطب البيطرى أربع بعثات.

أما مدرسة القابلات فقد علا شأنها فى عهد الخديو إسماعيل، وتولت نظارتها فى أيامه مدام (فيال) وبلغ عدد الطالبات فيها ٤٤ طالبة بالقسم الداخلى وعشر طالبات بالقسم الخارجى، وجميع الطالبات كن يتلقين العلوم وهن مكشوفات الرأس ولم تكن المتخرجات فى هذه المدرسة يعملن قابلات فقط، بل كن أيضاً طبيبات انتشرن بالقاهرة والإسكندرية ومدينة السويس ودمياط ورشيد والمديريات الأربع عشرة انتشار ملائكة الرحمة يخففن الألم عن المريضات ويواسين العليلات فمهد ذلك السبيل إلى تعليم البنات.

وفى عهد الخديو توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢م) كانت مدرسة الطب تابعة لمجلس

الصحة العمومية، الذى تم ترتيب مهامه طبقاً لأمر الخديو الصادر فى ٢ صفر ١٢٩٨هـ/ ٣ يناير ١٨٨٢م وكان منها إدارة وملاحظة جميع أشغال الصحة بالقطر المصرى ماعدا التى تكون محالة على عهده إلى مجلس الصحة البحرية، وأن يكون تابعاً لنظارة الداخلية، أما المدرسة فيشرف على ما تقوم بتدريسه من المعارف والفنون نظارة المعارف. وحدث أنه قد وردت مكاتبة من ناظر المعارف العمومية إلى ناظر الداخلية بخصوص نقل تبعية مدرسة الطب إلى مصلحة الصحة إلا أن الخديو توفيق أصدر أمراً عالياً فى ٢٨ ذى القعدة ١٢٩٩هـ/ ١١ أكتوبر ١٨٨٢م ونصه:

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الأمرين الصادرين بتاريخ ٢ صفر و ١٦ ذى الحجة ١٢٩٨ هـ- ٩ نوفمبر ١٨٨١ م وبناء على ما عرض إلينا من ناظر المعارف العمومية وموافقة رأى مجلس نظارنا أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى: مدرسة الطب تتبع نظارة المعارف العمومية، كما كانت.

المادة الثانية: بنود ٧، ٨، ٩ من أمرنا الرقيم ٢ صفر ١٢٩٨ - ٣ يناير ١٨٨١ الملغاة بأمرنا الرقيم ١٦ ذى الحجة ١٢٩٨ - ٩ نوفمبر ١٨٨١ تكون نافذة المفعول.

المادة الثالثة: على ناظر الداخلية وناظر المعارف العمومية تنفيذ أمرنا كلا فيما يخصه "صدر بسرايا الجزيرة إمضاء محمد توفيق"

وفى عام ١٨٨٧م انقسمت الدراسة بالمدرسة إلى ثلاثة أقسام:

أ - قسم الطب والدراسة به خمس سنوات.

ب - قسم الأجزائية (الصيدلة) ومدة الدراسة به ثلاث سنوات ويسبق القسمان الأولان سنة تحضيرية.

ج - أما القسم الثالث فهو قسم الولادة " ومدة الدراسة به ثلاث سنوات.

وتقلص عدد الطلبة فى عام ١٨٨٨م فى هذه المدارس فصار ١٢٠ طالباً لمدرسة الطب والصيدلة وهو ما يلزم وجوده فى عموم المدرسة، أما مدرسة الولادة فكان عدد الطالبات ١٢ طالبة فقط، وقدرت مصاريف مدرسة الطب بخمسة عشر جنيهاً سنوياً وكان الإقبال عليها من قبل الأهالى أكثر من مدرسة المهندسخانة التى بلغت مصروفاتها ١٠ جنيهات فقط، وذلك لإمكانية اشتغال

الطبيب حراً إذا لم تستخدمه الحكومة وهذا طبقاً لما كان سائداً بين الأهالى فى ذلك الوقت.

وكان للطلبة مطلق الحرية فى اختيار القسم الذى يريدون الدراسة به، وبعد انتهاء الدراسة تمنح نظارة المعارف العمومية للتلميذ اللقب الذى استحقه، فينال تلامذة الطب الذين حصلوا على درجة "عال" شهادة بلقب ضابط صحة، ولمن نال منهم درجة "أعلى" دبلوم مثلاً لقب "طبيب" أما تلاميذ الصيدلة الذين حصلوا على درجة "عال" فتعطى لهم شهادة (صيدلى) من الدرجة الثانية، والذين نالوا منهم درجة "أعلى"، يحصلون على "دبلوم صيدلى من الدرجة الأولى". أما بالنسبة لطالبات مدرسة الولادة اللائى يحصلن على درجة "عال" فيمنحن شهادة "حكيمة" ثانية، واللاتى يحصلن على درجة علمية أعلى يعطى لهن لقب "دبلوم حكيمة".

وكانت هيئة التدريس بالمدرسة تتألف من عدة درجات من المدرسين هى:

أ - مدرسون أوائل، أو أصليون وكان عليهم الجانب العلمى وإلقاء الدروس.

ب - مدرسون درجة ثانية، أو مساعدون وعليهم الجانب العملى.

ج - المحضرون، وهم يعملون تحت إمرة المساعدين.

ويتألف مجلس المدرسة من مجموع المدرسين الأوائل برئاسة الناظر، أو الوكيل ومن مهامه بحث جميع المسائل المتعلقة بالتعليم. ويتألف قومسيون امتحان القبول بالمدرسة وكذلك امتحانات آخر العام من مدرسى المدرسة الطبية، بالإضافة إلى المندوبين الذين تعينهم نظارة المعارف العمومية ومندوبى مصلحة الصحة وخوجات المدرسة الطبية إضافة إلى كونهم تابعين لنظارة المعارف.

وكان يحاضر بمدرسة الطب أساتذة من أوروبا إلى جانب الأساتذة المصريين وذلك لعموم الفائدة وتبادل الخبرات، ومن أشهر هؤلاء الأطباء دكتور توقمان مدرس التشريح والمسيو سكنبرجى ودكتور كنتج مدرس التشريح ووكيل مدرسة الأقربازين بالمدرسة ومستر والترانس محضر التاريخ الطبيعى ومدرس علم الديدان والحيوانات الطفيلية.

ومن نتائج امتحان السنة الخامسة بمدرسة الطب السنة المكتبية ١٨٨٩/٨٨م نصت المادة ٤٧ على أن: يمنح تلامذة الطب الذين يحصلون على درجة "عال"

شـهادة بلقب صنايعى صحـة، ولمن نال درجـة أعلى (دبلومـة) يحـصل علـى لقب طبيب، ولما كـان هؤلاء التلاميذ أدوا الامتحانات النهائية حسبمـا كان متبعاً قبل صدور القـانون، لذا تكون الشـهادة النـهائيـة للذين حصلوا على لقب طبـيب فى هذه السنة بيانهم كالتالى:

١ - إبراهيم أفنـدى فهمـى.

٢ - محمـد أفنـدى العلماوى.

٣ - علـى أفنـدى حلمـى.

٤ - أحمـد أفنـدى أميـن.

٥ - محمـد أفندى واصـف.

٦ - إبراهيم أفندى فرحـات.

٧ - علـى أفنـدى السيـد.

٨ - حسن أفنـدى بـدران.

٩ - محمود أفندى طـاهر.

١٠ - محمد أفندى رفـاعى.

١١ - أحمد أفندى يسـرى.

١٢ - إبراهيم أفندى عثمان.

١٣ - محمد أفندى عـزت.

١٤ - حسن أفندى حسنـى.

١٥ - محمد أفندى مرتضـى.

١٦ - محمد أفندى أنور. وتأخر ثمانية لمدة ثلاثة أشهر.

وحصلت زنوبة محـمد الماوردية على لقب (قابلة). وكـان يحـدد مـوعـد الامتحـان النهـائى وكذلك العـودة مـن الأجـازة بتـواريـخ مـحـددة معلومـة للجـميع فـمثـلاً كـان الامتحان فى عام ١٨٩٣ م يبدأ فى ٧ يونيو، وبداية الدراسة فى ١٨٩٣/٩/٣٠م.

وكانت تتراوح أجور العـاملين بمدرسـة الطب من مسـاعدين ومـدرسين وخلافه ما بين ٥ جنيـهات و ٤٠ جنيهاً، أمـا العـلاوات السنوية فكانت تتراوح مـا بين جنيه وجنيهين فمثلاً نجد فى رواتب عام ١٨٩٣ ما يلى:

كان راتب محمد بك درى مدرس الجراحة ٤٠ جنيهاً، بالإضافة إلى ٢ جنيه علاوة وكان راتب عثمان بك غالب مدرس التاريخ الطبيعى ٤٠ جنيهاً، بالإضافة إلى ٢ جنيه علاوة وكان راتب محمد أفندى حافظ ضابط ٩ جنيهات، بالإضافة إلى جنيه واحد علاوة وكان راتب إبراهيم افندى ماجد محضر الأقربازين ٥ جنيهات، بالإضافة إلى جنيه واحد علاوة وكان راتب الست كوثر وكيلة مدرسة الولادة ١٦ جنيهاً، بالإضافة إلى جنيه واحد علاوة. وكان راتب الشيخ عبده مدرس عربى ٦ جنيهات، بالإضافة إلى جنيه واحد علاوة.

وكان تلامذة مدرسة الطب يرسلون فور تخرجهم إلى مصلحة الصحة تستخدم اللازم منهم، ويرسل الباقى إلى نظارة الحربية لتعينهم فى وظائف الحكماء والصيادلة، أما الباقون فيوزعون على مستشفيات مصر والإسكندرية ليتمرنوا فيها أيضاً، أما خوجات مدرسة الطب فيعاد تعيينهم بمعرفة ناظر المعارف العمومية بناء على عرض مجلس الصحة عن ذلك، وكلما اقتضى الحال تعيين معلم للمدرسة المذكورة، يقوم المجلس بترشيح اثنين من الراغبين فى شغل الوظيفة لينتخب الناظر واحداً منهما وكان اختيار مدرس مدرسة الطب يخضع لشروط صارمة حتى لا يعين مدرس وقدراته العلمية موضع شك، فعند خلو وظيفة بالمدرسة فإنه يتعين على من يريد أن يشغل هذه الوظيفة أن يتقدم إليها ومعه حيثيات تقدمه لها والألقاب التى حصل عليها، وبعد البحث والتروى فى ذلك يعرضه ناظر المدرسة إلى ناظر المعارف ليصدروا أمراً نهائياً فى هذه المسألة.

وكان لطلبة المدرسة من النبوغ ما مكنهم من الفوز بإحدى الوظائف وهم مازالوا طلبة فى المدرسة، فقد حدث فى عام ١٨٨٧م إسناد وظيفة محضر تشريح إلى طالب يدعى (خليل شكرى) التلميذ الأول من السنة الثالثة مقابل راتب شهرى مقداره ٣٠٠ قرش ويعلن عن هذه الوظيفة فى مدة ٦ أشهر، كما تقرر تعيين مساعدين لمدرس (ميكروسكوب التشريح المرضى الفسيولوجى) نظراً للكثرة استعان مدرس هذا الفن بعدد من التلامذة مقابل ٣٠٠ قرش مكافأة شهرية مع التوصية بإدراج وظيفة هذا الفن فى ميزانية ١٨٨٩م.

ويبدو أن الإقبال على مدرسة الطب قل بعض الشئ عام ١٨٩٣م، أو ربما لزيادة عدد الدارسين، فقد تقرر فى هذا العام أن يكون التحاق الطلبة جميعهم مجانا، كما تقرر أيضاً أن يكون عدد تلميذات مدرسة الولادة فى السنة المكتبية المذكورة اثنتى عشرة تلميذة.

وكانت المدرسة تتمتع برحابة صدر القائمين عليها، فكانت تقبل التظلمات التى تقترح لها، ففى عام ١٨٩٣م تقرر قبول تظلم من أحد الطلبة يدعى محمد راشد عبده بالسنة الرابعة ومفاده "أنه قد حصل على ١٤ درجة كمتوسط فى الامتحان وهذا لا يؤهله إلى الانتقال إلى السنة الخامسة وأرجع سبب حصوله على هذه الدرجة لقلة درجته فى اللغة الإنجليزية وإنه لم يدرسها إلا عاماً واحداً وقد قبلت اللجنة التظلم واعتبرته ناجحاً".

وفى عام ١٨٩٥م تقرر نظر طلب إبراهيم عبد السيد الذى حصل على دبلوم الكلية الملكية للجراحين والأطباء بأدنبرة والذى يطلب بقاءه لمدة شهرين بأحد مستشفيات لندن لدراسة الطب العملى والطب الإكلينيكى وأمراض العيون وأمراض الزور والأنف وقد أجيب إلى طلبه، حيث وافق د. كيتنج وكيل المدرسة.

وفى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨/٤/٢٨) صدر أخر قانون فى هذا القرن ينظم قواعد القبول فى مدرسة الطب ومدرسة الأجزاجية والمدرسة الطبية للبنات وكيفية وعدد سنوات الدراسة فى كل مدرسة والمصاريف الدراسية وكيفية دفعها إلى أخر تلك الأمور المنظمة، كما وضعت ضوابط لتعيين الأساتذة فى الفروع الطبية المختلفة وقد جاءت فى هذه القوانين المنظمة الآتى:

موجز قانون مدرسة المطب ومدرسة الأجزاجية والمدرسة الطبية للبنات

المادة الأولى: أحكام عمومية

المدرسة الطبية تابعة لنظارة المعارف وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: قسم الطب ثانياً: قسم الأجزاجية ثالثاً: المدرسة الطبية للبنات

مدة الدراسة بقسم الطب ست سنوات وبقسم الأجزاجية أربع سنوات ومدرسة البنات الطبية ثلاث والتعليم فى الأقسام المذكورة يكون باللغة العربية.

المادة الثانية: شروط القبول

تقبل المدرسة بقسمى الطب والأجزاجية تلامذة خارجية أما القبول فى مدرسة البنات فيكون على حسب الأحكام الواردة بقانونها الخاص.

المادة الثالثة

على من يريد الانضمام فى سلك تلامذة الطب والأجزاجية أن بقدم الأوراق الآتية:

أولاً: شهادة الدراسة الثانوية المعطاة من نظارة المعارف العمومية.

ثانياً: تذكرة البلاد، أو ورقة تقوم مقامها.

ثالثاً: شهادة حسن السلوك محررة من ناظر المدرسة التى قضى فيها الطالب السنة الدراسية الأخيرة.

رابعاً: خطابا من والده، أو متولى أمره يتعهد فيه بتوريد المصاريف المقررة.

ولا يقبل فى قسم الطب والأجزاجية إلا من عرف اللغة العربية وبلغ عمره السادسة عشرة. أما قسم الولادة فلا يقبل إلا التلميذات اللاتى درسن العلوم الابتدائية بالمدرسة السنية، أو بمدرسة أخرى معلومة للنظارة.

المادة الرابعة

على الطالب أن يقدم إلى سكرتارية المدرسة فى غضون شهر سبتمبر طلبه مرفقاً بالأوراق المبينة، ثم يؤدى الامتحان ويكشف عليه الكشف الطبى ويجرى تطعيمه إذا لم يكن سبق له ذلك.

المادة الخامسة

من لم يحضر من الطلبة المقبولين إلى المدرسة طبقاً لنص المادة الحادية عشرة يكون مستعفياً.

المادة السادسة

على الطالبين الذين تلقوا دروساً فى مدرسة طبية، أو أجزاجية أن يؤدوا امتحاناً لترتيبهم فى الفرق اللائقة لهم.

المادة السابعة

كل طالب انقطع عن الحضور إلى المدرسة ثلاث مرات فى شهر ليس له الحق فى التعرض للامتحانات ما لم يقدم عذراً مقبولاً.

المادة الثامنة

من يتأخر من التلامذة عن الحضور إلى المدرسة مدة خمسة عشر يوما متوالية يرفت.

المادة التاسعة

قبل أن يتقدم الطالب لامتحانات السنتين الخامسة والسادسة عليه أن يقدم شهادة من حكمباشى الأسبتالية تدل على أنه حضر تمرين بها مدة سنة.

المادة العاشرة

إذا انقطع التلميذ عن الحضور إلى المدرسة سنة واحدة لعذر مقبول لدى ناظر المدرسة، ثم رغب فى الرجوع إليها لزم أن يؤدى امتحاناً ليوضع فى الفرقة التى يليق بها.

المادة الحادية عشرة

افتتاح الدروس يكون فى ١٠ أكتوبر فمن لم يحضر من التلامذة فى يوم ١٥ منه يرفت من المدرسة ما لم يبرهن على أن غيابه كان لأسباب مقبولة.

مصاريف المدرسة

١٠٠ قرش وقت الدخول بصفة رسم التسجيل

١٥٠٠ قرش مصاريف مقررة فى مقابل التعليم والأدوات المكتبية وآلات التجارب بالمعمل والتمرين بالأسبتالية وتدفع على ثلاثة أقسام؛ الأول فى ١٠ أكتوبر، والثانى أول يناير، والثالث أول أبريل.

بالنسبة لمدرسة البنات الطبية (الولادة)

هذه المدرسة تابعة لناظر مدرسة الطب وغايتها تخريج قابلات وممرضات وحكيمات لا تقبل المدرسة من البنات إلا من كانت متحصلة على التعليم الابتدائى بالعربى، وتكون سنها أربع عشرة سنة على الأقل، ولابد أن تكون الطالبة حميدة الأخلاق، حسنة السلوك، قوية البنية.

تقبل المدرسة كل سنة ست تلميذات مجانية

تحدد المصاريف للقادرين كل سنة على حدة.

تقوم الأسبتالية بسكن التلميذات وغذائهن وملبسهن، وعليهن القيام بخدمة المرضى ما دمن فى المدرسة.

فى السنة الثالثة تصحب التلميذات أساتذتهن إلى المنازل التى يكون فيها ولادة.

فى نهاية السنة الرابعة بعد التعرض للامتحانات تمنح من تنجح شهادة ورخصة مزاولة المهنة.

شروط التعاقد مع أعضاء هيئة التدريس:

أولاً: يعين المدرس لمدة سنتين وبعد انتهائهما لا تجدد الحكومة المصرية اتفاقاً معه بحيث تراعى نصوص المادتين ٧، ٨ ويجوز بقاء المدرس فى وظيفته إلى أن يبلغ من العمر ٥٥ عاماً.

ثانياً: تصرف الماهية للمدرس بعد انتهاء كل شهر.

لكل من مدرس الأمراض الباطنة والجراحة ٤٠٠ جنيه مصرى سنوياً.

لكل من مدرس تشخيص الأمراض الباطنة والجراحة٣٢٠ جنيها مصرياً سنوياً.

لكل من مدرس الرمد١٦٠ جنيها مصريا سنوياً.

ثالثاً: تصرف لكل منهم مكافأة تعادل شهراً واحداً من ماهيته فى مقابل كافة مصاريف انتقاله.

رابعاً: يصرح للمدرس بتعاطى صناعته فى الخارج بشرط ألا ينشأ عن ذلك تعطيل فى سير المدرسة، أو الاسبتالية.

خامساً: يتبع فى الإجازات الاعتيادية التى تعطى لهؤلاء المدرسين قوانين الحكومة المختصة بالموظفين الملكية بحيث لا يصرح فى أى حال من الأحوال بإجازة زمن الدراسة.

سادساً: لا يكون للمدرس الحق فى المعاش ولا المكافأة

سابعاً: للحكومة المصرية أن تستغنى عن المدرس فى أى وقت إذا ظهر عدم كفاءته للتدريس، أو سوء سلوكه، ويعتبر قرار الحكومة فى ذلك نهائياً.

ثامناً: إذ تراءى للجنة الطبية أن صحة أحد المدرسين لا تسمح له بالاستمرار فى وظيفة يتم انفصاله عن الوظيفة وتقطع ماهيته ابتداء من تاريخ الانفصال عن العمل.

هذا ما كان من أمر مدرسة الطب، أما عن الحالة الصحية فى عموم القطر المصرى والقاهرة فى العقود الثلاث الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى، فقد استمر الاهتمام بإنشاء المستشفيات من حلفا فى الجنوب وحتى الإسكندرية شمالاً، وتفيد المصادر أنه قد تمت الموافقة على صرف مبلغ ١٤ جنيها المطالب بها حكيم باشا اسبتالية حلفا قيمة معالجة بعض أشخاص ملكين رأتها اللجنة أنه من واجبات مهمته، كما كانت هناك توصية بإقامة مستشفى للمدنيين بمدينة أسوان

وكانت الحكومة فى مرات عديدة تلجأ إلى استئجار أحد المنازل وتحويله إلى

اسبتالية لمعالجة المواطنين مجاناً دون غيرهم مثلما حدث عندما استأجرت مصلحة الصحة منزل أحد الأهالى فى مدينة الأقصر ووضعت فى أودة عشرة أسرة على خدمة العيانين وذلك كأجراء مؤقت لحين بناء اسبتالية لعلاج المواطنين، كما أنشئت فى القناطر الخيرية اسبتالية لعلاج المرضى كان يعمل بها حكيم وباشتمورجى وأثنان تمورجية مجموعة مهياتهم شهريا ١٤٢٥ قرشا، وكذلك أنشئت مستشفيات فى باقى المحافظات.

كما كانت مصلحة الصحة تقوم بإنشاء مستشفيات ذات طبيعة خاصة مثلما حدث عندما أوصت فى مكاتبة رياسة مجلس شورى القوانين "بطلب إحداث مستشفى لمداواة من يصابون بداء الكلب". وفى حالة الأوبئة نفسها كان ينصح بإقامة مستشفيات نقالى، حدث هذا عندما طلبت اللجنة المالية لمجلس النظار نقل مبلغ ٨٠٠ جنيه من بند أول ماهيات لبند ثالث مصاريف متنوع لاستعماله فى كمالة مصاريف الاسبتاليات النقالى من أجل ملاشات الأمراض التى تظهر قبل انتشارها مع الاسبتالية المستجدة بطرة لمعالجة المسجونين.

كما كانت تجتهد فى توفير الأمصال المختلفة للتطعيم ضد الأوبئة، وكانت تستعين إلى جانب الأطباء بحلاقى الصحة لإجراء التطعيمات "فقد رأت اللجنة المالية الموافقة على طلب مصلحة الصحة العمومية بصرف مكافأة إلى حلاقى الصحة بواقع واحد قرش عن كل طعم يجرون تلقيحه.

كما اجتهدت مصلحة الصحة فى سن القوانين التى من شأنها المحافظة على صحة الأطفال حديثى الولادة والعمل على تطعيمهم ضد الأمراض حتى يعيشوا فى صحة جيدة "فقد طلبت مصلحة الصحة تغريم من يتأخر عن تقديم ولده للأطباء فى ثانى أسبوع للتطعيم بغرامة قدرها ٥٦٠ قرشاً يدفعها كل من لم يبلغ عن الولادة، أو أسقط مدة من القيد بعد الميلاد، وكذلك كل من يتأخر من أهالى المولودين عن تقديم المولود للتطعيم فى المواعيد المحددة".

وفى سبيل حرصها على متابعة المصريين والعمل على عدم وقوعهم بين أيدى مدعى الطب، أو الجاهلين وضعت الحكومة ممثلة فى مصلحة الصحة العمومية لائحة تختص بتعاطى صناعة الطب والأجزاجية فى القطر المصرى.

أما عن عدد البعثات فى عهد توفيق فقد بلغ فى الفترة من ١٨٧٩م حتى ١٨٨١م، ١٢ بعثة فى الطب و١١ بعثة فى الطب البيطرى.

وفى عام ١٩٧٥م أسدل الستار على ذلك الصرح الطبى العريق الذى ظل

يؤدى رسالته الإنسانية لمدة ١٣٨ عاما وذلك عندما قام الرئيس الراحل محمد أنور السادات بضرب أول معول لهدمه ليحل محله المبنى الجديد.

الرعاية الطبية فى أقليم قناة السويس:

يأتى مشروع قناة السويس من أعظم مشاريع القرن التاسع عشر على الإطلاق ليس من الناحية الاقتصادية فقط لكونه ربط ووصل بين البحرين الأحمر والمتوسط ولكنه كان عظيماً أيضاً من الناحية الحضارية، حيث نشأت ونمت واتسعت على ضفاف القناة ثلاث مدن كبرى على أى حال فقد وقع سعيد باشا والى مصر آنذاك عقداً لحفر قناة السويس مع صديقه المهندس الفرنسى الطموح فيرديناند ديليسبس والذى يهمنا من هذا المشروع ذلك الجانب الاجتماعى والانسانى الذى وفرته الشركة للعاملين بها، وما انعكس على أهالى ذلك الإقليم من خدمات طبية كانوا فى أمس الحاجة إليها فى تلك الأوقات والواقع أن تاريخ الشركة فى هذا القرن ينقسم إلى فترتين:

الأولى:، وهى التى استغرقتها مدة الحفر من عام ١٨٥٩ حتى عام ١٨٦٩م أى نحو ١٠ سنوات.

الثانية: تمتد من عام ١٨٦٩ وحتى عام ١٩٠٠ (بداية القرن العشرين) وتمتد لنحو ٣٠ سنة.

أولا: الفترة الأولى من ١٨٥٩ حتى ١٨٦٩م

والحديث عن الفترة الأولى والتى استغرقتها مدة حفر القناة تتباين فيه المشاعر ما بين إعجاب وتقدير بالأجداد الذين منحوا أرواحهم ثمنا غالياً حتى ظهر هذا المشروع للنور وبين الألم والغضب الذى يعتصر القلوب لما لاقاه أولئك الرجال من عنف وظلم ومعاملة لا تتناسب مع كونهم بشرا. فقد سيق العمال سيراً على الأقدام إلى مناطق الحفر وهم مقيدون ببعضهم إلى بعض كالجمال، أو مثل قطعان العبيد فى أفريقيا.

وفى تلك الصحراء القاحلة بدأت المعاول فى حفر شريان الخير والحياة فى الوقت الذى لم تراع فيه أبسط القواعد الصحية والإنسانية للعاملين بالمشروع وكانت كبرى المشاكل والمعوقات التى تواجه الشركة فى ميادين العمل هى ندرة مياه الشرب وصعوبة توفيرها. ولجأت إلى عدة وسائل لتوفير الماء المستساغ

للشرب مثل نقله من دمياط، أو الإسكندرية، كما أنها استوردت ثلاثة مكثفات لتحويل ماء البحر إلى ماء عذب، كذلك اعتمادها على عدد من الآبار تجلب منها المياه فى براميل على ظهور الجمال. وكان الأجدر للشركة أن تنفذ ما جاء فى عقد الامتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير عام ١٨٥٦م والذى ينص على أن تقوم الشركة إلى جانب إنشاء قناة السويس بحفر ترعة للماء العذب تستخدم فى أغراض الرى والملاحة النهرية تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح، ثم تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً إلى بورسعيد والآخر جنوباً إلى السويس. ولكن الشركة اختارت الطريق الأقل تكلفة وهو حصد أرواح المصريين بدلاً من إنفاق الأموال فى حفر الترعة.

هذا وقد قدرت بعض المراجع عدد العمال المصريين الذين شاركوا فى أعمال الحفر بما يزيد على المليون ونصف المليون فلاح من كلا الوجهين (البحرى والقبلى) وعدد الذين لقوا حتفهم بما يقرب من ١٢٥ ألف ضحية.

الخدمات الطبية أثناء عملية الحفر

تذكر بعض المصادر أن الخدمات الطبية للعمال المصريين كانت موجودة أثناء عملية الحفر ولكنها كانت قليلة فقد كان هناك طبيب واحد فى كل موقع يزيد عدد عماله على ٥٠٠ ألف عامل، وقد ذكر أحدهم وهو طبيب كان يشرف على الحالة الصحية بين جموع العمال الذين عملوا فى حفر ترعة الماء العذب من ١٩ أبريل ١٨٦١ حتى ٢٣ يناير ١٨٦٢م أن عدد العمال الذين أصيبوا بأمراض كان ٤٦ حالة، أما الذين لقوا حتفهم فبلغ ١٠ حالات فقط لاغير.

وقد فتكت الأمراض المعدية بالعمال المصريين وكان على رأسها الدوسنتاريا الحادة، كما عانى العمال نقص وسوء التغذية فقد كان العامل يعيش على قطعة الجبن القديم والمش والعسل والبصل طوال ٨ إلى ١٢ أسبوعا، وكانت أكبر مأساة تعرض لها العمال خلال عمليات الحفر هى وجود مادة طينية سائلة تحتوى على فسفور حارق للأبدان مما أصاب الآلاف بالأمراض الغامضة التى كانت تودى بحياتهم خلال أيام. وقد دفع ذلك إلى هروب جماعى للعمال الأمر الذى جعل ديليسبس يلجأ للاستعانة بالصيادين فى شمال الدلتا وبحيرة المنزلة لانتزاع تلك الطبقة الطينية والتى كانت سبباً فى فناء جميع العاملين الذين تم جلبهم ولم ينج منهم أحد.

وكتب التاريخ التى تناولت مشروع قناة السويس تعج بالكثير من قصص العذاب التى تعرض لها العمال المصريون، فذكر أحدها أن مواقع العمل كانت أشبه بأودية الموت انتشرت بها الأمراض الفتاكة، كما وجدت الكوليرا بينهم أرضاً خصبة واستطاعت أن تحصد أرواح الآلاف وضربت عظام الضحايا بامتداد القناة بما فيها الآسيوى والأفريقى.

وحاولت الحكومة المصرية أن تقدم بعض الخدمات الطبية لأبنائها العمال فقامت بتوفير بعض المستشفيات الميدانية وتوفير عدد من الأطباء، إلا أنها كانت محاولات قاصرة.

ثانياً: الفترة الثانية من ١٨٦٩ حتى ١٩٠٠م

تم افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩م فى حفل أسطورى دعى إليه حشد كبير من وجهاء العالم فى ذلك الوقت، وأياً ما كان من أمر هذا الحفل فقد تم تدشين قناة السويس لتكون فى خدمة العالم أجمع.

وشيئاً فشيئاً بدأ الجهاز الإدارى للشركة يستكمل أجهزته بما يطرأ من مستجدات تفرضها الظروف. ومن المعروف أنه صاحب قيام الشركة وجود عدد كبير من الموظفين والمهندسين والقباطنة وغيرهم من بلدان أجنبية عديدة واستقروا فى مدن القناة الثلاث (بورسعيد - الإسماعيلية - السويس) وأصبح فى كل مدينة حيان أحدهما لأبناء البلد ويسمى العرب، أو العربى والثانى للأجانب ويسمى الإفرنج. ونظراً لتزايد عدد العاملين بالشركة ووجود عدد أكبر من أفراد أسرهم، فقد دعت الحاجة إلى وجود نظام للرعاية الصحية للعاملين وأسرهم مما استلزم إنشاء عدد من المستشفيات والمحاجر الصحية والملاجىء. والحق أن هذه الخدمات الطبية قد استفاد بها أهل منطقة القناة من المصريين.

ويبدو أن خبرة المسيو ديليسبس فى هذا المجال قد أهلته إلى تبنى هذه السياسة الصحية بكفاءة كبيرة. فقد شاءت الظروف أن يكون قنصلاً لبلاده فى مدينة الإسكندرية عندما داهمها الطاعون فى عام ١٨٣٤ - ١٨٣٥م. فأخذ ديليسبس على عاتقه مهمة مساعدة الطبيبين روكسى وبرسين اللذين وقفا عاجزين لا حول لهما ولا قوة فى مواجهة ذلك الإعصار المدمر، فلم يكن متوفراً أى أنواع من الأمصال، أو وسائل التطهير، ولم تكن أبسط القواعد الصحية، أو الطرق الوقائية مأخوذا بها. وراح ضحية هذا الوباء أعداد لا حصر لها وازداد

هلع السكان من ذكر كلمة طاعون. وكان من الإجراءات التى اتخذها ديليسبس أن جعل من منزله ودار القنصلية مستشفيات صغيرة، وراح هو ود. كالمت طبيب القنصلية فى مساعدة المصابين. ونصب ديليسبس نفسه لكى يواسى المصابين ويمدهم بجرعات من الأدوية المتاحة آنذاك، كما حدث فى عام ١٨٦٨م أى قبل افتتاح القناة بعام أن أبدى كبير أطباء البرزخ (د. أوبيرروس) إعجابه الشديد بشدة حرص ديليسبس على توفير الرعاية الصحية للعاملين فى المشروع.

كل هذه التجارب جعلت ديليسبس يبدى اهتماما خاصاً بالنواحى الطبية واستحدث كثيراً من اللوائح التى تحفظ للعامل حقوقه فى نيل رعاية متكاملة. ومن هذه اللوائح ما ينص على أن "لكل عامل مريض الحق فى تلقى العلاج بالمستشفى بعد نقله بسيارة الإسعاف وفقاً لحالته الصحية، ويصرف له قيمة نصف الأجر الذى يتقاضاه يومياً ومقداره قرش ونصف وذلك طوال فترة إقامته بالمستشفى".

مستشفى سان فانسان دى بول:

وفى سبيل تطوير الخدمات الصحية فى شركة قناة السويس قامت الشركة بإنشاء مستشفى سان فانسان دى بول على بعد خمسة كيلومترات من مدينة الإسماعيلية أمام بحيرة التمساح، وقد أقيم فى منطقة ذات مناخ صحى، حيث التهوية جيدة نظراً لجفاف الهواء ونقاوته، وكان هذا المستشفى يحتوى على ٦٠ سريرا لم يحدث أنها شُغِلَتْ كلها مرة واحدة. وكان طاقم العمل فى هذا المستشفى يتكون من أثنين من الأطباء المهرة ويساعدهم خمس من الأخوات الراهبات المنتميات إلى جماعة سان فانسان دى بول. وكان هذا المستشفى مخصصا للعاملين وأسرهم، يتلقون فيه العلاج مجاناً، وكان العامل يقبض نصف راتبه أثناء فترة مرضه.

وفى مرحلة تالية من تطور العمل بالمستشفى، تم تخصيص ١٨ سريراً من مجموع الأسرة وجعلها وقفاً على النساء والأطفال، مما كان له أكبر الأثر فى أن تتردد النساء مع أطفالهن على المستشفى لتلتمس العلاج فيه على أيدى الراهبات اللاتى كان لهن أكبر الأثر فى تخفيف آلام الأطفال وأمهاتهم وإنقاذ حياة الكثيرين منهم.

وإلى جانب المستشفى أقيمت مصحة صغيرة تبعد عنه بمسافة قصيرة، وهى

عبارة عن حجر صحى صغير لأنواع معينة من الأمراض، ينقل إليها المريض حتى لا تنتشر العدوى داخل أرجاء المستشفى، كما كان المريض يقضى فيها فترة النقاهة فى جو صحى متجدد الهواء حتى يسترد عافيته وهذه المصحة عبارة عن شاليه كبير يحتوى على عدة شرفات حتى تسمح بتجدد الهواء. وكان يقوم على خدمة المرضى فى المصحة عدد من راهبات السان فانسان دى بول اللاتى كن يقدمن خدمات جليلة للمرضى الأمر الذى يساعد على سرعة شفائهم.

ويكفى للدلالة على تقديم الخدمات العلاجية لأهل منطقة وسط البرزخ (الإسماعيلية وضواحيها) العدد الكبير الذى سعى لتلقى العلاج، أو لتضميد الجروح، أو لإجراء العمليات الجراحية البسيطة، فقد بلغ مجموع الحالات عام ١٨٩٧م نحو ٣٣٥٦٩ حالة، وفى عام ١٨٩٨م نحو ٤٠٧٦٠ حالة، أما فى عام ١٨٩٩م فقد تجاوزت الحالات ٥٠ ألفا، وكانت هذه الأعداد خليطاً من العمال والمستوطنين الذين سكنوا تلك الجهات طلباً للرزق إلى جانب عدد كبير من البدو الذين جاءوا من وسط الصحراء لتلقى العلاج.

وأقيمت أيضاً مصحة للعلاج فى مدينة بورتوفيق خدمت فيها الراهبات بكل تفان المرضى الذين ترددوا على المصحة إلا أن عددهن كان أقل كثيراً من مرضى مصحة الإسماعيلية.

جهود الأمير لو أمير دارنبرج والراهبة مارى فى علاج الرمد

كان للأمير لو أمير إمارة دارنبرج جهود إنسانية تمثلت فى قيامه بتشييد عدد من المصحات فى منطقة القناة فى موقع محطات المراقبة نفسها التى أقيمت على طول المجرى مثل محطات (طوسون - الدفرسوار وغيرهما) وخصصها لعلاج مرض الرمد الذى كان منتشراً بشكل وبائى فى مصر كلها، ويؤدى إلى إصابة العديد بالعمى وفقد البصر. وكانت تلك المصحات والمحطات تخضع لإشراف طبى دقيق، وكان العلاج فى تلك المصحات قائما على غسيل العين بمادة البوريف التى لم تكن مؤثرة عادة إلا فى مراحل المرض الأولى، أما إذا كان المرض قد تمكن من عين المريض ففى هذه الحالة كان ينقل إلى مستشفى سان فانسان دى بول، حيث هناك العلاج أكثر تقدماً. وقد برز اسم الراهبة مارى فى تلك الفترة بجانب اسم الأمير لو، حيث أخذت على عاتقها توفير العلاج، فقد كانت تقوم بقلب جفن الأطفال المرضى وتضع عليها

قطرات من النترات حتى يتماثل المريض للشفاء. وقد ذاعت شهرة الراهبة مارى وعلاجها الذى لا يسبب أى ألم مما أدى إلى أن يقصدها العديد من المرضى طلباً للشفاء.

وامتدت خدمات الشركة أيضاً إلى توفير الأدوية والعقاقير وأيضاً الحصول عليها بأسعار أقل مما تباع به فى الأسواق بنسبة كبيرة تصل فى المتوسط إلى ٣٠٪، فعلى سبيل المثال فإن عقار الـ Antifoynine يباع الجرام منه بسعر ١,٥ - ٢ فرنك واستطاعت الشركة توفيره بربع فرنك فقط.

جهود الشركة فى مكافحة الأوبئة

شهدت نهايات القرن التاسع عشر عدة هجمات شرسة لعدد من الأوبئة الفتاكة يأتى على رأسها وباء الطاعون. فمن المعروف أن هذا الوباء منتشر بكثرة بين الهنود الذين وجدوا بكثرة على ساحل البحر الأحمر، لذا لجأ القائمون على أمر الشركة إلى عمل مراقبة دقيقة للحجاج القادمين من مكة والمراكب المبحرة من تلك المنطقة. هذه المراقبة أتاحت للشركة فرصة ترحيل الأشخاص المشكوك فيهم ونقلهم إلى منطقة عيون موسى، الأمر الذى سهل كثيراً فى مقاومة المرض والحد من انتشاره.

وشهد عام ١٩٠٠م أعنف نوبات الوباء وأشدها قسوة. صحيح أن عام ١٨٩٦م شهد اجتياحاً للطاعون أزهق كثيراً من الأرواح، إلا أنه كان أخف وطأة من طاعون عام ١٩٠٠م والذى بدأ من مدينة بورسعيد. ففى أبريل من ذلك العام أكتشف طبيب الشركة د.كمبوليو أول حالة مصابة بالطاعون وكانت لنجار يونانى أصيب بالعدوى من أخت زوجته التى توفيت بهذا المرض، كما ظهرت حالة أخرى فى المنزل نفسه. وعلى إثر هذا الاكتشاف أبلغ الدكتور كمبوليو المسئول الصحى عن المدينة والمدير الموجود بالقاهرة (الكونت دى مريون) وتم اتخاذ العديد من الاحتياطات والإسراع فى إعطاء التطعيمات اللازمة للحيلولة دون انتشار الوباء ,وعلى الرغم من هذه الإجراءات الوقائية فإن الوباء أخذ ينتشر بصورة كبيرة حتى شمل المدينة بأسرها. وعلى الفور تم عقد اجتماع طارئ فى مدينة بورسعيد بحضور رؤساء الخدمات وطبيب الشركة ومسئولى مختلف الفئات لبحث الأمر، وقد تقرر الأخذ بعدد من الإجراءات منها:

١- السماح لموظفى الشركة برؤية الطبيب خلال الفترة المسائية بالإضافة إلى الفترة الصباحية لإحكام السيطرة على الحالات التى تظهر.

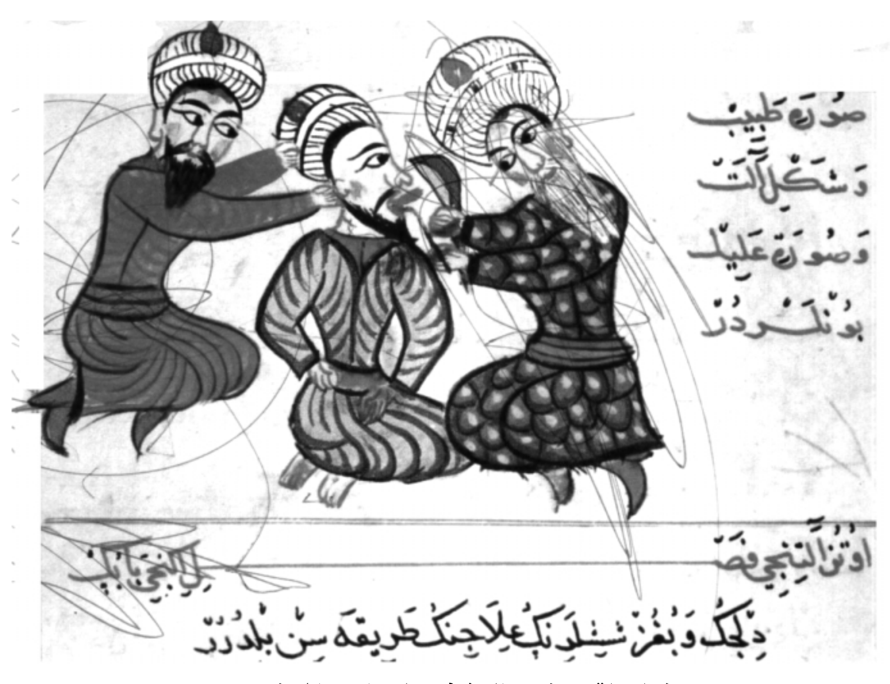
٢- توزيع نشرات وقائية وتحذيرية متضمنة الحث على الأخذ بالطرق الصحية وعدم الاستهانة بصغائر الأمور.

٣- التفتيش الدقيق لجميع مبانى الشركة والعمل على تطهيرها وجعلها نظيفة.

٤- التنبيه على فريق التمرين بعدم لمس الفئران بأيديهم وحرقها فوراً.

وتم عمل اجتماع آخر لمتابعة ما اتخذ من إجراءات، وأضافوا عليها عدم التعامل مع السكان المحليين إلا عن طريق شباك صغير بالطابق الأرضى.، كما تقرر صرف المرتب بالكامل للعمال اللذين يتم عزلهم والذين تصل مدة عزلهم إلى ١٠ أيام للتأكد من تمام الشفاء.، كما كان على المصاب أن يزور الطبيب لمدة تتراوح بين ١٥ و٢٠ يوما كاملة. وأخيراً تقرر إقامة مبنى للإسعاف فى مكان بعيد ويضم أماكن مريحة تسع نحو ٤٠ عائلة، وكان لكل مريض حجرتان مفروشتان ومجهزتان بكل ما يحتاجه المريض. وكان مركز الإسعاف متصلاً بمنزل الطبيب مباشرة عن طريق التليفون.

الفصل الثالث



مخطوطة توضح الكشف على احد المرضى

الأمراض والأوبئة فى القاهرة من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن ١٩م

تمهيـــد:

الأمراض والأوبئة قديمة قدم الإنسان نفسه. فمنذ أن وطأت أقدام نبى الله آدم وزوجته الأرض، وأصبحت سكناً لهما ولذريتهما من بعدهما، تلازمت مع البشر كائنات مختلفة الأحجام، منها ما يفوق حجم الإنسان نفسه عدة مرات، ومنها ما يساويه، ثم تتناقص أحجامها حتى لا تكاد ترى بالعين المجردة. وبدأ هذا الجهاز البيولوجى المعقد المسمى بالإنسان رحلته فى هذه الحياة.، وكان أخطر ما ابتلى به وأفسد عليه حياته هو إصابته بالأمراض التى لم يعرف من أين جاءت، وكيف تسللت إليه. وبمرور الوقت عرف الإنسان أن المرض فى أحيان كثيرة كان مقدمة للموت، فهو (أى المرض) يصيب ويردى، كما شاء، وسبيل الناس بالمقابل إلى الخلاص منه هو الأدعية والتضرع وبعض العشب والرقى والتمائم. والناس منذ أن وجدوا يعرفون أن المرض ألوان وأنواع فهو تارة يورث الوهن والضعف والندب والبثور، وتارة هو القىء الدموى، أو الحمى حتى الهذيان، أو صفرة تحاكى أوراق الشجر أواخر الخريف. وقد يأتى كالسيل الجارف فى شكل وباء فيذهب بعشرات، أو مئات الآلاف.

وفى سعيه الدائم والمتواصل لكشف ماهية الأمراض التى يتعرض لها، استطاع الإنسان أن يحدد بعض الأمراض التى أصابته ومن ثم حاول إيجاد طريقة لمعالجتها إلى أن يبرأ منها. ويأتى على رأس هذه الأمراض ما يصيب العظام من كسور وخلع، أو إصابة أدت إلى تهشم العظام.

وقد حاول علماء الأمراض من خلال دراستهم للهياكل العظمية القديمة أن يحددوا بعض الأمراض التى أصابت العظام من غير الكسور، فاستطاعوا أن يميزوا بدقة مضاعفات للروماتيزم وأخرى لسل العظام، وثالثة لسرطان العظام.

أمراض وأوبئة المصريين

عانى المصريون منذ القدم من عدد كبير من الأمراض، منها الهينة ومنها الفتاكة وبوقوع مصر على ضفاف النيل مكن لبعض الأمراض أن تكون وقفاً على المصريين وخاصة بهم، فماء النيل، كما يحمل الخير والنماء، يحمل أيضاً معه الموت والفناء ممثله فى ديدان البلهارسيا والإنكلستوما.

ومن أقدم الأمراض التى هاجمت وفتكت بأجساد المصريين والتى استطاع العلماء أن يكتشفوها إثر فحصهم للعديد من المومياوات المحنطة مرض الروماتيزم الناتج عن التهاب اللثة، وعيوب التئام العظام المكسورة والتهاباتها، وتشوهات العمود الفقرى.، كما انتشرت أمراض النساء بصورة كبيرة ولكن من الملفت للانتباه أن أطباء تلك الفترة استطاعوا أن يحدوا لتلك الأمراض علامات ناجحة، فقد عرفوا أن الحمل فى سن مبكرة يحمل فى طياته العديد من المضاعفات، كما وصفوا بدقة سقوط الرحم والذى كان يعالج باستخدام حلقة توضع فى المهبل لتحويل وضع الرحم. بالإضافة إلى التهابات الرحم والتهابات المشغرين، أو سرطان الرحم الذى كان يعالج بواسطة الحقن الموضعى والمطهرات والأبخرة العطرية التى لم يستطع العلم الحديث الوصول إلى حقيقة تركيبها بصورة دقيقة.

وانتشرت فى مصر أمراض العيون وأصبحت شائعة وذلك كنتيجة طبيعية للطقس الحار والمترب الذى يغطى أغلب أوقات السنة. لذا انبرى لها كثير من الكهنة وعلى رأسهم (أيرى) IRI طبيب العيون بالقصر الملكى، وكذلك (كوى) Kowy كبير كهنة هليوبوليس الذى ابتكر قطرة للعين وصل تركيبها إلينا. ومن أمراض العيون عرفنا التهاب حافة الجفن وتشوهات الأهداب والتهاب الملتحمة، كما عرفت المياه البيضاء.

ووجدت أمراض الجهاز التنفسى من سعال وربو والتهاب الغشاء البللورى، كما وجدت أمراض الجهاز الهضمى من آلام البطن وطفيليات الأمعاء (بالطبع من دون تحديد الطفيل) والإمساك والإسهال. وعرفت أمراض ومشاكل الشرج مثل البواسير وسقوط المستقيم (ويبدو أن هذه الأمراض كانت شائعة بحيث خصص فى الفريق الطبى للملك طبيب سمى بـ«حارس شرج الملك». ووجدت أمراض الجهاز البولى من احتباس البول والسلس والنزيف البولى.

وإلى حد كبير استطاع الأطباء المصريون الأقدمون أن يبتكروا أساليب علاجية وأدوية ساعدت فى تخفيف آلام الشعب. وظلت الأمور كذلك حتى وقعت مصر تحت سيطرة البطالمة، ثم الرومان من بعدهم. واستطاع علماء تلك الشعوب أن يمزجوا بين تعاليمهم وبين ما وجدوه من علم المصريين القدماء وقدموا للحضارة البشرية مزيجاً رائعاً من العلوم التطبيقية التى ساعدت إلى حد كبير فى تطور المعارف الإنسانية.

مصر تحت الحكم الاسلامى

أتم عمرو بن العاص فتح مصر عام ٢٠هـ/٦٤١م، ومن ثم بدأ يعيد ترتيب أمور هذه الولاية التى من الله عليه بفتحها، فاتخذ حاضرة جديدة بدلاً من الإسكندرية (عاصمة مصر آنذاك) امتثالاً لأوامر الخليفة (عمر بن الخطاب) أطلق عليها اسم «الفسطاط».

وأخذت القبائل التى جاءت إلى مصر فى ركاب جيش الفتح فى اختيار أماكن للنزول بها سميت «أخطاط». وعمرت الفسطاط بأخطاطها واتسعت مساحتها حتى أصبحت حاضرة لها من الحسن والرونق ماجعل الرحالة الذين زاروها يبالغون فى أوصافها.

وظلت الفسطاط عاصمة لمصر طيلة زمن الأمويين. وعندما انتقلت السيادة إلى بنى العباس شيدت حاضرة جديدة لمصر سميت بـ«العسكر» على يد (أبو عون عبد الله بن يزيد) واليها من قبل الخليفة أبى العباس السفاح ١٣٣هـ/٧٥١م. ولما نجح (أحمد بن طولون) فى حركته الاستقلالية وانفرد بحكم مصر، أنشأ حاضرة جديدة فى عام ٢٥٦هـ/٨٧٠م أطلق عليها اسم «القطائع» التى ظلت حتى مجئ الفاطميين الذين اتخذوا حاضرة جديدة واختاروا لها اسم «القاهرة». وقدر للقاهرة أن تستمر عاصمة لمصر فيما تلى ذلك من عهود، وصارت حاضرة الشرق كله زمن الأيوبيين والمماليك، ولم يأفل نجمها، كما يشاع زمن العثمانيين ومازالت القاهرة حتى الآن تاج العلاء فى مفرق الشرق.

ومما سبق نستطيع أن نقسم تاريخ إلى مصر عدة أقسام، أو مراحل، هى:

أ) مرحلة عهد الولاة (سواء من قبل الخلفاء الراشدين، أو بنى أمية، أو بنى العباس).

ب) مرحلة الدويلات المستقلة (عهد الطولونيين والإخشيديين).

ج) مرحلة الخلافة والدولة ذات السيادة (الخلافة الفاطمية -الأيوبيين - المماليك).

والحق أن المسلمين عندما فتحوا مصر، قد ضموا بلداً ذا تراث حضارى ضخم، يأتى فى مقدمة هذا التراث -وهو ما يعنينا فى هذه الدراسة- ما خلفه الأقدمون من معارف طبية ظلت تتوارثها الأجيال وشكلت المعين الطبى لهذا البلد، والذى ظل الاعتماد عليه حتى العصور الحديثة، ومازالت بعض طرق العلاج فى الطب الشعبى تستعمل حتى الآن، ويعود أصلها إلى جذور فرعونية. ففى عهد الولاة كانت مصر ولاية تابعة جرت فيها الأمور شأنها شأن الولايات الأخرى فى كل ما يتعلق بحياة الناس. فإذا كنا بصدد الحديث عن الطب ودور العلاج، فإننا نقرر هنا أنه لم يحدث عليه ذلك التغير الضخم مقارنة بما حدث فى عاصمتى دولتى الخلافة (دمشق- بغداد). صحيح أنه كانت هناك بعض المحاولات الفردية، ولكن لم تصلنا معلومات كافية بشأنها، وسوف نعرض لها فى حينها. ولا يعنى حديثنا هذا أن الأحوال الطبية فى تلك الفترة كانت متدهورة، أو أن الخدمات العلاجية كانت منحطة، لكن بالنسبة لمصر على وجه الخصوص كانت الأمور مختلفة، فقد هيأ لها موقعها الفريد بين بلدان العالم القديم عموماً، وبلاد الدولة الإسلامية الكبرى بشكل خاص، أن تكون قبلة للعلماء فى مختلف التخصصات، الأمر الذى ساعدها أن تقف على كل جديد، وأن تكون بالقرب من التيارات العقلية والفكرية كافة. وقد كشفت حفريات الفسطاط عن مجموعة من الأدوات الجراحية محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة أهداها إليها د. هنرى أمين عوض.

وفى عهد الطولونيين والإخشيديين طرأت أوضاع جديدة، نتيجة للمتغيرات التى حدثت فى مصر، فوجود بيت حاكم له السلطة والقوة والثروة والنفوذ، يشجع على اجتذاب ذوى الطموح وطلاب المال.، كما أن الحاكم نفسه سعى إلى أن تحوطه بطانة من رجال الفكر والعلم والدين والشعر حتى تكتمل له أبهة الملك وتعظم هيبة السلطان.

وفى المدة من الفتح الإسلامى وحتى سقوط دولة الإخشيد، لم تسجل، أو تتواتر أخبار عن الحالة الصحية فى مصر. وبصفة خاصة عن مدى انتشار الأمراض ونوات الأوبئة التى اجتاحت البلاد طوال تلك الفترة. وكانت البداية الحقيقية لتسجيل تلك الأحداث بصورة مفصلة مع قيام الدولة الفاطمية فى

مصر ومن ثم تشييد القاهرة واتخاذها حاضرة للبلاد وسوف أعرض ما أصاب مصر من أمراض وأوبئة عصفت بأبنائها وفتكت بهم بلا رحمة، أو هوادة، ملقياً الضوء على بعض الجهود القليلة التى حاولت الوقوف ضد ضراوة الأمراض وشراسة الأوبئة.

الأوبئة والمجاعات زمن الفاطميين

صحب تقدم العلوم الطبية فى مصر زمن الفاطميين ظاهرة غاية فى الخطورة ألا وهى ظاهرة تفشى الأوبئة وكثرة المجاعات، صحيح أن تلك الظواهر لم تكن وليدة العصر ولا وقفاً عليه، ذلك أن مصر كانت تعتمد ومازالت على نهر النيل الذى يعد المصدر الرئيسى للمياه، فمنذ القدم كان فيضان النيل ووفاؤه يعنى الخير والنماء ووفرة الغذاء، أما إذا كان الفيضان قليل المياه فهذا يعنى الخراب والبوار وقلة الغذاء ولعل أصدق دليل على ذلك قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع عزيز مصر.

وكانت أولى نوبات وباء الطاعون فى مصر الإسلامية عام ٦٦هـ/٦٨٥م زمن ولاية عبد العزيز بن مروان خلال حكم الأمويين، ومات فى هذا العام خلق كثير، ثم استمرت نوبات الوباء طوال عصر الولاة ما بين الخفيفة والقاسية.

أما فى العصر الفاطمى فقد بدت الظاهرة أكثر وضوحاً، وخلفت وراءها كثيراً من المحن والآلام. وقد صحب تفشى الأوبئة قيام الدولة الفاطمية فى مصر، ففى عام ٣٦٠هـ/٩٧١-٩٧٢م انتشرت وتفشت الأمراض وأخذت تحصد أرواح الناس، وكان أخطرها الطاعون الذى هاجم الفسطاط بقسوة، حيث ساعد على انتشاره ازدحام البيوت بالسكان التى كانت دورها من عدة طوابق بلغ عدد السكان فى بعضها عدد مئات من الأنفس. أضف إلى ذلك، انتشار العادات غير الصحية سيما إلقاء الحيوانات النافقة فى مجارى المياه التى يشرب منها الناس، كما كان لتعذر دفن الموتى فى مدافن خارج المدن الأثر الكبير فى تزايد عدد الوفيات.

وفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤-١٠٠٥م اجتاح الوباء البلاد، وشمل أيضاً الماشية التى أمر الحاكم بمنع ذبح السليم منها إلا فى عيد الأضحى، كما حث على قتل الكلاب حتى خلت منها الطرق، لأنها فيما يبدو كانت تنقل العدوى. وفى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧-١٠٠٨م انتشرت الأوبئة واختفت الأدوية. ومن شدة وطأة الأوبئة

صار هناك اعتقاد بين الناس بأن من يأكل الملوخية ونوعاً من الأسماك يسمى الدنيس يزيد من انتشار الأوبئة، الأمر الذى كان يعاقب معه كل من يوجد عنده هذه الأصناف.

وفى عام ٤٤٧هـ-٤٤٨هـ هاجم الطاعون البلاد وأودى بحياة كثيرين حتى أن عطاراً باع فى يوم واحد ألف قارورة شراب. وقدر من مات فى هذا العام بألف إنسان فى اليوم. وفى عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م انتشر الطاعون بمصر واستمر عدة أشهر، وكان فى كل يوم يموت ١٠٠٠ إنسان أيضاً، وفى عام ٤٥٧هـ بدأت فصول أخطر مجاعة شهدتها مصر وتخللتها أوبئة واستمرت لمدة سبع سنوات فيما عرف "بالشدة المستنصرية" نسبة إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، ويقدر البعض عدد الوفيات خلال وباء تلك الشدة بثلثى أهل مصر.، ثم اجتاح وباء الجدرى البلاد وراح ضحيته ٢١ ألف طفل فى شهر واحد، وفى خلافة المستعلى تعرضت البلاد لوباء شديد فى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٦-١٠٩٧م وكذلك فى عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩-١١٠٠م، وكلاهما أودى بحياة كثير من السكان، وفى خلافة الحافظ انتشر الوباء فى البلاد فيما بين سنتى ٥٣٦-٥٣٨هـ، وبلغ مداه فى عام ٥٣٧هـ/١١٤٢-١١٤٣م.

الأوبئة والمجاعات زمن سلاطين المماليك

وإذا كان الطب قد ترسخت جذوره فى تلك الفترة فإن ذلك لم يمنع حدوث العديد من الأوبئة والمجاعات التى أودت بحياة الآلاف من الشعب المصرى، وكانت فى بعض السنوات شديدة الوطأة امتدت آثارها السلبية إلى سنوات طويلة. وكما رأينا فإن هذه الأزمات لم تكن وليدة العصر ولكنها كانت أشد ضراوة وأعظم فتكاً من سابقتها وقد أفاض مؤرخو تلك الفترة فى ذكر أخبار الأوبئة والمجاعات التى عصفت بأبناء الشعب المصرى حتى أن البعض منهم أفرد كتباً بعينها للحديث عنها.

ومن أوائل هذه الأزمات ماحدث فى عام ٦٩٥هـ، حيث عم القحط المفرط الديار المصرية حتى أكلت الجيف وعظم الوباء ومات الخلق فى الطرق جوعاً وهلاكاً، كما عم الغلاء دمشق أيضاً ويقال إن جملة من مات بالقاهرة فى شهر صفر من ذلك العام أكثر من مائة ألف إنسان، كما هلكت القطط والحمير والكلاب.

واستمر تفشى الأوبئة على فترات متقطعة حتى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى. وفى النصف الثانى من هذا القرن اجتاحت مصر والقاهرة عاصفة من الأمراض والأوبئة، اجتاحت أمامها اليابس والأخضر، حتى بات الناس فى حيرة من أمرهم ووقفوا مستسلمين أمام سطوتها وجبروتها. ففى جمادى الأولى عام ٧٦٤هـ فشت الطواعين والأمراض فى الناس بالقاهرة ومصر عامة والوجه البحرى، وتزايد الخطب حتى بلغ فى شهر رجب عدد من يموت فى اليوم ثلاثة آلاف إنسان، واستمرت الأمراض إلى شهر رمضان، كما قدم الخبر بوقوع الوباء بدمشق وغزة وحلب وعامة بلاد الشام فهلك فيه خلائق كثيرة جداً.

وفى عام ٧٦٩هـ فشت الأمراض الحادة والطواعين بالناس فى القاهرة ومصر، فمات كل يوم ما ينيف على مائة ألف إنسان. ولم يكن الطاعون هو المسئول الوحيد عن موت الناس، بل وجدت أمراض أخرى كان لها نصيب كبير فى إزهاق العديد من الأرواح، ويأتى على رأسها الحميات بأنواعها. ويذكر المقريزى: "أنه فى شهر جمادى الآخر عام ٧٧٨هـ بدأت الأمراض بالحميات فى الناس واستمرت إلى آخر شعبان، فمات بسببها خلق كثير.

ومن خلال استعراض أخبار الأوبئة عند مؤرخى تلك الفترة، نجد أنهم كثيراً ما يطلقون لفظ (الوباء) فى كثير من الأحيان دون أن يذكروا اسم مرض بعينه إلا فيما ندر، فمثلاً يذكر المقريزى أنه فى: "شهر صفر عام ٧٨٣هـ فى سلطنة الصالح حاجى بن الملك الأشرف شعبان كثر الوباء بالقاهرة ومصر، وفى آخر ربيع الأول رفع الوباء، وأكثر من مات فيه من الأطفال". فمن رواية المقريزى علمنا بأمر الوباء، كما أخبرنا بأن غالبية الضحايا كانوا من الأطفال - وهذه ملاحظة تحسب له- بيد أن هذا يدفع إلى الاعتقاد بأن الوباء الذى ذكره المقريزى قد لا يكون بالضرورة (الطاعون) ولكنه مرض مما يصيب الأطفال مثل: (الجدرى، أو الحصبة، أو النزلات بأنواعها). وتعرضت الإسكندرية أكثر من غيرها من بلاد مصر للأوبئة نظراً لكثرة الواردين إليها، فمثلاً فى ربيع ثان من عام ٧٨٨هـ فى سلطنة الظاهر برقوق وقع الوباء بالإسكندرية، وقد تجاوز عدد من يموت فيها كل يوم مائة إنسان.

وتتابعت سنوات القحط والأزمات الصحية حتى كانت فترة تولى السلطان الناصر فرج بن برقوق السلطنة. حدثت فيها أقسى الأزمات وأشدها إيلاماً

وأفدحها خسارة، شملت عموم القطر المصرى، وكان لشدة أهوالها أن أطلق بعض المؤرخين على السلطان الناصر فرج أنه (أشأم ملوك الإسلام)، لما لحق البلاد من خراب وتعدد المجاعات والأوبئة فى زمانه.

وفى عام ٨٤٢هـ وقع وباء بالوجه البحرى أكثر من مرة حتى وصل القاهرة ومصر، وكان ذلك فى شهر شعبان، وفى ست من شوال من العام نفسه ظهر الطاعون بالقاهرة وبلغ عدد من مات فى هذا اليوم من ديوان المواريث واحداً وعشرين إنساناً وفى ذى الحجة عام ٨٤٧هـ بدأ الطاعون يجتاح القاهرة وظل يتصاعد خطره حتى بلغت ذروته فى صفر من عام ٨٤٨هـ، حيث تراوحت أعداد الوفيات مابين خمسمائة وألف إنسان فى اليوم الواحد، وكان أغلب الضحايا من الأطفال والعبيد والجوارى. ولم تكن الأوبئة مقصورة على الإنسان وحده، بل امتدت أيضاً إلى بعض أنواع الدواب، ففى سنة ٦٩١هـ حدث لجمال العسكر مرض سلت منه حتى ندر وجودها ولم يجد الأمراء من الجمال ما يحملون عليه أثقالهم فحملوها على البغال.

وفى عام ٧٠٣هـ كثر الموت فى الخيل فهلك منها ما لايحصى عدداً حتى خلت غالب اسطبلات الأمراء والجند وحصل الضرر بذلك.

والحق أنه على الرغم من تقدم المعارف الطبية فى تلك الفترة فإنها لم تستطع أن توقف هذا الخطر الداهم أو تحد من انتشاره، لذا وقف الناس أمامه عاجزين إلا من بعض محاولات فى تلمس طرق علاجية بتناول ما يوصف لهم من خضراوات وفاكهة مثل السفرجل والرمان الحامض والحلو والبطيخ الصيفى والقرع وخلافه.

وقد ذكر المقريزى فى أكثر موضع ارتفاع سعر الأدوية وقت حدوث الأوبئة، وإذا استعرضنا قوائمه التى ذكرها نجد أن معظمها فواكه وخضراوات ونباتات عطرية، الأمر الذى يؤكد على عدم وجود دواء رادع لهذا الوباء القاتل.

وقد تنبه مؤرخو العصور الوسطى لخطورة هذه الأوبئة ومدى قوتها وعصفها بالأرواح. فالبعض منهم اهتم بكيفية حدوث الوباء مثل ابن خلدون الذى يرى "أن فساد الهواء لكثرة العمران لما يخالطه من العفن والطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح، فيسرى الفساد إلى مزاجه فإذا كان الفساد قوياً وقع المرض فى الرئة وهذه هى الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة". أما البعض الآخر فتحدث عن ماهية الطاعون وأوصافه مثل ابن حجر

العسقلانى الذى يقول "الطاعون وزن فاعول من الطعن والآ (الجائحة) عن الموت العام بالوباء ويقال طعن فهو مطعون وطعين إذا أصابه الطاعون، وهو قرحة يبتلى الله بها من يشاء غالباً ما تخرج من الأباط كذلك فى الأيدى والأصابع، ويصاحبها ورم مؤلم جداً يخرج منه لهيب ويغير لون البدن الذى يحيط به ويحدث معه خفقان القلب والقىء".

الأوبئة والأزمات الصحية فى عهد العثمانيين

لم تتعرض مصر فى العهد العثمانى إلا لعدد قليل من الأمراض والأوبئة (من، حيث النوعية) وذلك بسبب اعتدال الطقس فيها. ولكن مع قلة هذه الأمراض إلا أنها وجدت فى مصر تربة خصبة لتوطنها وتأصلها حتى بدت كوحش ذى أنياب تنهش فى الأجساد، وتعصف بحياة المصريين كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً، أمراء، أو من عامة الشعب وذلك نتيجة لممارسة بعض العادات السيئة منها:

١) دفن قسم من الموتى فى جبانات توجد داخل المدينة.

٢) ترك البرك والمستنقعات التى تنحسر عنها المياه فى مواسم التحاريق وما تخلفه من عفونات وروائح كريهة.

٣) عدم مراعاة السقائين لضمائرهم عندما يجلبون الماء من الخليج رغم جفافه ووجود القاذورات فيه، ولم يجد سكان القاهرة بداً من قبوله.

ولهذا السبب كان المحتسب ومساعدوه يولون عناية فائقة للسقائين لارتباط هذه المهنة بالصحة العامة، فكان على السقائين نزول النهر بعيداً عن الشاطئ وعن الأماكن الملوثة لمتاخمتها للمراحيض، أو الحمامات ومساقى الحيوانات، كما كان ممنوعاً عليهم مع التهديد بالعقوبات الصارمة أن يخلطوا مياه الآبار بمياه النيل، وكذلك كان عليهم أن يجعلوا قربهم وجرارهم فى حالة نظافة تامة، وعدم استخدام القرب الجديدة لنقل مياه الشرب.

٤) عدم مراعاة أبسط قواعد النظافة العامة وانتشار المعتقدات الخاطئة، التى لا تتفق مع الإجراءات الصحية التى يجب الأخذ بها.

٥) ضحالة أجسام المصريين وقلما نجد منهم رجالاً ضخام الأجسام وأقوياء حتى الأغنياء منهم لا يتمتعون ببنية قوية، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل وعندما يصبحوا رجالاً فإن أقل ما يوصفون به أنهم رجال ممرضون.

ولعل أخطر هذه الأمراض ما يأتى على شكل وباء، الأمر الذى يودى ويعصف بحياة الكثير من المصريين، ويخلف وراءه آثاراً غاية فى الخطورة، ويأتى على رأس هذه الأمراض والأوبئة (الطاعون)، أو الموت الأسود. لذا سوف أتحدث عن سطوات حدوثه المتتابعة وآثاره المدمرة، والجهود اليسيرة التى بذلت وموقف الأهالى منه وقله حيلتهم تجاهه.

وباء الطاعون فى مصر زمن العثمانيين

كانت أولى نوبات الطاعون التى عصفت بأهل مصر زمن العثمانيين تلك التى حدثت زمن الوالى قاسم باشا ٩٣٠-٩٣١هـ وكانت شديدة الوطأة حتى أن بعض المؤرخين ذكر أن نصف أهل مصر هلك فيه.

وثانية نوبات هذا الوباء التى انتابت مصر عندما أصبحت ولاية عثمانية كانت عام ١٥٣٣م، وقد ذكر الرحالة الفرنسى جريفان أفاجار وهو من رجال الدين ويعتبر أول من زار مصر فى الفترة العثمانية أنه أثناء زيارته انتشر وباء الطاعون فسافر إلى دمياط ومنها إلى طرابلس وسوريا، لذا لم يمدنا بمعلومات كافية عن شدته ومدة بقائه وعدد ضحاياه بصورة تقريبية.

وفى عام ٩٥٠هـ حدث طاعون بمصر مات فيه الخليفة المتوكل العباسى وأهلك خلقاً كثيرة.

ويذكر أيضاً أصلان أبا أن مقر السلطنة تعرض للوباء فى عام ١٥٩٨م، ومات فيه داود أغا فى عام ١٥٩٩م أثناء حفره لأساسات المجمع الخيرى الذى كلفته به الملكة صفية أم السلطان محمد الثالث.

وفى مطلع القرن السابع عشر، أصاب مصر عدة طواعين كان أولها عام ١٦٠٢م والذى طالت فترة بقائه فى الأراضى المصرية ١٥ شهراً، كانت شديدة الوطأة على صدور المصريين، ثم طاعون عام ١٦٠٧م الذى يصفه أحمد جلبى بالفناء الذى لم ير مثله، ولم يسمع به، وكان على زمن على باشا الذى أمر بألا يكشف عن أحد الموتى الذين بلغ عددهم ألفاً فى اليوم الواحد، واستمر ٢٥ يوماً، ثم أعقب ذلك طاعون عام ١٦١٨م/١٠٢٧هـ زمن مصطفى باشا.

ومما تجدر ملاحظته أن ذروة الفترة الطاعونية الأكثر قسوة وتدميراً كانت عادة ما تستغرق من خمسة إلى ستة أسابيع تقع بين شهرى أبريل ومايو بصفة خاصة.

ويحدثنا أحمد جلبى عند ذكره ولاية جعفر باشا الذى قدم إلى مصر فى ٩ ربيع الأول ١٠٢٨هـ/١٦١٩م أنه أقام بمصر سبعة أشهر ونصف الشهر ووقع فى أيامه الطاعون العظيم الذى عم أقاليم مصر ويطلق عليه المصريون اسم (فصل جعفر)، وحصل منه الضرر الشديد الذى لم يعرف له مثيل، وقيل إنهم صلوا فى الجامع الأزهر فى اليوم على تسعمائة وخمسة وثلاثين إنساناً، ومكث الطاعون ثمانين يوماً. وتصرف جعفر باشا فى هذا الفناء العظيم بالإحسان على المصابين بما أوجب جبر قلوبهم وتخفيف أحزانهم.

وفى فترة تولى قرا حسين باشا نزل الطاعون أرض مصر، وظل من شهر ذى الحجة عام ١٠٢٩هـ حتى آخر جماد أول عام ١٠٣٠هـ/١٦٢١-١٦٢٢م، بلغت فيه الصلاة على الأموات بالجامع الأزهر ٦٠٠ نفس يومياً.

وعندما ولى بيرم باشا أول نواب السلطان مراد عام ١٠٣٥هـ اهتم بشئون التجارة، وكان وزيراً كبيراً عاقلاً محباً للعلماء، وفى زمنه جاء الفصل الكبير الذى سمى بفصل بيرم باشا، وقد أحصى عدد الوفيات فى دفتر بيت المال من الموتى ثلاثمائة ألف، ومنعوا النساء من الصياح خلف الأموات.

وبلغت من شدة وطأة الطاعون الذى حدث ١٠٥٣هـ أيام مقصود باشا أن وصفه أحمد جلبى بأنه الطاعون الذى لم يسمع بمثله فى زمن جعفر باشا وعلى باشا بحيث إن الجنائز صارت تمر فى الأسواق مثل قطار الجمال ومكث بمصر سبعة أشهر، ثم أخذ فى التراجع وسمى بفصل مقصود باشا. ويذكر أن سكان ٢٣٠ بلدة قد هلكوا، كما أن الوباء نال من الجنود منالاً عظيماً بحيث إن المرتبات والجوامك (جمع جمكية وهى هبات تمنح للجند) التى انحلت عن الأموات منهم وآلت إلى الخزينة بلغت مائتى ألف وسبعين بندقى (عملة ذهبية كانت متداولة وضربت فى مدينة البندقية وكان عيارها دقيقاً).

وأثناء ولاية محمد باشا أبو النور ١٠٦٣-١٠٦٦هـ، حدث بمصر طاعون فى عام ١٠٦٥هـ كثر فيه عدد الموتى بصورة كبيرة وسمى بفصل الحبش (نسبة إلى التجريدة التى أرسلها السلطان لقمع التمرد ببلاد الحبشة)، وقد توفى بهذا الفصل من العلماء الشيخ أحمد السويدى والشيخ على الأجهورى.

وفى عام ١٠٧٨هـ أثناء ولاية إبراهيم باشا البستنجى وقع بمصر طاعون لا يكاد يوصف وسمى فصل الموت الأصفر لأن الرجل، أو المرأة إذا أصيب بالطاعون كان يرتعش ويصفر لونه ويموت من ساعته وعند تولية إبراهيم باشا الوزير فى ١٣

محرم ١١٨١هـ تفشى الطاعون وسمى بفصل الحريق لأنه سبقه حريق فى سوق البارودية، وظل الطاعون من غرة شوال حتى آخر ذى الحجة من العام نفسه.

ونأتى إلى آخر طواعين القرن الـ١٧م، الذى وقع عام ١١٠٨هـ/١٦٩٦م فى عهد إسماعيل باشا الوزير ١١٠٧-١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م وقد وصف بأنه عظيم ومهول، حيث لم تر السنون مثل هذا الوباء، كما لا يشبهه ماحدث فى فصل مقصود باشا ولا فصل الحريق، حيث أمر الباشا لبيت مال الخاصة والعامة أن يغسلوا الفقراء ويكفنوهم، ثم يقيدوهم وبعد ذلك يدفنونهم، وبنى لهم مقابر عديدة يدفنون بها وتسمى مقابر الغرباء، فصار الناس يحملون الموتى من الأسواق والأزقة، ويأتون بهم إلى مغسل السلطان الذى بالرميلة إلى أن انقضى الفناء وصرف ٢٥ كيساً مصرياً على الأكفان والقطن، هذا عدا ما قام به الأكابر والتجار وأهل الخير، وقد سمى هذا الفصل بفصل الشحاذين وفصل الفناء وفصل الشراقى، ولم نسمع بفصل له ثلاثة أسماء.

وقد أطلق أندريه ريمون على ذلك الفصل لقب "الوباء العظيم"، وإن كان وضع له تاريخ ١٦٩٢م (أى قبل حدوثه بأربع سنوات، كما أنه ذكر أن الكفن الواحد ثمنه يتراوح بين ٢٠ و٢٥ كيساً وهذا أمر لا يعقل حتى فى أشد حالات الغلاء).

أما طواعين القرن الثامن عشر فكان أولها فى عام ١١٢٥هـ، ١٧١٤م أثناء ولاية ولى باشا ١١٢٣هـ/١١٢٦هـ- ١٧١١م/١٧١٤م، حيث وقع الطاعون بمصر وقراها إلى أن أفنى الخلق، وصار إذا مات الميت لم يجدوا له مغسلاً ولا عدة من كثرة الازدحام على الحوانيت، وسمى بفصل النار؛ ذلك أن النار اشتعلت فى الكيمان الذى بالمجاورين، وفتح الفصل بموت الشيخ أحمد النفراوى شيخ الأزهر فى ربيع ثان ١١٢٥هـ.

وعندما تولى على باشا الأزمرلى فى غرة ذى الحجة سنة ١١٢٩هـ، وعزل فى ذى القعدة سنة ١١٣٢هـ، اجتاح مصر طاعون قاس فى عام ١١٣٠هـ وعم القاهرة والأقاليم، وكثرت الوفيات فيه، وكان أغلب من مات فى هذا الطاعون من الشباب والصبيان والمخدرات، (العذاري من الصبايا) وأبرز من مات أثناء الوباء (عثمان بك بارم ذيله) و(إبراهيم بك أبو شنب).

وقد قدر قنصل فرنسا عدد ضحايا ذلك الوباء الذى حدث (١٧١٨م) فيما بين خمسة آلاف وستة آلاف يومياً فى أشد أوقات الوباء، وقدر العدد الإجمالى لمن توفوا بنحو ٣٠٠٠٠٠ حالة.

وفى غرة شعبان عام ١١٣٨هـ/١٧٢٥م ظهر الطاعون بمصر واجتاح كل بيت بالقاهرة حتى أن بعضها خلا تماماً من سكانه، وعظم الوباء حتى أن الرجل يكون ماشياً فيقع ويموت وأبرز من توفى فيه شيخ الإسلام والمسلمين العارف بالله (محمد الصغير المغربى). واستمر هذا الفصل إلى ٢٠ من رمضان من العام نفسه ولم تذكر حادثة وفاة بعد ذلك التاريخ.

وفى أثناء ولاية باكير باشا (١٤ شوال ١١٤٧- ٢٧ ذى الحجة ١١٤٩هـ / ٩ مارس ١٧٣٥-٢٨ أبريل ١٧٣٧م)، فشى الطاعون ابتداء من غرة رمضان عام ١١٤٨هـ/ ١٥ من يناير عام ١٧٣٥م، وكان يوافق ٧ من شهر طوبة القبطى وهو من أبرد شهور السنة، وهنا يجب أن نسجل تقديرنا للملاحظة الذكية للمؤرخ أحمد جلبى لأنه لم يكن يسرد الأحداث ويسجلها فقط دون فحص، أو تمحيص فقد استرعى انتباه مؤرخنا تفشى الطاعون فى جو قارس البرودة الأمر الذى لم يحدث قبل ذلك، لأن الظروف المناخية الملائمة لانتشار الطاعون هى الجو المعتدل لا الحرارة المفرطة ولا البرد الشديد، لذا نراه يقول: "وإن من عادة الطاعون بالديار المصرية فى الغريك، (فصل الخريف) وأنه يأتى خارج القرية وهذا أتى من داخلها فى كيهك فتعجب الخلق فى كون الوقت شتاء، ونلاحظ أيضاً أن أهالى مصر من كثرة ما أصابهم من نوبات هذا الوباء اللعين قد أجادوا معرفة أوقاته وظروف انتشاره، وقد ألم بالناس هم كبير من شدة ما قاسوه من هذا الفصل الذى أطلقوا عليه عدة أسماء منها (فصل الأكابر والكناس وكوت الشباب والحور والولدان). ويذكر أنه أعقب هذا الفصل فتنة مات فيها كثير من الأمراء.

وفى عام ١١٧١هـ، نزل مطر كثير سالت منه السيول، ثم أعقبه تفشى الطاعون وسمى بقارب شيحة (ولم يطلق عليه فصل) الذى أودى بحياة المليح والمليحة ومات فيه خلق كثير ما لا يحصى وكانت غايته فى رجب وشعبان.

ثم بدأ يتلاشى فى سنة ١١٧٢هـ، ويذكر أندريه ريمون أن عدد ضحايا هذا الوباء بلغ ٥٠٠٠ حالة يومياً، كان من بينهم عدد كبير من الأمراء والتجار وكانت تركاتهم سبباً فى إثراء الكثيرين.

وفى عام ١٢٠١هـ يذكر الجبرتى فصلاً يسمى فصل البحر وصفه بقوله: "ومن حوادث هذه الأيام وقوع الموت الذريع فى الأبقار حتى صارت تتساقط فى الطرقات وغيطان المرعى" إلا أنه لم يذكر أى حالات وفاة بين الأهالى، وعندما تحدث عن طاعون لاحق أخذ يقارنه بطاعون فصل البقر.

وقد أوضح أندريه ريمون نقلاً عن فولتى (أحد الرحالة الفرنسيين) أن عدد ضحايا هذا الطاعون قدر بنحو ١٥٠٠ حالة يومياً.

وفى شهر رجب من عام ١٢٠٥هـ وقع آخر طواعين القرن الـ١٨ الميلادى، وامتد إلى شهر شعبان من العام نفسه، وحصد أثناء وقوعه أرواح ما لا يحصى من الأطفال والشباب والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء ومن أمراء الألوف (السناجق) نحو اثنى عشر سنجقاً، ولا تجد إلا مريضاً، أو ميتاً، أو عائداً، أو معزياً، أو مشيعاً، أو راجعاً من صلاة جنازة، أو دفن، أو مشغولاً بتجهيز ميت. وقد قدر فولتى عدد ضحايا هذا الفصل فيما بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ حالة يومياً.

وفى بداية القرن التاسع عشر وأثناء وجود الحملة الفرنسية هاجم الطاعون مصر فى عام ١٨٠١م وفقدت فيه القاهرة من ثلاثمائة إلى أربعمائة إنسان فى اليوم، وفى أحد الأيام أثناء تفشى الوباء بلغت وفيات الجند الفرنسيين ثمانين جندياً.

أنواع الطواعين

لم تكن نوبات الطواعين التى هاجمت فى شراسة الشعب المصرى على نمط واحد، ولكن استطاع الأطباء وواضعو المخطوطات الطبية أن يلاحظوا ثلاثة أنواع لهذا المرض طبقاً لما يصيبه من أجزاء الجسم، وهى:

١) الطاعون الغددى: ويتجلى على شكل أورام فى المواضع الرخوة والمغابن من البدن خصوصاً تحت الإبط، أو خلف الأذن، أو عند الأرنبة ويصاحبه القئ والغيبوبة والخفقان، أو يحيط بالورم، أو البشرة ما كان لونه إلى السواد، أو الحمرة، أو الصفرة، أو الاخضرار وأشدها فتكاً ماكان يحيط بالورم من لون أسود.

٢) الطاعون الرئوى: وينبثق عن فساد الهوى وتعكر المياه، الأمر الذى يؤدى إلى فساد النبات والغذاء ومن ثم تتأثر الأبدان وتصاب بالمرض.

٣) الطاعون التسممى: وهو لا ينتج عنه أى أورام، أو طفح جلدى ولكن المطعون يصاب بحرارة شديدة وقلق واضطراب "كالمجنون والسكران" فيتعرض للهلاك السريع حتى يظن أنه الفجأة، أو السكتة، ويغلب على المصاب القئ والخفقان فيموت بلا علامة أخرى.

وبين أيدينا وصف للطاعون من أوائل القرن السادس عشر الميلادى جاء فيه "صورة الطاعون فى شئ مستدير ينزف الدم والصديد وشره ما فى الإبط لمجاورته للقلب فالفخذ الأيمن فالإبط الأيمن فالفخذ الأيسر فالعنق".

أما فى بداية القرن الـ١٩ فيذكر الجبرتى أعراض الطاعون بقوله: "لم يكن للمريض حرارة مرتفعة بل يكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيدثر فلا يفيق إلا مخلطاً (يهذى) فيموت فى نهاره، أو ثانى يوم.

ومنذ بدايات العصر العثمانى أدرك المهتمون بالحالة الصحية مدى القصور الذى أصاب الإجراءات الطبية لمواجهة الطاعون يفرد أحمد البدليسى إلى: "أن الأطباء لم يذكروا فى الكتب إلا الحميات الوبائية، ولم يفرد أحد منهم أى باب مستقل يخصصه للحديث عن الطاعون إلا قليلاً منهم، لأن أسباب حدوثها وعلاماتها وأعراضها غير مضبوطة وأكثرها لا يتحدد بالقواعد المذكورة فى الحميات الوبائية التى تختلف فيها التدابير الطبية عن تلك التى يجب مراعاتها لمريض الطاعون، ولما كانت الأسباب خفية، لذا فقد أعرض الأطباء عن ذكر الطاعون".

الموقع الجغرافى والطاعون

كانت مصر من أكثر دول العالم القديم ابتلاء بالطاعون، نظراً لموقعها الجغرافى الفريد وتوسطها بين بلدان العالم الذى هيأ لها القيام بدور الوسيط التجارى بين الدول، وتسهيل مرور التجارة من الشرق إلى الغرب والعكس. وإذا كان هذا الموقع سبباً فى عظمة مصر وثرائها، لكن لم يكن هناك نظم للحجر الصحى يؤخذ بها، أو يعول عليها، أو صارت ذات فاعلية، ومن ثم كان موقعها هذا بمثابة نقمة عليها، لذا فقد تسلل الوباء الواحد تلو الآخر عبر المنافذ التجارية وبصفة خاصة الإسكندرية، التى تعرضت أكثر من غيرها لويلات هذا الوباء اللعين. ولكن يجب أن نوضح أن الطاعون وجد فى البلاد المصرية تربة خصبة ساعدت كثيراً فى انتشاره بل وتوطنه حتى أخذ تلك الصور البشعة التى ظهر عليها بمصر فى عالم العصور الوسطى والحديثة.

وقد ارتبط الطاعون إلى حد كبير بالمجاعات التى غالباً ما كانت تحدث بسبب عدم وفاء النيل، سواء كان ذلك فى العصر العثمانى، أو ما سبقه من عصور، وأعتقد أن مرد هذا الارتباط يعود إلى نقص الأقوات من حبوب وخلافه ويؤدى ذلك إلى خروج أعداد هائلة من الجرذان هائمة للبحث عن الغذاء، وهى ملوثة بالميكروب.

فإذا أضفنا إلى ما سبق ضيق الحارات وقذارتها والتصاق المساكن والدور

ببعضها البعض فلنا أن نتخيل سرعة استشراء هذا الوباء وعصفه بالأهالى بلا رحمة، أو هوادة.

ولم تكن مصر وحدها نهباً لهذا الوباء قديماً، أو أثناء الفترة العثمانية وإنما أصاب مناطق أخرى من العالم؛ فعلى سبيل المثال انتشر فى عام ١٦٦٥م وباء فتاك فى لندن أباد آلافاً مؤلفة من سكانها يقدرون بنحو ١٠٠٠٠٠ حالة، وابتدأ هذا الوباء فى سبتمبر من ذلك العام، ولم يكن هناك غير مستشفى واحد للطاعون فى لندن انحصرت مهامه فى إغلاق أبواب المنازل ورسم الصليب الأحمر عليها، وتعيين حارس يمنع احتكاك السكان بالناس خارجه لمدة أربعة أسابيع، وتوقفت الحياة فى لندن تماماً وأصبحت بلا مواصلات ولا بيع ولا شراء وأقفرت الشوارع حتى من المشعوذين إلى أن شب حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦م فتقهقر الوباء وتراجع المرض. وقد ذكر شكسبير هذا الوباء، وكتب عن قناصى الجرذان الذين كانوا يعدون أنفسهم فنانين ويعاملون على أنهم من كبار رجال الدولة المرموقين، إلا أن الجميع قد مات .. مات ابن الشارع، كما مات ابن الطبيب ومات معهم قناصو الجرذان إلى أن رحل الفناء فى خريف ١٦٦٦م.

أما فى ألمانيا فقد توفى أكثر من ٣٠,٠٠٠ من سكان المدن فيما بين سنتى ١٥٦٣-١٥٦٦م، وفى إيطاليا بلغ عدد الضحايا نحو مليون؛ لقوا حتفهم متأثرين بالطاعون فيما بين ١٦٣٠-١٦٣١م.

كيفية مواجهة الطاعون

وقف المصريون حيال سطوة وباء الطاعون - ذلك المجهول الرهيب - موقف العاجزين الحيارى، وكانت روح الاستسلام والتسليم المطلق بفكرة القدر والمكتوب هى السائدة فى ذلك الوقت، الأمر الذى أعاق مقاومتهم له والحد من خطورته، وساعد على ذلك بالطبع عجز الطب وتأخره وعدم تلبيته لحاجة المجتمع.

ولم يلتفت المصريون إلى ما يفعله الأوروبيون فى القاهرة عندما يداهمها الطاعون فقد كانوا يتبعون أبسط القواعد الصحية، وهى أن بعضهم كانوا يعتزلون الأهالى، ويغلقون عليهم أماكن وجودهم طيلة مدة الوباء، والبعض الآخر كان ينأى بنفسه ويغادر المدينة إلى أماكن خلوية بعيد.

وقد استعملت ثمار النارنج كدواء لمواجهة الطاعون، كما كانت هناك وصفات توصى باستعمال أنواع من العطور والرياحين بأن يدهن جسم المريض بأنواع

منها، ويعزو البعض اختراع تركيب ماء الكولونيا إلى وجود الطاعون، أما المسك والعنبر فكانا وقفاً على الملوك، كما كان السكر يستعمل بكثرة منذ أيام المماليك كعلاج مخفف للطاعون.

وفى أوروبا كان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة، (دودة كانت توضع علي الجسم وتمتص الدماء) ووصف بعض مشاهير الأطباء علاجاً للطاعون كان قوامه (الضفادع المجففة تخلط فى كيس يعلق على صدر المريض كمصيدة، يمتص بها الهواء الفاسد المحيط بالجسم فى المناطق المصابة بالطاعون).

الجـدرى:

يأتى بعد الطاعون من، حيث القوة التدميرية وإزهاقه العديد من الأرواح، ومرض الجدرى كان منتشراً بصورة بشعة فى مصر العثمانية، بل كان أكثر شيوعاً من الطاعون،، وكان هذا المرض يصيب الكبار والصغار، إذ لم يكن له عمر بعينه، إلا أنه كان أشد فتكاً فى الأطفال لعدم قدرتهم على مقاومته، أما بالنسبة للكبار فغالباً ماكان المريض يشفى منه بعد أن يترك على بشرته ندوباً عميقة تميل إلى السواد.

وكان قوام علاج الجدرى فى مصر السكر والعسل اللذين يعطيان للمريض لمدة ستة أيام، وفى اليوم السابع يعطى سمكاً مملحاً. ولا يأخذ المريض مسهلاً قط ويمنع حتى من غسل عينيه ولو امتلأت بالبقبح (البثور والصديد) وانطبقت جفونه على بعضها البعض، وأكد الرحالة فولتى أن مرضى الجدرى يعالجون فى مصر بطرق سيئة للغاية.

أمراض العيون

تأتى فى المرتبة الثالثة من حيث شيوعها بين المصريين وهذا ليس بغريب على مدينة مثل القاهرة -التى قيل عنها إن آفاتها التراب- أن يشاهد ربع سكانها على الأقل يسيرون وهم معصوبو الأعين من جراء إصابتهم بالرمد الذى يأتى على رأس قائمة أمراض العيون ترجع أهم أسبابه إلى الاختلاف الشديد بين درجات الحرارة.

ويقول داوود الأنطاكى عن الرمد: "الرمد بصورة عامة من أمراض الطبقة الملتحمة - هى غشاء رقيق يغطى العين ويبطن الجفنين من الداخل - والرمد

من أكثر أمراض العين شيوعاً ومن أعراضه العامة، وجع العين واحمرار الجفن والإحساس بوخز عند غلق العين وفتحها.

وهناك أنواع مختلفة لالتهابات العين... أولها يسمى "السلامة" وهو التهاب يبدأ عادة فى مآقى العين، ثم ينتشر إلى الملحمة مسبباً التهاباً، ومن أعراض المرض حمرة العين وغلظها (ورمها)... وهناك التهاب أخر وهو يصيب القرنية بجانب إصابته للطبقة الملتحمة من العين. ويسمى هذا النوع "السيل" ويظهر فى العين وكأن هناك غباراً منثوراً بين الملتحمة والقرنية (السوداء فى العين) وهو يضعف من البصر والرؤية وتبدو حدقة العين وقد امتلأت عروقاً من الدم... وهناك نوع آخر من الالتهابات التى تصيب العين ما يعرف باسم (الجرب) ومن علاماته ثقل الجفن وقلة حركته وحرارة العين.

ومن الوصفات الشعبية التى وصفها صاحب التذكرة "يستخدم عصير الكزبرة ممزوجاً مع بياض بيضة فى تضميد العين المصابة به وهذا العلاج يلين صلابة العين ويبرد حرارتها"...، أو "يستخدم ماء الحصرم بتقطيره فى العين المصابة، ثم تضمد العين بعد ذلك بمزيج من شحم الرمان ويحضر من عصير الرمان وملح الدهن وعصارة الرجلة والعدس المطبوخ.

ويعزو كلوت بك أمراض العيون وبصفة خاصة الرمد إلى رياح الخماسين التى تهب على مصر فى بدايات فصل الربيع بما تحمله من أتربة ومواد عالقة. ولعل أسباب انتشار هذا المرض وتدهور حالة مريضه ترجع إلى إهمال الأهالى وعدم الأخذ بمبدأ الحيطة والحذر عندما يصابون به، فيراهم يبيتون فى الهواء الطلق حتى تساعد الرطوبة وبرودة الجو فى تكوين التقيحات التى تسبق علل العيون وفقدان البصر.

الإسهال بأنواعه (الدوسنتاريا)

هذا المرض وإن كان أقل بشاعة من الطاعون إلا أنه لا يقل ضراوة وفتكاً بأرواح المصريين، ولعل أقل وصف لهذا المرض أنه مصرى الطابع فأسباب حدوثه تعود إلى أنماط غذائية مصرية سيئة ورديئة مع عدم قدرة أجسامهم لبنيتها الضعيفة على الوقاية من الميكروبات والطفيليات المسببة لهذا المرض. وأكثر الإصابات كانت فى الأطفال الذين لم تستطع أجسامهم النحيلة أن تتحمل آثاره، فينجم عن ذلك وفيات كثيرة منهم.

ويعرف صاحب التذكرة الإسهال بقوله "الاسهال هو حالة استفراغ للبطن وهو قد يكون طبيعياً أى دون أن يصاحبه حمى، أو وجع، أما إذا صاحبه دم فهو الدوسنتاريا التى تكون كبدية، أو معوية ويكون مصحوباً بدم... وكلمة دوسنتاريا يونانية الأصل... وهناك من يعتقد أن الإسهال من أمراض الأمعاء ومن أسبابها العامة تعاطى الحريفات مثل الثوم والخردل وكثرة التخمة بالبطن، أما أسبابها الخاصة فترجع لضعف الكبد، ومن علامات الدوسنتاريا أيضاً بياض الشفة وصفرة البدن وخفقان القلب.

ولعلاج الإسهال ينصح بـ" شرب مزيج من نصف أوقية بذر رجلة وينسون وكسبرة ناشفة بعد غليها فى الماء ويضاف إليه العنبر".

وعن بعض أمراض هذه الفترة يذكر الجبرتى توثيق: "أنه فى منتصف شهر رجب ١١٩٣هـ ظهر بمصر وضواحيها مرض أطلقوا عليه "أبا الركب" وفشا فى الناس لاسيما الأطفال وهو عبارة عن حمى تستمر شدتها ثلاثة أيام، وقد تزيد على ذلك، أو تنقص بحسب اختلاف الأمزجة والأجواء، وتحدث وجعاً فى المفاصل والركب والأطراف ويوقف حركة الأصابع وتحدث بعض الأورام، ويبقى أثرها أكثر من شهر وتأتى الشخص على غفلة فتسخن البدن وتضرب على الإنسان دماغه وركبه".(تأتي هذه الحمى مصاحبة لصداع شديد في الرأس وآلام في الركب)

كما كانت الحصبة مرضاً مميتاً فى تلك الفترة، فيذكر الجبرتى فى حوادث عام ١١٩٢هـ: "أن الوجيه المبجل عبد السلام أفندى بن أحمد الأزر المدرس بالمدرسة المحمودية، وكان شغوفاً بالرياضيات واقتنى آلات فلكية أنه مات بعد أن تعلل بالحصبة أياماً فى ٦ من جماد أول عام ١١٩٢هـ".

الجــــذام

أو مرض لازار، كما يطلق عليه، ويقال إن مواطنه بلاد الحبشة وما جاورها من بلدان شرق قارة أفريقيا بل إنها مازالت موطن الداء ومورثه حتى يومنا هذا، وتعتبر مصر هى الوسيط الذى نقل هذا المرض من الحبشة إلى سائر بلدان العالم بعدما تاجر فراعنة مصر مع هذه البلاد فانتقل من حركة تداول البضائع ذلك المرض اللعين. ومعبد حتشبسوت بالدير البحرى يخطط بإحدى تصاويره الجدارية هذه الحقبة التاريخية، وكان أكثر المصابين به فى مصر اليهود الذين فشا فيهم بطريقة جعلتهم يخافون منه وكانوا يطلقون عليه البرص، ولم تصف

كتبهم مرضاً من، حيث الأعراض وطرق الوقاية والعلاج مثلما فعلت مع الجذام، ويبدو أنه كان سبباً فى عزلتهم فى المجتمعات التى يسكنون بها، وعن طريق اليهود وصل المرض إلى أرض الكنعانيين وإلى جزيرة العرب، حيث عرفه العرب لأول مرة وعرفوا أنه مرض خطير صاحبه منبوذ لابد أن يحذره الناس، وقد انعكس هذا فى أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "عن الجذام، ولعل الحديث الشريف: "فر من المجذوم فرارك من الأسد"، أصدق دليل على هذا القول، وفى حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح، أو رمحين". والجذام له صورتان إحداهما صورة الجذام الدرنى الذى يتشكل على هيئة درنات فى الجلد ظاهرة ملموسة فى الوجه واليدين. والصورة الأخرى هى الجذام العصبى الذى يتلون فيه الجلد، ويبهت مع فقدان الإحساس فى المناطق المصابة. وقد عرف هذا المرض فى أوروبا والهند وكانت سنوات ازدهاره فى العصور الوسطى.

الأمراض والأوبئة فى القرن التاسع عشر

سارت الأمور فى بدايات القرن التاسع عشر كسابق عهدها فى القرون السابقة، من، حيث بقاء مصادر التلوث التى كان لها سبب مباشر فى انتشار الأمراض وحدوث الأوبئة، ويذكر الجبرتى فى حوادث عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م ما نصه: "فى يوم الأربعاء ٢٨ من جمادى الأولى الموافق الثامن من مسرى القبطى: أوفى النيل وركب الباشا فى صبيحة يوم الخميس إلى قنطرة السد بحضور القاضى والسيد عمر مكرم النقيب وكسر الحاجز بحضرتهم وجرى الماء فى الخليج جريانا ضعيفاً بسبب علو أرضه وعدم تنظيفه من الأتربة المتراكمة فيه".

هذا بالإضافة إلى السلوكيات الصحية الخاطئة التى عادت لتمارس بعد خروج الحملة الفرنسية التى كانت قد أرست بعض القواعد الصحية أثناء وجودها بمصر (مثل عادات دفن الموتى، والسكنى فى الحارات الضيقة المتربة، وعدم تعرض الأمتعة والأثاث لأشعة الشمس وغيرها).

ومنذ بداية القرن حدثت عدة أوبئة اجتاحت مدن مصر، بيد أنها لحسن الحظ لم تكن بتلك الضراوة السابقة، كما أنه ولأول مرة اتخذت عدة إجراءات وقائية حدت من قوتها وانتشارها على الرغم من بساطتها وبدائيتها ولعل أول إشارة إلى وجود أوبئة حتى ذلك القرن لم نجدها فى القطر المصرى بل وردت من بلاط السلطان العثمانى، ففى ذى الحجة عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م وقع

الطاعون بديار السلطنة، فأشار الحكماء على الباشا بعمل حجر صحى بمدينة الإسكندرية، مثلما يفعل الأجانب، ولا يدع أحدا من المسافرين الواردين فى المراكب من هناك يدخل إلى أرض مصر إلا بعد مضى أربعين يوماً من وصوله وإذا مات أحد بالمركب تضاعف المدة إلى ثمانين يوماً.

وفى العام التالى ١٢٢٨هـ/١٨١٣م زاد الخوف من الطاعون فاتخذت إجراءات صحية فى رشيد ودمياط والبرلس وأمر محمد على كاشف البحيرة بمنع المسافرين بالبر، وكان من طرق مواجهة الطاعون الأمر بقراءة صحيح البخارى بالأزهر وبالمساجد والزوايا وكذلك قراءة سورتى الملك والأحقاف فى كل ليلة بنية رفع الوباء لمدة ثلاثة أيام.

وقد طبقت الإجراءات الوقائية بكل صرامة ولم يستثن منها أحد فيذكر أن "إبراهيم بك ابن الوالى كان قادماً من قبلى ليلبس الخلعة بتوليته على الصعيد فأقام عند والده بشبرا ثلاث ليال، ثم سافر عن طريق الجيزة، وعندما وصل إلى البر أمر بتغريق السفينة التى أقلته بما فيها من الفرش، ثم أخرجوها، وكذلك أمر من معه من الرجال بالغطس فى الماء وغسل ثيابهم، كل ذلك خوفاً من رائحة الطاعون وتطهيراً وهروباً من الموت".

وفى العام نفسه تقرر فرض الحجر الصحى على الجيزة لمدة شهرين (رجب وشعبان) ومنع الدخول والخروج منها، وفضل كثير من أهلها الخروج قبل الحجر والإقامة فى الأراضى الفضاء حولها، أما من بقى فيها فقد تعرض لأذى شديد خاصة من جانب الجنود الذين استغلوا الموقف، وصاروا يبيعون للأهالى ما يحتاجونه بأضعاف ثمنها.

وفى عام ١٢٢٩هـ/١٨١٤م حدثت إصابات بالطاعون ونودى بعمل حجر صحى على الجيزة، "وسافر إبراهيم باشا إلى أسيوط وذهب بصحبته أخوه إسماعيل باشا والبيكات الصغار خوفاً وهرباً من الطاعون".

ورغم الإجراءات الوقائية التى كانت تتم فإن الإصابات بالطاعون سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م كانت كثيرة، والبعض منها مفجع ومؤلم.. يقول الجبرتى: "ومات فى هذا العام(١٣) المقر (إحدي الرتب العالية للأمراء) الكريم المخدوم أحمد باشا الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد على باشا ملك الأقاليم المصرية الحجازية والثغور وما أضيف إليها بعدما تمرض بالطاعون وتململ (تألم وتأوه) نحو عشر ساعات وقضى نحبه وذلك ليلة الأحد السابع من شهر ذى

القعدة وحضرة خليل أفندى قللى حاكم رشيد، وعندما خرجت روحه انتفخ جسده وتغير لونه إلى الزرقة فغسلوه وكفنوه ووضعوه فى صندوق من الخشب".

ومات أيضاً حسن أغا حاكم بندر السويس مصاباً بالطاعون فى العام نفسه وولى الباشا بدلاً منه السيد أحمد الملا الترجمان.

ويبدو أنه فى عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م لم تكن هناك إجراءات طبية حاسمة لمواجهة الطاعون فقد ظل الأمر مقصوراً على عمل الحجر الصحى، وعدم الخروج من الدور وعدم المخالطة، أو الملامسة والتباعد وتبخير الأرواق والمجالس وقراءة صحيح البخارى وسورتى الملك والأحقاف لرفع الوباء.

وأول إشارة لاستخدام طرق طبية حديثة لمواجهة الأوبئة والأمراض جاءت بتوصية من كلوت بك الذى قرر أنه لا مناص من استعمال التطعيمات للحد من انتشار الأمراض والأوبئة، وأول مرض ابتدأ به كان الجدرى الذى لاحظ مدى انتشاره فى القطر المصرى لدرجة أنه كان يودى بحياة نحو ٦٠ ألفاً من الأطفال فى كل عام.

وقد نفذت هذه الإجراءات بكل صراحة ويتضح هذا من الأمر الصادر من حكمباشى ديوان تفتيش الصحة إلى مأمور قسم مصر القديمة لضبط والد الطفلة (زينب بنت عيد) والتى توفيت وعمرها عام ونصف العام بعد إصابتها بالجدرى. وعندما حضر والد الطفلة إلى مقر شياخة منصور بفم الخليج تم سؤاله عن شهادات التطعيم ضد الجدرى فأفاد أنها لم تطعم وحرر محضر بذلك.

وكان يتم التنبيه على مشايخ الأحياء بالمناداة فى الشوارع والعطف وبصفة خاصة أحياء الأزبكية وباب الشعرية وعابدين، وكان على الأهالى التوجه بأطفالهم إلى المستشفى الملكية بالأزبكية للقيام بالتطعيم ضد الجدرى. ورغم هذه الإجراءات الصارمة، فقد اشتكى حكيمباشى تطعيم الجدرى من عدم حضور الأهالى وقلة عدد الأطفال.

وما إن بدأ المصريون يتنفسون الصعداء من هجمات الطاعون الشرسة، حتى أتاهم وباء لا يقل ضراوة، أو قسوة عن سابقه وأعنى به وباء الكوليرا.

الكوليرا (الهيضة)

لم يعرف هذا الوباء على النطاق العالمى إلا بعد عام ١٨١٧م بعدما تقدمت وسائل الانتقال واختصرت المسافات والأزمان، لأن فترة حضانة هذا الميكروب

خمسة أيام فقط، لذلك كانت فترات الحجر الصحى للقادمين من أماكن موبوءة بهذا المرض تتعدى خمسة أيام.

وشهد عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠ م أول ظهور لوباء الكوليرا بمصر، وتصدى له كلوت بك هو وتلاميذه، حيث قام بجهود مضنية لمكافحة هذا الوباء، حتى أن محمد على أنعم عليه فى هذا العام برتبة البكوية، فصار يعرف من وقتها "كلوت بك" وفى العام التالى ازداد تفشى الكوليرا بمصر، وكان قد انتقل إليها عن طريق الحجاج الذين انتقلت إليهم بدورهم من حجاج الهند. وأقلق هذا الوباء محمد على، حيث أثر على تجهيزاته الحربية، لذا بدأ فى البحث عن وسيلة فعالة لمقاومة هذا الوباء، وأستمع إلى مشورة "المسيوسيمو" قنصل فرنسا العام بإنشاء إدارة صحية تختص بهذا الأمر وتقوم بشئونه، فكلف محمد على مجموعة من الأطباء الأجانب ببحث هذا الأمر، فقاموا بتكوين إدارة للازمة وألحقت بالإدارة المحلية وكان رئيس هذه الإدارة مكلفا باختبار الأطباء ولأهمية هذه الإدارة أرسل القناصل مندوبين عنهم لحضور جلساتها ودعم رسالتها وتقويتها.

وكان محمد على سريعاً فى اتخاذ ما يلزم من إجراءات عند سماعه بظهور مقدمات لهذا الوباء ففى غرة رجب ١٢٥٣هـ أصدر أمراً إلى ديوان خديو جاء فيه: «أنه صار مسموعاً ظهور الكوليرا هذا المساء بالقطر المصرى فالمرجو إزالة ذلك قريباً فينبغى المبادرة بالقيام فى الكورتينات على الجهات عموماً وبالأخص فى محلات التلاميذ والعسكرية بكل دقة".

ومن أوائل قرارات هذه الإدارة إنشاء (القازاريتان) وبالإيطالى (لازارتى) (Lazzaretti) وحرفها الأهالى إلى (مازاريطا)، ثم إلى الأزاريطة أحد أحياء الإسكندرية، وهى فى الغالب أماكن للعزل وذلك فى كل من الإسكندرية ودمياط والعريش والسويس، وأكبرها كانت الإسكندرية، وكانت تسع من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ شخص، ويشرف عليها طبيب ومساعدون، كما كان بها أماكن للبضائع المراد تطهيرها قبل دخولها إلى البلاد.، كما حددت سلطات كل ميناء مدة لكل سفينة لوقوفها فى البحر قبل الدخول، ثم تعود إلى مكان قدومها، فإذا كان مقدمها من بلاد ليس بها المرض كانت تقف خمسة أيام، أما إذا كانت بلادا موبوءة تظل لمدة عشرة أيام مع إجبارها على تنزيل ركابها وبضائعها فى المزاريطا.

وكـان وبـاء على ١٢٦١هـ/١٨٤٦م ثانى أخطر وبـاء ينتـقل للديار المصـرية عن طريق الحجاج والذين نقلوه أيضاً إلى استانبول.

ولعل أخطر نوبات هـذا الوباء مـا حـدث فى الحـجـاز عـام ١٢٨٠هـ/١٨٦٥م، حيث لم ير مثله من قبل واستمـر فتكا من ٢٦ مـارس حتى ٢٤ إبريل من ذلك العام، وراح ضحيته عدد مهول غير محدد على وجه الدقة، وإن كانت هناك تقديرات بأن عدد حالات الوفاة تراوحت ما بين خمسة عشر وثلاثين ألف حالة. وحمل الحجاج العائدون معهم ميكروب الكوليرا إلى السويس، وبناء على تقرير كاذب من ربان السفينة القادمة إلى السويس منحت وثيقة صحية نظيفة، وكان ذلك القبطان يلقى بجثث الموتى فى البحر، وبعد يومين من رسو السفينة فى السويس بدأت الكوليرا فى الانتشار هناك، ثم جاءت سفن الحجاج وتم نقلهم بالقطارات إلى الإسكندرية، فانتشرت الكوليرا بها فى اليوم الثانى من يونيو ١٨٦٥م، وراح ستون ألف مصرى ضحية هذا الوباء واستمرت الكوليرا فى مصر ثلاثة أشهر، ثم انتقلت إلى الأناضول وأوروبا وأمريكا، ثم خمدت فى عام ١٨٧٤م.

وكـــان من أهم النتــائج التى ترتبت على وباء ١٨٦٥م أن أرسلت الحكومــة المصرية إلى الحجاز بعثه طبية تحت رئاسة د. "حسنى هاشم بك" مكونة من صيدلى وكاتب وممرض وحراس، وتحركت البعثة من السويس فسلكت طريق بر العجم وأجرت مسحاً طبياً لسواكن مصوع اتحاد اليمن، ثم وصلت إلى جدة فقامت بفحص السفن والقوارب والأفراد المترددين على جدة، واستحدثت أسلوب وضع شهادة خلو من المرض فى أيدى الأصحاء، وأجاز خالد أفندى كبير الجراحين العسكريين للمدفعية النظامية فى جدة ذلك الأسلوب، وبذلك تسنى وضع الجانب البحرى تحت السيطرة الصحية.

والحق أن البعثة الطبية المصرية قد ساعدت إلى حد كبير فى مواجهة ما يحمله حجاج عام ١٨٦٧م من أوبئة بما بذلته من جهد فى عمل الإجراءات الوقائية، وقد أفادت إلى حد كبير البعثة الطبية العثمانية. واقترح رئيس مجلس الصحة المصرى عدة إجراءات للوقاية من الأوبئة، وهى إن كانت صعبة التنفيذ، فقد وافق مجلس الصحة المختلط (عثمانى - مصرى) على قبولها وإعطائها فرصة للتطبيق فى العام ذاته "وبناء على ذلك تقرر إرسال أطباء مصريين إلى جدة ومكة وينبع والمخا لوضعها تحت الإشراف الطبى" ويبدو أن هذه الهيمنة

الطبيـة المصرية لم ترق للدكتـور "بيحسنشين" مندوب الحكومة العثمـانيـة فى المجلس الصحى بمصر، فبعث إلى وزير الخارجية العثمانى تقريراً قال فيه "إن إحالة الإدارة الصحية بولاية الحجاز إلى مصر تعنى من الناحية السياسية أن السلطنة السنية العلية قد تخلت عن حقوقها فى الولاية المذكورة" فأثار هذا التقرير اهتمام وزير الخارجية فأحاله إلى وزارة الصحة لدراسته فشكلت لجنة لهذا الغرض بحثت الموضوع، وأقرت بأنه لا يحق للجانب المصرى إرسال أطباء إلى تلك المناطق غير الواقعة داخل حدود مصر.

وفى عام ١٨٩١م اتخذت الإدارة المصرية قراراً بانتظار الحجاج بمحجر طور سيناء لدى عبورهم قناة السويس بسبب انتشار وباء الكوليرا، ولكنها لم تستطع تقديم أى خدمات لهم لكثرة العدد وطول المدة التى كانوا سيمكثونها.

وقبل أن ينتهى القرن التاسع عشر اجتاح مصر وباء قوى عام ١٨٩٥م، وقد بدأ من قرية صغيرة من قرى أسيوط تسمى (موشى) كان يستقى الناس فيها الماء من بئر قريبة من مراحيض المسجد، لهذا رشح الماء الملوث حتى اختلط بماء الشرب. وقد قيل أيضاً إن السبب راجع لأحد الحجاج الذين أحضروا معهم عدة زجاجات من ماء زمزم فأراد أن ينقل البركة إلى أهل قريته فصب تلك الزجاجات بالبئر فصادف أن ما معه كان ملوثاً فأصيب أهل القرية بالوباء ومات منهم عدد كبير، مما ألهب صدر الشاعر الكبير على الجارم فصاغ شعراً يخلد تلك المأساة التى عاشتها مصرفى تلك الفترة.

وعندما وردت الأخبار بظهور وباء الكوليرا بصعيد مصر، بدأت العاصمة فى اتخاذ إجراءات وقائية، فصدر القرار بتشكيل لجنة صحية بمدينة القاهرة فى ١١ مايو عام ١٨٩٥م، وذلك لاتخاذ الاحتياطات والتدابير الاستثنائية لمواجهة هذا الوباء وبناء على ما عرضته هذه اللجنة تقرر ما هو آت:

تعيين حضرات الأطباء المبينة أسماؤهم بعد بصفة أعضاء فى اللجنة المذكورة:

١ - جناب الدكتور ويليام جراهم بك.

٢ - فلمنج ساندويش.

٣ - هربرت ملتون.

٤ - هنرى كننج.

وتقرر أيضاً تطبيق لائحة الكوليرا على البضائع الواردة عن طريق ميناء الإسكندرية إلى سائر الموانئ المصرية.

ورغم هذه الإجراءات ظهرت الكوليرا فى القاهرة، فاضطر محافظ القاهرة إلى إصدار تعليمات جديدة فى ١٧ أكتوبر عام ١٨٩٥م كان من شأنها زيادة فعالية الإجراءات المتخذة لمواجهة الكوليرا، وتضمنت هذه التعليمات ما يلى:

١ - غلق الميضآت والمغاطس فى سائر الجوامع بعد نزحها وتركها جافة، أما الجوامع الموجود بها حنفيات فتغلق مغاطسها فقط.

٢ - منع وقوف المراكب - أى رسوها - على شاطئ النيل الشرقى ما بين الطرف البحرى من جزيرة الروضة ومحل الانتيكاخانة القديم ببولاق.

٣ - منع غسيل جميع أنواع الملابس وغيرها بين النقطتين المذكورتين.

٤ - منع أخذ الماء ما بين النقطتين المذكورتين ماعدا الأماكن المخصصة لذلك.

٥ - نزح كل صهريج، أو سبيل يرى أنه مضر بالصحة وتركه جافاً.

٦ - غلق الحمامات العمومية التى يرى أنها مضرة بالصحة.

مادة (٣) كل من يخالف أحكام هذا القرار يعاقب بغرامة من ٥ إلى ٢٥ قرشاً.

مادة (٤) يجرى العمل بهذا القرار من تاريخ نشره بالجريدة الرسمية.

ومن الحوادث التى صاحبت ظهور الكوليرا بالقاهرة ما حدث فى رواق الشوام بالجامع الأزهر فى الأول من يونيو عام ١٨٩٥م وملخصه "أن أحد الطلبة برواق الشوام قد أصيب بالكوليرا، ورفض الطلبة الذهاب إلى الاسبتالية خوفاً من عدم رجوعه مثلما حدث مع زميل لهم راحل، وقد حاول البوليس ووكيل المحافظ وكذلك المحافظ تباعاً أن يقنعوا الطلبة بتسليم المريض ولكنهم رفضوا، وقد حدث هياج شديد ومقاومة للسلطات بل تعدوا على القوة كلها بالحجارة، فلم يسع البوليس إلا استعمال السلاح فقتل واحداً وأصيب أربعة ومات المصاب بالكوليرا أيضاً، وقد عقدت جلسة النظار برئاسة الخديو نظراً لخطورة الوضع وصدرت بعد ذلك قرارات صارمة.

وبالإضافة إلى القاهرة، ظهرت الكوليرا فى مديريات الغربية والبحيرة وبندر دمنهور، وكذلك معظم نقاط الحدود التى تفشت فيها الكوليرا بشكل ملحوظ

وراح ضحيتها عدد كبير من الضباط والعساكر،، ولكن لحسن الحظ أن فترة الوباء لم تدم طويلاً، كما أن جهود الدكتور (جلوى بك) وضابطين من القسم الطبى، قد حالت دون تفاقم الإصابات.

بعض إجراءات الوقاية التى اتخذتها الحكومة:

أصدرت الحكومة قرارات صارمة لمنع تفاقم الإصابات بالكوليرا تمثلت فى اتخاذ عدد من الإجراءات منها:

١ - إلزام الحانوتية بعدم تغسيل وتكفين ودفن أى متوفى إلا بعد الرجوع إلى مصلحة الصحة، أو أحد الحكماء الثقات لأخذ التصريح بذلك.

٢ - على أرباب السفن ألا يشحنوا أى بضائع ملوثة وقذرة على مراكبهم.

٣ - عدم قبول أى شئ من الفراش والأغطية ومتعلقاتها، أو من الملابس الجديدة، أو البالية المشتبه فيها، إلا بعد الاطلاع على شهادة من المصالح الصحية تفيد بسبق إتمام عملية التطهير عليها.

٤ - إلزام مأمورى شركات الملاحة بوضع آلة لتطهير سفنهم أثناء السفر.

٥ - قيام محل التطهير التابع للحكومة والموجود بالعباسية بعمليات التطهير نظراً لظهور حالات إصابة بأمراض غير الكوليرا ومنها (٥ إصابات جدرى - ٣ سل - ١٣ دفتريا - ٨ زهرى - ٢ تيفوس) هذا وقد تم تطهير ١٠١ محل، كما تم تبخير ٨٢٢٣ صنفاً وأحرق ٦٤٢ صنفاً.

وقد حددت تعريفة التطهير بالآتى: ١٥٠ مليماً للحجرة الواحدة، مليم واحد للبياضات من كل قطعة، ٥ مليمات للأغطية والكساوى عن كل قطعة، ومليم للبسط والسجاجيد عن المتر المربع، ١٠ ملليمات للمراتب والمخدات على اختلاف أنواعها عن كل قطعة، ٢٠م للستائر عن كل زوج، ٢٥م للكساوى الحرير والأصناف المطرزة لكل قطعة، أما الفقراء من المصريين والأجانب فكان عليهم إحضار شهادة بذلك من الجهات المعنية بهم.

٦ - ردم المستنقعات لأنها من مصادر التلوث، حيث الماء الآسن الذى يعتبر بيئة صالحة لتكاثر الميكروبات والطفيليات، مثلما حدث عندما صدر القرار بردم المستنقع الذى كان يقع خلف الاسبتالية الفرنساوى بمدينة السويس.

وإلى جانب هذه الإجراءات سنت الحومة قوانين ملزمة للجميع يكون العمل بمقتضاها من تاريخه، كما وضعت عقوبات رادعة لمن يخالف هذه القوانين. وقد

استهلت هذه القوانين بمذكرة من نائب وزير الداخلية إلى مجلس الوزراء هذا نصها "بخصوص سرعة العمل على تنظيم مياه الشرب لأن المياه الملوثة تعمل على انتشار الأمراض والأوبئة وتساعد على ارتفاع نسبة الوفيات ومثال على ذلك ما حدث فى مدينة طنطا، حيث بلغت نسبة الوفيات ٨٥٪ كنتيجة لتلوث المياه الخاصة بالشرب".

ثم صدر القانون فى عام ١٨٩٩م وقد جاءت بنوده كالآتى:

قانون عن الاحتياطات الوقائية من الأمراض الوبائية

نحن خديو مصر "بناء على ما عرضه علينا ناظر الداخلية وموافقة رأى مجلس النظار وبعد أخذ رأى مجلس شورى القوانين وبعد الاطلاع على ما قررته الجمعية العمومية بمحكمة الاستئناف المختلطة بتاريخ ١٨٩٩ م أمرنا بما هو آت.

المادة الأولى: وجوب التبليغ

إذا أصيب شخص، أو أثنان فى إصابته بأحد الأمراض المعدية المبينة فى الجدول الملحق بهذا القانون وجب الابلاغ عنه فى ظرف ٢٤ ساعة إلى مكتب الصحة فى المدن وإلى العمدة فى النواحى ولناظر الداخلية أن يضيف فى أى وقت إلى الجدول المذكور بمقتضى قرار أى مرض آخر معد يظهر حديثاً فى القطر.

المادة الثانية: الأشخاص المكلفون بالتبليغ

١- الطبيب المتولى علاج المريض

٢- مستأجر، أو صاحب المحل المقيم بالغرفة، أو بالسكن الذى حدثت فيه الإصابة وإذا حدثت الإصابة فى فندق، أو خان، أو منزل مفروش معد لسكن العامة، أو أى محل أخر من هذا القبيل كان القايم بشئون المحل، أو بإدارته هو المكلف بالتبليغ.

٣- نظار المدارس مكلفون بالتبليغ عما يحدث من إصابات بين تلاميذ مدارسهم، أو مستخدميها وإذا أصيب الشخص نفسه المكلف بالتبليغ بأحد الأمراض كان الأشخاص الذين يعولون المريض هم المكلفين بالتبليغ. وإذا لم يحصل التبليغ تسرى على الأشخاص المذكورين العقوبات المنصوص عليها فى هذا القانون

المادة الثالثة: تطهير منازل المرضى والعشش

المادة الرابعة: عزل المريض ونقله بواسطة العربة المخصصة للمرضى ما لم

تأذن الإدارة الصحية بنقل المريض فى عربة أخرى، ويجب فى هذه الحالة أن يرافق العربة أحد خدمة الصحة لحراستها ويأتى بها بعد التنقل إلى المحل المعد للتطهير.

المادة الخامسة: إذا عولج المريض فى منزله جاز للإدارة الصحية أن تتخذ الوسائل اللازمة لعزله وعزل المحيطين به عن بقية سكان المنزل.

المادة السادسة: يمنع الاجتماع فى منزل المريض

المادة السابعة: الاحتياطيات اللازمة لمنع المرضى من العمل بالاتجار فى المواد الغذائية والمشروبات.

المادة الثامنة: يتم نقل والتخلص من الأشياء الخاصة بالمرضى بمعرفة الإدارة الصحية.

المادة التاسعة: يجوز للإدارة الصحية أن تأمر بتطعيم، أو إعادة تطعيم جميع سكان المنزل الملوث بعدوى الجدرى والأشخاص أيضاً الذين تعرضوا للعدوى به.

المادة العاشرة: احتياطات بخصوص إصابات تلاميذ المدارس

المادة الحادية عشرة: لزوم التفتيش فى حالة الإبلاغ، أو ظهور حالات وبائية

المادة الثانية عشرة: تسرى أحكام هذا القانون على الطاعون والكوليرا

الأمراض المعدية

القسم الأول: التيفوس - الجدرى - الجمرة الخبيثة - الحمى المخية الشوكية

القسم الثانى: الدفتريا - الحصبة - السعال الديكى - التهاب الغدة النكفية - الحمى القرمزية - الحمى التيفودية - حمى البحر المتوسط - الحمى الصفراوية - التهاب الجلدة المخاطية - الكلب - التدرن الرئوى بعد الموت

ومن الأمراض التى عرفها المصريون فى شكل حالات عرضية لم ترق إلى درجة الوباء ولكنها كانت منتشرة بشكل، أو بأخر فى طول البلاد وعرضها نذكر منها على سبيل المثال:

١- اليرقان: أطلق هذا الاسم على الشخص المريض وتكسو وجهه علامات ولون الاصفرار ويعتريه الهزال والضعف. والحق أن اليرقان كان ينقسم إلى نوعين أحدهما يطلق على الأنيميا الحادة ونتيجة نقص فى بعض الفيتامينات التى يحتاجها الجسم. أما الآخر فيطلق على المريض الذى يعانى من انسداد فى

قنواته المرارية نتيجة خلل فى وظائف الكبد، أو لعلة تصيب المرارة فيؤدى ذلك إلى هزال وضعف شديدين وأصفرار فى الوجه والأطراف. وقد تحدث كثير من المخطوطات الطبية عن مرض اليرقان وأسبابه وطرق العلاج، وكان أول من فرق بين نوعى المرض الطبيب المسلم أبن سينا.

٢- **الفالج:** وهو ما يعرف اليوم (بالشلل النصفى) وقد ذكر هذا المرض فى كثير من المصادر والمخطوطات الطبية، وإن لم يذكر الكثير عن أسبابه، ولكن المخطوطات الطبية عرفت كثيرا من الوصفات التى تكون من أشربة وأخرى عبارة عن دهانات يطلى بها الجسم.

٣- **ذات الجنب:** أطلق هذا الاسم على مرض التهاب الغشاء البللورى (وقد عرض إليه ذات الجنب). وقد ذكرت بعض المخطوطات الطبية أنواعاً لبعض الأشربة والأدهنة والمراهم التى تفيد فى علاج ذات الجنب.

٤- **الحَصْبة:** (بفتح الحاء وسكون الصاد)، وهى على الأغلب مصدر لفعل حَصَب (بفتح الحاء وفتح الصاد) فإذا ما حَصَب المرء شيئاً فقد رماه بالحصباء، وهى الحصى الصغيرة مفردها حَصَبة، فإذا كُسرت الكلمة فهى الحصبة فإن المعنى يذهب عند العرب إلى ريح شديدة تثير الحصباء. والحصبة مرض قديم معروف ببثوره الحمراء التى تصيب الأطفال على الأغلب كالشر الذى لابد منه. وقد أختلط الأمر على الأقدمين فلم يفرقوا بين الحصبة والجدرى إلى أن جاء الطبيب المسلم أبو بكر الرازى (٨٦٥ - ٩٢٥م) وترك رسالته المشهورة فى التفرقة بين الجدرى والحصبة. وقد سبق بذلك الطبيب الإنجليزى "توماس سيدنهام" الذى ينسب إليه التفرقة بين المرضين. وتحدثت كثير من المخطوطات عن علاجات لمرض الحصبة أغلبها عبارة عن أشربة ومنقوعات.

٥- **الزهرى:** ويسمى أيضاً (مرض الفرنجة) عرف العرب والمسلمون هذا المرض مع قدوم الحملات الصليبية، حيث حمله الفرنسيون معهم. ووجد هذا المرض فى جزيرة "هايتى" من جزر الهند الغربية وتحدث عنه كريستوفر كولومبس عندما رست سفنه على شواطىء الجزيرة عام ١٤٩١م. وقد أطلق على المرض أسماء كثيرة مثل (الحصبة الهندى) وذلك لوجود نسبة بين أعراضها وأعراض الحصبة، وسمى أيضاً "بالجدرى الطليانى" لوجود طفح أحمر اللون شبه الطفح الذى يلازم مرض الجدرى، أما لماذا أطلق عليه الطليانى فمرده إلى

أن مدينة نابلى كانت مرتعاً للفسق والفجور وفشا فيها المرض بصورة كبيرة. وسمى كذلك بمرض "فنيريال" نسبة إلى فينوس إلهة الحب والجنس، بما أن هذا المرض ينتقل بالاتصال الجنسى. وقد أعجب هذا التفسير أطباء المسلمين فأطلقوا على المرض اسم "الزهرى" لأن اسم الزهرة فى اللغة العربية هو المقابل لاسم فينوس عند الفرنجة. أما الاسم اللاتينى الذى يعرف به الآن فهو "سيفيليس" وينسب إلى اسم راع فى جزيرة "هايتى" كان بطلاً لقصيدة لطبيب إيطالى يسمى "جيرولاموظى كاستوزا" ملخصها أن هذا الراعى عوقب من قبل إلهة الشمس بإصابته بهذا المرض لأنه كان يتعبد لإلهة أخرى.

٦- **خفقان القلب (سرعة ضربات القلب):** ربط علماء الإسلام من الأطباء بين خفقان القلب ولوعة فراق المحب واللهفة عند اللقاء وأفاض الشعراء فى وصف حالات المحبين وخفقات قلوبهم.، ولكن البعض الآخر وضح أسباباً أخرى لحالات الخفقان بل إنه قد يحدث دون أسباب أحياناً. ومن جملة هذه الأسباب، القيام بمجهود كثيف وفى حالات الانفعال الشديد، وعند التعرض لخوف مفاجئ. ولم يكتف الأطباء ببيان أسبابه، ولكن وضعوا له أيضاً علاجات كثيرة منها على سبيل المثال:

أ-- التغذية بخبز مبلول منقوع فى ماء الورد، أو شراب التفاح والقرع.

ب-- اللحم المهروس من كتف الضان، أو صغار الدواجن وغيرها.

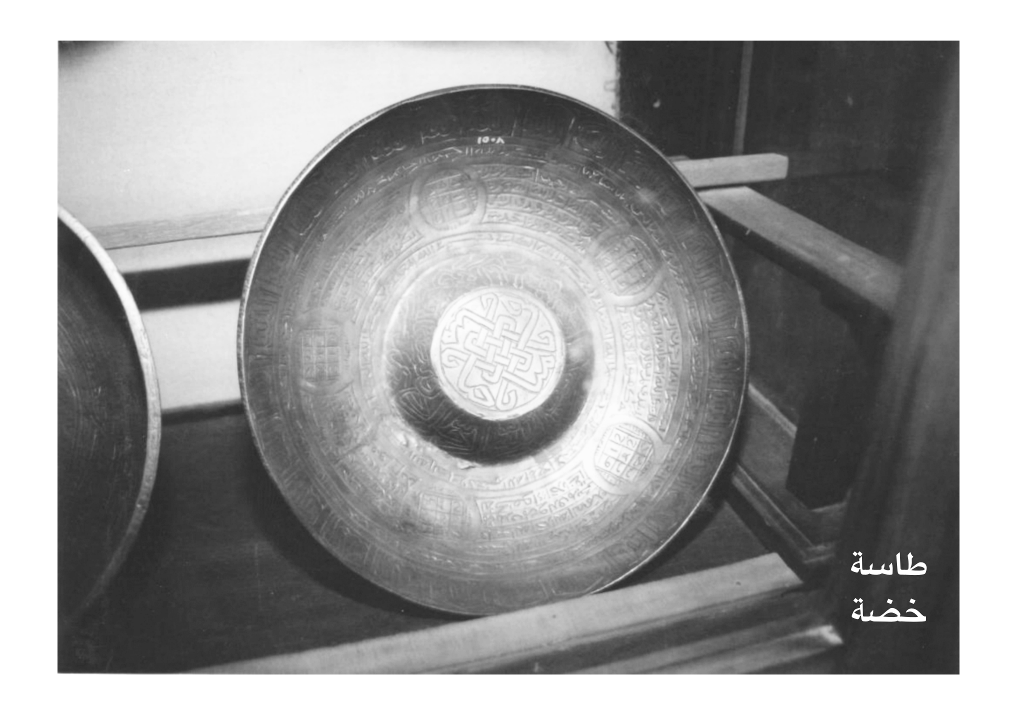
٧- **الهذيان (البارانويا):** أطلق الأطباء العرب على مرض (البارانويا) الذى وصفه أطباء الإغريق وعرفوه بهذا الاسم، لفظة (الهذيان)، وهى تعنى المريض الذى ينتابه أوهام وتلاحقه الشكوك والظنون. ومن جملة تعريفهم لهذا المرض أن المريض يلقى بتبعات مشكلاته على غيره ويرى أنه ضحية لهم ولأفعالهم الشريرة.

وفى أحيان أخرى يرى المريض نفسه فى حالة من المرح والانشراح والإحساس بالرضا عن الذات، ولكنه فى غمرة هذا الإحساس يرى أنه واقع تحت تأثير كابوس من التوهمات. وقد وضع بعض الأطباء علاجاً للهذيان بأن وصفوا للمريض نبات الخس إما بتناوله طازجاً فى الصباح الباكر، أو عصره وتناول شرابه.

٨- **الجرب:** كان منتشراً بصفة خاصة بين الأطفال وتلاميذ المدارس نظراً لقلة العناية بالنظافة وبالاستحمام، أو غسل الملابس. وكانت أوامر الحكومة

صارمة بهذا الخصوص ومنذ عهد محمد على الذى أصدر عدة أوامر لمكافحة هذا المرض والاعتناء بصحة التلاميذ فنراه يصدر أمراً إلى عموم المديريات هذا نصه "إنه علم بإصابة كثير من تلاميذ مديريتى المنوفية والبحيرة بعلة الجرب بالنسبة لعدم الالتفات لنظافة أثوابهم، لكن بالنسبة لكون أن أمر نظافة واختصاصات التلامذة ملزوم من المديرين بأى حال"، ثم تلا ذلك أمر إلى وكيل الجهادية فى ٢٢ جماد آخر عام ١٢٥١هـ نصه "بأنه أطلع على المضبطة الواردة بشأن تعيين عشرة جراحين وواحد حكيم لمكاتب الأقاليم المصرية وضرورة نقلها إلى البنادر لأخذ تلامذتها الحمام كل عام يومًا بالنسبة لما ورد من مدير الدقهلية الذى علم منه إصابة التلامذة بالأمراض والجرب.

الفصل الرابع



طرق ووسائل العلاج فى القاهرة
من الفتح العثمانى
حتى نهاية القرن الـ١٩م

تمهيد:

رأينا فيما سبق كيف عصفت الأمراض والأوبئة الفتاكة بحياة المصريين، ورأينا أيضاً أن عدد دور العلاج فى القاهرة لم يتناسب مع حجم الكوارث التى آلمت بجموع الأهالى، سواء كان السبب هو انحسار وزوال القديم منها، أو عدم إنشاء دور جديدة تكون مهمتها مقصورة على العلاج والرعاية الصحية. لذلك كان دائماً يبقى السؤال: كيف واجه المصريون هذا النقص فى دور العلاج، وكيف كانت طرقهم ووسائل علاجهم فى تلك الفترة.

إن البحث عن إجابة مقنعة لهذا السؤال تحتاج إلى سنوات عديدة من البحث فى مصادر التاريخ العثمانى على اختلاف أنواعها، وبالرجوع إلى هذه المصادر، بدت خالية فى معظم الأحيان من ذكر أمور تتعلق بالحالة الصحية وصحة المصريين خلال تلك الفترة. والحق أن المصادر قد أفاضت فى ذكر ما تعرضت له البلاد من أمراض وأوبئة نتج عنها كثير من الوفيات، ولكن يبدو أن الهدف لم يكن تسجيل تلك النوبات وتتبع مسارها ومعرفة أسبابها، ومن ثم العمل على مواجهتها فى حال عودتها مرة أخرى. ولكن السبب فى ذكرها كان أبعد ما يكون عن ذلك، فالباعث الحقيقى وراء معرفة عدد الضحايا يرجع فى الأساس إلى أسباب فقهية وتشريعية بحتة، تتعلق بضمان حقوق ورثة الضحايا، حيث كانت التركات تنقل أكثر من مرة فى اليوم الواحد، حتى أن عائلات بالكامل كان يصيبها الفناء.

ومن المعروف أنه كان للمصريين منذ القدم طرقهم الخاصة فى العلاج، وتوارثوها ونقلوها من جيل إلى جيل، والكثير منها دونوها على أوراق البردى باللغة المصرية القديمة. وبعد الفتح الإسلامى لمصر، كتب المصريون وصفاتهم

الطبية على أوراق البردى أيضاً، واستخدموا اللغة القبطية والعربية عوضاً عن اللغة المصرية القديمة، ولعل أقدم الأمثلة لهذه البرديات العربية تلك البردية المحفوظة فى مجموعة شوت - راينهارت بمعهد البرديات بجامعة هايدبرج بألمانيا، وهى من الوصفات الطبية التى لا تخلو من الشعوذة، وبها العديد من السطور والعبارات القبطية.

كما تحتوى على رسوم عبارة عن أشكال آدمية برءوس حيوانية، كتب حولها كتابات قبطية وبالمجموعة نفسها أيضاً توجد بردية تحمل موضوعاً طبياً (تغلب عليها الشعوذة)، الجزء العلوى منها مكتوب باللغة العربية، يعقبه ٣١ سطراً باللغة القبطية مع بعض الرسوم البدائية لأشكال ورءوس طيور وحيوانات.

وسارت الأمور فيما تلا ذلك من قرون من تطور إلى تطور، وسقط كثير من رموز السحر والشعوذة، وإن كانت تظهر من حين لآخر نتيجة لأسباب قهرية وعجز الناس أمام وطأة المرض وقسوة الأوبئة.

ولم يختلف العصر العثمانى كثيراً عما سبقه من عصور فى الأخذ بطرق ووسائل العلاج المتاحة فى تلك الأوقات، وهى عديدة، وإن اختلفت فيما بينها، من حيث الأخذ بأسباب العلاج المنطقية، ومنها ما كان متعلقاً بالغيبيات وأمور الدجل ومن هذه الطرق التى اتخذها المصريون سبيلاً وملاذاً من قسوة الأمراض نذكر:

١- زيارة دور العبادة وأضرحة الأولياء

تأتى الطبيعة الدينية التى تربى عليها المصريون على رأس الأسباب التى تؤدى بهم إلى أن يقصدوا دور العبادة وأضرحة أولياء الله الصالحين، حتى وإن لم تنزل بهم نازلة، أو يلم بهم خطب ما. وقد لمس الرحالة الأجانب على وجه الخصوص هذا الجانب فى طبيعة الشعب المصرى وسجلوه فى كتاباتهم وملاحظاتهم. فيذكر أحد الرحالة أن المصريين كانوا يقصدون دور العبادة يلتمسون فيها العلاج، فيمكثون لمدة عشرة أيام لا يأكلون فيها سوى الخبز والعسل ومسحوق السحالى وبيض العصافير. ويذكر وليم لين "أن تركيبة الشعب المصرى وشعوب بلدان الشرق الأخرى تدفعه إلى تبنى الخرافات والتصديق بها، حتى وإن كانت من ديانات أخرى فالمسلمون والمسيحيون واليهود يعتقدون فى خرافات بعضهم البعض فى الوقت الذى يزدرون فيه العقائد المنطقية والعقلانية

فى دياناتهم المختلفة، فقد يستعين المسلم مثلاً فى مرضه برجال دين مسيحيين ويهود ليصلوا له، وكذا الأمر بالنسبة إلى المسيحيين واليهود الذين غالباً ما يستنجدون فى الحالات نفسها بالأولياء المسلمين ليبرأوا من أمراضهم. ومن عادات بعض المسيحيين زيارة أولياء المسلمين فى القاهرة يقبلون أيديهم ويتوسلون فى صلواتهم ويسترشدون بنصائحهم، أو يأخذون بتنبؤاتهم ويحملون إليهم الهدايا ويغدقون عليهم بالأموال.

وكانت هناك زاوية تسمى زاوية الرفاعى، مكان مسجد الرفاعى الحالى، تضم عدة أضرحة، وكان يرد لزيارة هذه الزاوية خلق كثير من مصر وغيرها، خصوصاً المصابين بالأمراض العصبية المعروفة عند العامة "بالرياح الطبيعية" فكانوا يقيمون بهذه الزاوية لمدة أيام بلياليها بقصد سماع الأذكار ولأجل حصول الشفاء من هذه الأمراض التى لم يعرف لها المصابون طرقاً للعلاج.

وشهدت الأضرحة أيضاً لجوء الناس إليها طلباً للخصوبة لزوجاتهم العقيمات، كما كانوا يرون فى أولياء الله القدرة على إبطال مفعول السحر المؤذى والحسد الذى كانت له طرائق عديدة لدفعه واتقاء شره.

ولعل أوضح مثال للحسد ما سجله علماء الحملة الفرنسية، من حرص جموع المصريين على جمع شعر الرأس، أو اللحية بعد الحلاقة ووضعه فى ورقة يطويها بعناية، ثم يدسها فى أحد الشقوق، بدلاً من إلقائه فى الهواء.

ولما كان الرمد أحد الأمراض الشائعة والملازمة للمصريين والذى كان له ضحايا كثيرون ممن فقدوا أبصارهم نتيجة لطرق العلاج البدائية التى استعملت فى مداواتها، وكانت أشهر طريقة للعلاج وذات نصيب وافر من الشهرة، تكمن فى استعمال زيت قنديل السيدة نفسية، ذلك القنديل المعلق فى القبة فوق المقصورة بجوار الضريح، فمن كان بعينيه داء من رمد ونحوه من أهل القاهرة وغيرهم، رجالاً ونساء، يذهب فى ليلة الحضرة إلى الزيارة فيبيت هناك ويكحل عينيه من زيت ذلك القنديل، ويدفع للوقاد ما تيسر من نقود ويرون فى ذلك شفاء. فإذا تم الشفاء يأتون بالنذور والهدايا، ولذلك القنديل شهره تامة فى هذه الخاصية.

وإذا كان الأدب هو مرآة المجتمع الذى يعكس بكل صراحة ما يعترى هذا المجتمع من سلبيات وإيجابيات، وما يشتكيه من أوجاع. فنرى أن روايتين من أجل الأعمال الأدبية فى مطلع القرن العشرين، وهى "الأيام" للدكتور طه حسين، و"قنديل أم هاشم" للأستاذ يحيى حقى، قد أظهرتا بوضوح مدى التخلف الذى

كان يواجه به المصريون مرض "رمد العيون" بطرق بدائية كانت السبب الرئيسى وراء فقد عدد كبير منهم للبصر فى عين واحدة، أو كلتيهما.

ويذكر على باشا مبارك أن مقام العارف بالله عبد العزيز الدرينى ٦٩٧/٦١٥هـ الموجود حالياً خلف كلية طب الأسنان بأول المنيل كان يقصده العامة للتداوى وطلباً للعافية. وما يؤثر عن هذا القطب العارف بالله أن له كتباً كثيرة، وكان أحدها يدور موضوعه حول الطب عموماً والطب النفسى بصفة خاصة.

٢- الاعتقاد بالخرافات والإيمان بالغيبيات

يميل المصريون إلى تصديق ما يشاع عن بعض الأماكن، أو الأشخاص، أو حتى الحيوانات أن لها قدرة عجيبة فى شفاء الأمراض ومداواة العلل والأسقام، وتمدنا المصادر التاريخية بالعديد من الحوادث المشهورة التى كان أبطالها محط أنظار المصريين وملاذهم الأول والأخير فيما يعتريهم من أوجاع.

فيذكر أحمد جلبى أكثر من حادثة يجتمع فيها الأهالى على رجل، يعتقد أن به ولاية، وما إن يشاع الخبر حتى يهرع إليه الجميع كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، خاصهم وعوامهم، حتى أن المؤرخ يذكر أنه شاهد أحد شيوخه وهو يقبل يد أحد هؤلاء المجاذيب ويدعى "محمد العليمى" ولما سأله عن فعله قال له الشيخ "يا أحمد اعتقد ولا تنتقد".

ويذكر المؤرخ نفسه حادثة أخرى عن رجل تكرورى دخل الجامع الأزهر وأخذ يهذى ويخلط فى كلامه حتى أنه ادعى النبوة، فأجتمع رأى المشايخ والأمراء على إيداعه البيمارستان، فهرعت إليه الناس من قبل شروق الشمس حتى الغروب، وصار البيمارستانى يأخذ منهم مالاً ليقابلوا الرجل، وكان جملة ما حصله البيمارستانى فى الثلاثة أيام التى أودعها الرجل تكفى لكساء نفسه وعياله وعمل الكعك وشراء المكسرات (لوز - بندق - عين جمل - كاجو) ومصروف شهر رمضان المعظم.

ومن أشهر الحوادث التى تدل على بساطة أهل القاهرة وما حولها، ما أشيع فى حوادث سنة ١١٧٦هـ من أن الشيخ عبد اللطيف شيخ المشهد النفيسى قد وجد "عنزة" فوق المنارة عند المقام وقيل عنها إنها تتكلم، حتى أن البعض أفاد أن السيدة نفسية أوصت عليها، وأن الشيخ سمع كلامها من القبر، ولما وجد الشيخ الناس يتناقلون أخبارها باهتمام، أفاض فى ذكر معجزات "العنزة" فتدافع الناس لزيارتها حاملين معهم النذور والهدايا، وقال لهم "إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق، ولا

تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر"، فأتوه من ذلك بالقناطير، وعمل لها الناس قلائد وأطواقاً من الذهب، وشاع الخبر حتى وصل إلى مسامع الأمراء وأكابر النساء، فصرن يرسلن كل على قدر مقامه من النذور والهدايا، وحرصوا على زيارتها والتبرك بها، ولما سمع بخبرها الأمير عبد الرحمن كتخذا طلب من الشيخ حضوره بصحبة العنزة فذهب إليه فى موكب لم تشهده القاهرة من قبل.

ومن الأماكن المشهورة التى قصدها المصريون طلباً للعلاج، وبصفة خاصة النساء، كان "مغسل السلطان" الموجود بميدان الرميلة غرب قلعة القاهرة، والذى كان يتم فيه تغسيل وتكفين من ينفذ بهم حكم الإعدام، وكان هناك الحوض الذى يستمد الماء منه والذى كثيراً ما كان يتلطخ بالدماء التى تتجلط، الأمر الذى ينتج عنه رائحة كريهة، وفى هذا المكان تتوجه المرأة المصرية العاقر طلباً للذرية الصالحة، وكذلك المرأة التى تريد تسهيل ولادتها، حيث تجرى طقوس غريبة فى صمت تام، منها العبور فوق المصطبة الحجرية المعدة سبع مرات، ثم تغسل وجهها بالماء الملوث الموجود بالحوض، كما تعتقد بعض النساء أنهن إذا مررن فوق جثة رجل نفذ به عقوبة الإعدام بقطع الرأس سبع مرات دون أن يتفوهن بكلمة واحدة يصبحن حاملات من فورهن.

٣- الاعتقاد فى الأوروبيين وقدرتهم على شفاء الأمراض

كانت القاهرة محط أنظار الطامعين وجامعى الثروات، فوفد إليها مجموعة من الأوروبيين زعموا أنهم أطباء، واستغلوا جهل الأهالى، وأوهموهم بقدرتهم على شفاء الأمراض المستعصية.

كما دفعت قسوة الأمراض وعظم الآلام التى أصابت أهالى القاهرة أن يلتمسوا المشورة الطبية، حتى من الخدم الأوروبيين الذين بالغ بعضهم فى الاستخفاف بعقلية الأهالى وافتتحوا صيدليات لهم بالقاهرة.

أما علية القوم من الأمراء والبكوات فقد كان لهم أطباء أوروبيون خاصون بهم فيذكر أن "رامى باشا" كان يعالجه ويعمل لديه طبيب فرنسى من راجوز (بلد في جنوب فرنسا عاصمة إقليم إفيرون)، كذلك ذكر الرحالة الفرنسي داميرا عام ١٧٦٢م أن "محمد باشا" له طبيب فرنسى و"حمزة باشا" كان له طبيب من البندقية يدعى "يمينى" وعند مجىء الحملة الفرنسية كان هناك طبيب فرنسى من الألزاس مقيم بالقاهرة يعمل لدى بكوات المماليك، كذلك عمل الأطباء الفرنسيون لدى بكوات مصر "على بك الكبير"، و"محمد بك أبو الذهب"، و"حسن بك كشكش".

وكان من السهل على الأوروبيين أن يكون لهم صيدليات بالقاهرة، فيذكر أن إيطالياً حصل على تصريح بافتتاح صيدلية أواخر القرن الثامن عشر الميلاى.

٤- علاج الأمراض بالوصفات الموروثة

أصبحت السلبية هى الظاهرة العامة والواضحة التى واجه المصريون بها أمراضهم والأوبئة التى تفشت فيهم، وكثر الاعتماد على الأحجبة والتمائم والرقى وإطلاق البخور والوصفات المتوارثة فى مقاومة وعلاج الأمراض.

ومن أشهر الوصفات العلاجية الموروثة استخدام الزيت المرقى، وصفته أن نأخذ شيئاً من الزيت الطيب ونجعله فى إناء نظيف ونأخذ عوداً، أو غيره يحرك به الزيت الطيب ويقرأ عليه "قل هو الله أحد" و"المعوذتين"، و"لقد جاءكم رسول من أنفسكم" و"ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" و"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل"، ثم يستعمل بعد ذلك سبعة أيام.

ولعلاج البثرة التى تنمو على أجفان المصريين يأخذ المريض قطعة من القطن ويلفها على عود من الخشب، ثم يغمسها فى أحد الأحواض التى تشرب فيها الكلاب، ثم يمسح بها عينيه، ويكون المصاب يقظاً فلا يغمس يده فى الماء الملوث عندما يلمس بدنه بها.

ولعلاج السموم يلجأ المصريون إلى تركيب ترياق قوامه من الحصوات الموجودة فى أمعاء الحيوانات المجترة بعد تجفيفها، ثم فركها فى فنجان مع قليل من الماء وبعد ذلك يملأ الفنجان بالماء يشربه المريض.

ولليرقان بئر بالقاهرة يتوجه إليها المصريون المصابون بهذا الداء، وهى بئر خاصة لإحدى السيدات الطاعنات فى السن. ولهذا البئر فتحتان فتحة يشرب منها المريض والأخرى يضعون بها ما تطلبه صاحبة البئر من ثمن عينى مثل السكر والبن مقابل شرب الماء من البئر.

٥- العاملون بالطب والحلاقون والعطارون

وإلى جانب تلك الطرق العلاجية المختلفة والسائدة فى مصر وجد أيضاً من يقوم بأحتراف الطب وعلاج الأمراض سواء كان عن دراسة ودراية، أو عن جهل وعدم خبرة. ففى أسواق القاهرة انتشرت حوانيت الأطباء فيذكر أوليا جلبى أن "الجراحين كان لهم عشرون حانوتاً يعمل فيها ستون رجلاً، ثم الحكماء وهم

أربعون حكيماً يعملون فى تسعة عشر حانوتاً.، ثم صناع المعاجين وهم مائتان وعشرون رجلاً يعملون فى مائتى حانوتاً، وأكثر المعاجين استعمالاً معجونا الهاشمى والحشيش، ثم تأتى طائفة محضرى الأدوية السائلة وهؤلاء يستخرجون مياه بعض أنواع الأعشاب كالزعتر والنعناع ولسان البقر وغيرها وهم سبعون رجلاً يعملون فى بيوتهم وليس لهم حوانيت وأهل هذه الحرف المذكورة ثلاثمائة، ويسير خلفهم حكيمباشى وجراحباشى جنباً إلى جنب مسلحين راكبين بتؤدة ووقار على نغمات الموسيقى.

والحق أن ظاهرة المشتغلين بأعمال الطب فى الأسواق ترجع إلى العصر المملوكى فيذكر المقريزى "أن فى سوق الشوايين بقصبة القاهرة توجد بعض الحوانيت تضم أفراداً يجلسون لعلاج من أصيب بتصدع عظم، أو ينكسر، أو يصيبه جرح يعرفون بالمجبرين وهناك منهم بقية إلى يومنا هذا".

وإلى جانب الأطباء والمجبرين وجدت طوائف أخرى مارست الطب بطرق مختلفة ومنهم الحلاقون والعطارون، فقد شهدت حوانيتهم إقبالاً كبيراً من المصريين طلباً للعلاج وتسكيناً للآلام، فبعد أن كان أقصى ما يفعله الحلاق، أو المزين من إجراءات الصحة العامة هو قيامه بعملية الختان، والتى كان لها شعائرها الخاصة فى المجتمع المصرى. نراهم وقد أصبحوا عصب الطب الشعبى وقاموا بما هو أخطر من عمليات الختان، فتصدوا للكى والذى كان شائعاً فى تلك الفترة ولايزال يعمل به حتى الآن فى المجتمعات الريفية والبدوية، كذلك عمليات الفصادة والحجامة وجبر الكسور. وقد ذكر على مبارك نحو ٧٦ طائفة مهنية كانت تعمل بالقاهرة من بينها طائفة المزينين الذين كانوا يقدر عددهم بنحو ٨٣٦ مزيناً، وكان ترتيبها الثامن من حيث العدد.

أما العطارون فقد أسهموا بنصيب وافر فى محاولة علاج بعض الأمراض وتخفيف الآلام لما كانوا يتوارثون من كتب القدماء التى كانت تحوى كثيراً من الوصفات العلاجية عن الأعشاب والنباتات الطبية وكيفية تحضيرها بالمقادير التى تفى بالغرض المرجو منها.

وذكر أحد المؤرخين الذين زاروا مصر فى القرن الـ١٧م أنه يمكن الحصول على العقاقير الطبية بسهولة ويسر من محلات العطارة.

وقد أكد هذا على مبارك فى خططه، حيث قال: "وكانت العقاقير تباع فى

دكاكين العطارين بحالتها الطبيعية وتشترى وتخرج على حسب ما توصف ويتعاطى منها وذلك لا يخلو من ضرر.

وفى مقابل الخدمات الطبية المحددة فى ذلك العصر نمت تجارة التوابل والبخور والنباتات الطبية، بسبب زيادة الطلب عليها من جانب الأهالى، لأنها صارت الملاذ الوحيد الذى يواجهون به شدة الآلام التى تصاحب كثيرا من الأمراض، وقد وجد فى العصر العثمانى العديد من الوكالات المخصصة لمثل هذه الأنواع من البضائع مثل خان البهار الذى احترق فى ٩ رمضان ١٢٠١هـ/ ٢٦ يوليو ١٧٨٧م، ثم جدد بعد ذلك وأطلق عليه وكالة البهار، وكذلك وكالة النعناع بشارع القراصنة، ووكالة الينسون بحارة اليهود، كما امتلك العطارون الوكالات التجارية مثل مصطفى العطار وكذلك خان سعيد بشارع الحمزاوى، ووكالة القفاص بشارع السكة الجديدة ووكالة الدنشارى بشارع بين القصرين وكانتا مخصصتين لأنواع العطارة، ووكالة الفاضل بباب زويلة، وهى مخصصة لأنواع التوابل.

٦- الحمامات

ومن الأماكن التى التمسها المصريون طلباً للعلاج والاستشفاء تأتى الحمامات فى مقدمتها وترجع أهميتها فى مصر العثمانية ليس لكونها مكاناً مخصصاً لنظافة البدن فحسب بل كانت كذلك مركزاً اجتماعياً، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إعلاناً لشفائه، وكان للحمامات دور كبير فى الشفاء من كثير من الأمراض الجلدية الخطيرة كالجرب والبرص وغيرهما، حيث إنها كانت أمراضاً شائعة تبعاً للظروف البيئية المحيطة من درجة حرارة مرتفعة وجو خانق تعلق به كميات من التراب والغبار مع تكاثر العرق والروائح الكريهة.

وقد اعتاد المصرى التردد على الحمامات عند شعوره بأى ألم خفيف، أو أى عرض بسيط مثل الضعف، أو جفاف البشرة، إلا أن هناك أمراضاً لابد من التوجه فوراً إلى الحمام العام لدرء آلامها مثل الروماتيزم وآلام المفاصل. ويستخدم البخار كعلاج لتلك الأمراض مع المياه المتدفقة الساخنة مع تدليك مواطن الأوجاع. ومسام الجلد متفتحة وعضلات الجسم مرتخية ودهنه بالمراهم والدهون. ويشترط المداومة على التردد على الحمام عدة أسابيع ليتم الشفاء.

وينصح الأطباء بعض المرضى بشرب سوائل معينة، أو عقاقير خاصة أثناء وجودهم بالحمام من أجل زيادة استفادة الجسم من العلاج وسرعة الشفاء، كما ينصح بشرب سوائل معينة مثل عصير التفاح، أو الرمان، أو ماء الفواكه، كما كان من الضرورى أن تذهب السيدة النفساء إلى الحمام بعد أربعين يوماً من الولادة، ويتم لها داخل الحمام عمليات تدليك شامل للجسم وشرب بعض المشروبات الخاصة بهذا الغرض، وبذلك تستعيد المرأة رشاقتها المفتقدة وبخروجها من الحمام تصبح فى عداد الأصحاء، كما يفيد الحمام أيضاً فى علاج مرضى عسر البول واحتباسه. ويقصده من أراد التسمين وزيادة وزنه على أن يكون دخوله الحمام بعد الطعام، وأما من أراد التحليل (إنقاص الوزن) والتهزيل فيجب أن يستحم على الجوع ويكثر القعود فيه وأما من أراد حفظ الصحة فقط فيجب أن يدخل الحمام بعد هضم ما فى المعدة والكبد. وينصح من يريد إنقاص وزنه أيضاً بأن يمكث فترة طويلة فى أكثر مواقع الحمام سخونة، وألا يستعمل الماء حتى يدر كمية كبيرة من العرق، ثم يدلك البدن بالأشياء المجففة كالأشنان ودقيق الباقلا والحمص، ثم يغسل بالماء مرة واحدة ويمتنع عن الطعام بقية اليوم.

وهناك الكثير من الأدوية لا تتم فعاليتها إلا باستعمالها فى الحمام. ومن هذه الأدوية (المحلب المطبوخ مع الأس لمنع النزلات)، كما أن الورد إذا خفق وسحق مع الأس وطلى به الجسم قطع العرق والاسترخاء والترهل، كما أن التدليك بدقيق لب البطيخ وورق المرسين فى الحمام يقلع الجرب من البدن، وإذا مزج الحناء بالمر وهو ساق نبات البلسان ويخضب ويدهن رأسه فى الحمام أذهب سائر أوجاعه، وللوقاية من الرمد والنزلات يسحق رماد الدغر وهو شجر معروف يسمى الخيار والعيناء ويخلط رماده بحناء ويخضب به الرأس فى الحمام.

وقد أحصى علماء الحملة الفرنسية أكثر من مائة حمام بالقاهرة يواظب السكان على الذهاب إليها؛ حرصاً على النظافة والتماساً للشفاء.

ويبلغ عدد المترددين على الحمام فى اليوم الواحد مابين ٥٠ و٦٠ فرداً يدفع كل منهم مابين ٢٠ و٣٠ بارة حسب ما يحصل عليه من خدمات. وقد زار أوليا جلبى ٤١ حماماً من جملة ٥٥ كانوا موجودين بالقاهرة وحتى زيارته لها من ١١هـ/١٧م، ويحدثنا عن أحد تلك الحمامات بقوله "حمام مصطفى باشا بالقرب من مسجد السلطان حسن ليس بالقاهرة كلها حمام أكبر منه ولا أبهج،ولا مثله فى حرارة الماء وطيب الهواء وجريان الماء فى الأحواض، ويخدم

فيه دلاكون (مكبساتية) ذوو أيد ناصعة ووجوه وردية مشرقة وعيون كعيون المها، لهم معسول الكلام، قد يلفون أجسامهم العارية بمآزر زرقاء كما أن بشاكيره نظيفة" . ومن جملة ما ذكر من الحمامات حمام يدعى حمام القيصونية وصفه بأنه "نير لطيف جيد الهواء والماء قد بناه الحكيم قيصونى وفقا لقواعد الحكمة» وإن لم يذكر مكانه بالتحديد.

٧- طاسات الخضة

ومن أشهر طرق العلاج التى يؤمن بها المصريون ويحرصون على استعمالها حتى يومنا هذا، هو استخدام طاسة الخضة بأشكالها المميزة ونقوشها وآياتها التى تستعمل لعلاج العديد من الأمراض، لأن لكل مرض أدعيته وآياته التى تختلف من مرض لآخر. ويعود أصل استخدام طاسة الخضة إلى العصر الفرعونى. فقد عثر على إناء من المرمر ضمن محتويات مقبرة توت عنخ آمون حفر على حافته سطر من الكتابة الهيروغليفية يتضمن أدعية للملك وتعويذة لحفظه نقشت فى هذا المكان حتى تختلط بما يشربه الملك عندما يضع شفته عليها وقت الشرب فتهبه الصحة والسعادة، وكان يطلق على طاسة الخضة قديماً اسم اللوحة الاستشفائية السحرية مثل "لوحة آمون" و"لوحة حورس" واستخدمت لوحة آمون بكثرة فى زمن الإسكندر المقدونى، وكان المرضى يلتمسون فيها الشفاء من الآلام،، كما كانت تستخدم للشفاء من لدغ العقرب والثعبان. فأمون هو الحارس من أضرار الهوام، أما لوحة حورس فهى للتخلص من آثار اللدغات والجروح والرعب من الحيوانات، ويقال إن هذه اللوحة هى أصل طاسة الخضة المصرية.

وطاسة الخضة عبارة عن كأس معدنية منقوش بداخلها آيات قرآنية ورسوم وأشكال وينقش خارجها عبارات تعدد فضائلها وخواصها من إبطال السموم والحسد وشفاء الأمراض والعلل،، كما قد تنقش أسماء أهل الكهف وكلبهم فى قاع كاسات الشراب وعلى حواف صينية الطعام النحاسية المستديرة.

ويضم متحف الفن الاسلامى عدداً من طاسات الخضة لعل أشهرها طاسة الخضة الخاصة بالسلطان "الأشرف برسباى"، كما يضم متحف جاير أندرسون عدداً آخر من هذه الطاسات.

شرح إحدى الطاسات:

وهى إحدى الطاسات بمتحف جاير أندرسون، وهى عبارة عن آنية من المعدن يتوسطها كتابة بالخط الكوفى الجميل عبارة (يا حنان يامنان)، الإطار والحافة الخارجية نقش عليها لفظ الجلالة (الله) بطريقة متتابعة يعقبها إطار آخر كتبت عليه (البسملة)، و(لا إله إلا الله محمد رسول الله) بصورة متتابعة. يلى ذلك إطار عريض مقسم إلى خمسة أقسام كتب فى كل قسم سورة الإخلاص. ويفصل بين كل سورة، والأخرى دائرة مقسمة داخلها إلى ستة مربعات صغيرة، تحتوى على حروف أبجدية لها دلالة معينة. يلى ذلك إطار رفيع كتبت بداخله (البسملة) متتابعة. يعقبه إطار أعرض منه قليلاً يحتوى أيضاً على (البسملة) بالخط الكوفى.

هذا وقد تطورت أشكال طاسات الخضة على مر السنين، وما زالت تصنع وتباع فى أسواق بعض الدول العربية، كما أنها ما زالت تستعمل فى بعض الأوساط الشعبية حتى الآن. ومن أمثلة طاسات الخضة بالدول العربية ما يحتفظ بها بمتحف الطب والعلوم بالبيمارستان النورى بمدينة دمشق.

٨- كراسى الولادة

شغلت فكرة الحمل والإنجاب عقول الأقدمين بدرجة كبيرة، وأيقنوا أنها السبيل الوحيدة لبقاء النوع وعمارة الكون، واحتلت المرأة ولفترات طويلة مكانة مرموقة عند الشعوب القديمة بوصفها واهبة الحياة وأصل تعاقب الأجيال، حتى أن بعض قبائل العرب القديمة، كانت تنسب إلى الأمهات وليس إلى الآباء، بما يعرف فى التاريخ (نظرية الأمومة) وكثيرا من الديانات القديمة اتخذت آلهة للخصوبة واختير الجدى فى بعضها رمزا لها، نظرا لحيويته وقدرته على الجماع.

ومن ثم كان الاعتناء بالمرأة والعمل على راحتها، خصوصا فى أثناء فترة الحمل وعند عملية الولادة.

وقد سجل المصريون القدماء إشارات لأوضاع المرأة عند الولادة نجد أقدمها يعود للأسرة السادسة، ثم وضع أخر يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة والوضع الأخير يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة.

وتسهيلاً لعملية الوضع، ابتكر المصريون القدماء مقعداً (كرسى) تتخذه السيدة المراد إجراء عملية الولادة لها وذلك تيسيراً وراحة لها وكانت مادته الأولى من الحجر وتعود بداياته إلى عهد الأسرة السادسة.

وابتكر الفارسيون وضعا مغايرا لما رآه المصريون، بحيث ترتكز المرأة بكلتا يديها على مجموعة من القوالب الحجرية تساعدها على عملية وضع الجنين إلى الخارج.

أما فى اليابان فقد اتخذ كرسي الولادة شكلاً مغايراً فهو جهاز على شكل صندوق خشبى مغلق من ناحية ومفتوح من الناحية الأخرى، وكان فيما مضى يستخدم لمساعدة النساء أثناء عملية الولادة.

ولكن أقدم مثل مؤرخ لشكل الكراسى التى استعملت بعد العصور الوسطى، كان هذا الكرسى الذى يعود إلى عام ١٥٤٧م، حيث صمم على شكل يشبه حدوة الفرس ذات ثلاث أرجل، وبدون ظهر، أو جوانب وكان هذا التصميم هو الأمثل من الناحية العلمية فى القرن السادس عشر.

وفى عام ١٥٥٤م حدث تطور على شكل الكرسى السابق ذكره، حيث صمم الكرسى على شكل حدوة الفرس تماما، وارتفع بصورة أكبر عن الأرض ووضع له ظهر وإن ظل أيضاً بلا جوانب (متكأ، أو مسند).

وفى العام نفسه أيضاً (١٥٥٤)، وجد كرسى كان يستعمل فى زيورخ بسويسرا يشبه إلى حد كبير الكرسى السابق له، وإن اختلفا فى بعض التفاصيل مثل الأرجل الأربعة التى ترتكز عليها القاعدة التى على شكل حدوة الفرس والتى وجد فى نهايتها مقبضان تمسك بهما السيدة التى يجرى لها عملية الولادة، كما جاء الظهر على هيئة نصف برجية - المذكر برج - (مقوسة)، كما غطى الجزء السفلى من الكرسى على هيئة الستارة (درابية).

وفى القرن الثامن عشر وجد كرسى يعود إلى عام ١٧٧٠م، وهو يشبه إلى حد كبير الكراسى التى وجدت فى الشرق الإسلامى، فقد جاء على شكل مستطيل يركز على قوائم أربعة والقاعدة يوجد بها التجويف الدائرى، كما أن له جانبين وظهراً، وهو بسيط للغاية، وخالٍ من أى نوع من الزخرفة.

وهناك أيضاً كرسى على هيئة مستطيلة، وإن لم يعرف تاريخه، صممه ديفنتر ذا جانبين وظهر من قطعة واحدة والقاعدة ذات تجويف دائرى يتسع فى الخلف ويضيق فى الأمام، وأعتقد أن القاعدة متحركة إلى أعلى، حيث يوجد تدرج جانبى لضبط زاوية ثبات القاعدة.

وفى ألمانيا استخدم كرسى متطور نوعاً ما خلال القرن الثامن عشر الميلادى،

بالإضافة إلى وجود ظهر ومساند جانبية ذات أشكال لطيفة، كما وجدت مساند كالموجودة بالكراسى المتحركة لنقل المرضى، أو (دواسات) لوضع قدمى السيدة حتى لا تبقيا معلقتين مما يؤدى إلى شعورها بألم فيها، كما وجد التجويف فى مقدمة القاعدة على شكل حدوة فرس أيضاً.

وفى عام ١٧٨٠م، حدث تطور آخر على كرسى الولادة ليكون أكثر راحة وملاءمة، فقد صمم الكرسى من جزءين، الجزء الأول ذو التجويف الدائرى ويشبه إلى حد كبير كرسى الصالون فى وقتنا الحالى (فوتيه)، وهو ذو ستارة فى الجزء الأسفل يغطى الأرجل بها وما بينها من فراغات، أما الجزء الثانى فهو على هيئة الكرسى أيضاً، ولكن بدون تجويف دائرى، وله زوائد أمامية يمكن إدخالها فى فراغات محددة خصيصا للكرسى الأول، ليكونا بذلك سريرا يستخدم لراحة المرأة بعد عملية الولادة.

وفى عام ١٨٠٥م وصل إلينا كرسى من تصميم (ستان) ذو ظهر متحرك وتجويف القاعدة على شكل حدوة فرس تمتد إلى قرب نهاية القاعدة، كما زوده بوسائد للقدمين.

ثم أدخل عليه (ستان) تطورا آخر، بحيث ألحق عليه جزءا أماميا يثبت ببعضها عن طريق شنكلين فى الجانبين.

أما (هيستر) فقد صمم كرسيه على هيئة مستطيل وقاعدة ذات تجويف على شكل حدوة الفرس، إلا أنه أطال ظهر الكرسى وجعله متحركا حتى يسهل فرده واستعماله كسرير بعد عملية الولادة.

وأعتقد أن كلا من كرسى (ستان) و(هيستر) يرجعان أيضاً إلى القرن الثامن عشر الميلادى.وفى الوقت الذى وجدنا فيه إدخال تعديلات وتحسينات على كراسى الولادة فى دول أوروبا نجد أن كراسى الولادة فى الشرق الإسلامى بقيت كما هى دون أى تغيير جوهرى والدليل على ذلك ما أورده (ويتكويسكى) فى كتابه "تاريخ الولادة عند الشعوب" لشكل الكرسى المستخدم فى القسطنطينية بتركيا حتى عام ١٨٨٧م أى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وإن كان يتميز بدقة الصنع وفخامة التكوين ووجود بعض الزخارف النباتية على شكل وريدات حفرت فى أعلى مسند، أو ظهر الكرسى.

وأورد هذا الكتاب أيضاً شكلاً لكرسى الولادة قال عنه مؤلفه إنه استعمل فى سوريا، ولم يذكر له تاريخاً، ولكن الطريف فى هذا الكرسى أنه جاء من حيث التصميم مخالفا بعض الشئ للكراسى التى بين أيدينا. صحيح أن الكرسى

مستطيل الشكل لكن قاعدته بدلا من أن ترتكز على أربع أرجل، أو دعامتين كبيرتين نرى أن الصانع استعاض عن الأرجل والدعامتين بوضع قطعتين من الخشب كبيرتين على شكل قوسين، تسمح للكرسى بالاهتزاز أماما وخلفا، أما مسند الكرسى، أو الظهر فجاء مفرغا فيما عدا الجزء العلوى الذى يبدأ بمثلثين مثبتين فى قائمتى الكرسى حملا قطعة من الخشب مسطحة ومزخرفة يعلوها قطعة من الخشب على هيئة العقد الموتور (عقد موتور أى جزء من الدائرة) مزودة بالزخارف النباتية وقطعة الخشب المسطحة تحصر بينها وبين العقد الموتور نفيساً صغيراً مزداناً بعدد من العقود الموتورة الصغيرة المتتابعة ويظهر من الشكل أن القاعدة ترتكز على صفين من القوائم الصغيرة من خشب الخرط.

وهذا الكرسى السابق ذكره يختلف عن الكرسى الموجود بمتحف الطب والعلوم بالبيمارستان النورى بمدينة دمشق، حيث إن الأخير يشبه تماما الكراسى المحفوظة بمتحف جاير أندرسون بمدينة القاهرة، ولكن الاختلاف الوحيد هو أن هذا الكرسى ليس له ظهر سوى امتداد القوائم الخلفية والتى تنتهى بشكل كروى.

كراسى الولادة بمتحف جاير أندرسون

يحتفظ متحف جاير اندرسون بمدينة القاهرة بعدد ثمانية كراسى للولادة، ستة منها تكاد تكون متماثلة، أما الاثنان الآخران فهما متماثلان تماماً ويختلفان قليلاً عن الستة الباقية بعضها مزخرف بزخارف نباتية فقيرة كما أن أحداها يحمل إشارت قرآنية عبارة عن البسملة وأول سورة الماعون.

طرق ووسائل العلاج المتبعة فى القرن ١٣هـ/١٩م

فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى، كانت الحالة الصحية للمصريين قد وصلت إلى أدنى مستوى لها. وفى بداية سنوات حكم محمد على ظلت طرق ووسائل العلاج الموجودة أنذاك هى السائدة والمعمول بها. وذلك نتيجة لقلة عدد الأطباء وضعف مستواهم، الأمر الذى صرف الأهالى عنهم، كما كثر الاعتقاد فى الدجل والشعوذة والاعتماد على الأحجبة وزيارة الأضرحة ورجال الدين سواء كانوا مسلمين، أو من ديانات أخرى. ويذكر أن محمد على نفسه كانت له ابنة مريضة فشل الأطباء فى علاجها، فما كان منه إلا أن عرضها على أحد الرهبان الذى قرأ عليها بعض الكلمات من أجل شفائها.

وهناك أمثلة كثيرة لجأ فيها الأهالى إلى تلمس العلاج عند الرهبان سواء فى الكنائس، أو الأديرة وذلك لادعاء الكثيرين منهم القدرة على شفاء الناس.

أما عن الأطباء فى مطلع القرن التاسع عشر فقد انقسموا إلى فريقين، أحدهما اشتغل بالتطبيب فقط. أما الفريق الأخر فقام بإجراء العمليات الجراحية. والفريق الأول عرف أعضاؤه بالحكماء واستمدوا معلوماتهم القليلة عن طريق التواتر، والقليل منهم من توسع فى قراءة كتب الطب القديمة مثل كتاب القانون "لابن سينا". وهم يعتمدون فى طرق علاجهم على المسخنات، أو المرطبات، أو المسهلات، أو المقويات. والفريق الثانى أطلق عليهم "الجراحون" الذين كانوا قليلى المعلومات وعندهم فقر فى الأدوات، إلا أنهم قاموا بعمل عمليات كثيرة مثل تضميد الجراح، وعلاج المرض والخلع والكسور، واستخدام الجبر، أو التجبير وفتح الخراريج والحجامة وهو تفريغ الماء من تجويف البطن، والبزل (تفريغ الماء من تجويف البطن) وخلع الأسنان. وكان ذلك كله يتم بطريقة بدائية بالإضافة إلى بعض الدجل. ورغم ذلك، فقد ذكر أن بعض العمليات التى كانت تجرى فى العين كانت تصادف بعض النجاح أحياناً.

واستمر دور العطارين الحيوى فى التخفيف من الآم الناس بما يقدمونه من وصفات طبية قوامها الأعشاب والنباتات الطبية ,سواء التى تنمو بمصر، أو التى تجلب من الخارج. وقد استمد العطارون تركيب أدويتهم من المخطوطات الطبية القديمة التى دأب المهتمون بالطب على تناولها ونسخها وتجديدها من آن لآخر حتى وصل إلينا الكثير منها.

على أى حال لقد لفتت حوانيت العطارة أنظار الرحالة الأجانب فتحدثوا

عنها كثيراً، حتى أن أحدهم أورد فى كتابه صورة لأحد هذه الحوانيت، مع شرح للدور المهم الذى كانت تقوم به فى حياة المصريين.

وبالنسبة للحلاقين، فإنهم شكلوا نواة الرعاية الصحية فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى، بما يملكونه من خبرة وأدوات. ويكفى للدلالة على ما كانوا يتمتعون به من سمعة طيبة فى مجال العلاج أن محمد على نفسه استعان بهم فى علاج إحدى بناته، كما أن كلوت بك وجد فيهم خير معين لمساعدته فى حملة التطعيم ضد الجدرى التى بدأها فور مجيئه للقاهرة.

ومن أطرف ما ذكر عن الحلاقين ما ذكره الرحالة "دى فوجانى" بقوله: «كان للحلاق صندوق نصف أسطوانى يحمله صبى فوق رأسه، وهذا الصندوق مزدان بشرائح النحاس ويعلوها من ٨ إلى ١٠ أجراس صغيرة نحاسية، ويحتوى الصندوق على أدوات الحلاقة والجراحة التى يستخدمها لإجراء عملية الختان، فهو نجم حفلة الختان وصاحب الشخصية المهمة فى الحدث.

وإذا كان دور الحلاق فى القاهرة اقتصر على التطعيم والقيام ببعض العمليات الجراحية الصغيرة والختان، فإن الأمر كان مختلفاً خارج القاهرة، فكان من الحكمة أن يقوم الحلاق بدور الطبيب الشرعى فيذكر أن عبداً يدعى باشير توفى عند مرساة جرجا، فندب الأسطى محمد حسن الحلاق للكشف عليه وكتابة تقرير يمكن الرجوع إليه فى حالة الاحتياج.

وقام أيضاً حلاقان بالتطعيم ضد الجدرى، ويذكر أن قاسم بكر ومحمد أحمد غزالى حلاقين ناحية الحرجة ونجع مازن قد استلما من خزينة المديرية مبلغ ٣٧ قرشاً قيمة قيامهما بالتطعيم ضد الجدرى عام ١٨٥٧م.

كما استلم كل من سباق أحمد وعيسى معوض وهما حلاقان بمديرية جرجا مبلغ ٢٩ قرشاً أجرتهما فى تلقيح الجدرى والكشف على الأنفار فى عام ١٨٥٧م.

يتضح لنا مما سبق أن أساليب وطرق العلاج لم تتغير كثيراً عما كانت عليه طيلة الحكم العثمانى لمصر إلى أن بدأ محمد على نهضته الطبية والتى اعتمدت على الطرق الحديثة فى التشخيص والعلاج، وكثر عدد الأطباء وتعددت تخصصاتهم، كما أنشأ العديد من دور العلاج والمستشفيات، وانتشرت تبعاً لذلك الأجزخانات وزاد عددها بالقاهرة، بل ضمت القصور ومنازل المياسير من الناس أجزخانات خاصة متنقلة كتلك الخاصة بالوالى خورشيد باشا، وأخرى كانت للخديو إسماعيل وهما محفوظتان بمتحف الطب بقصر العينى.. كما استحدثت

أدوات جراحية جديدة تناسب العمليات الكبرى التى بدأ إجراؤها لاحقاً. ويضم المتحف أيضاً مجموعة من أدوات كلوت بك التى استعملها والخاصة به.

تحدثنا عن النهضة الطبية التى أحدثها محمد على فى مصر، الأسباب والدوافع، وكذلك أهم النتائج المترتبة عليها، ولكن الذى يهمنا من هذا السياق ما وضعته الحكومة من ضوابط، وما اتخذته من إجراءات للحيلولة دون وقوع الأهالى فى يد غير المتخصصين ومعاقبة من يتصدى لمهنة الطب وهو غير مؤهل لذلك.، كما يهمنا أيضاً إبراز دور الحكومة فى نشر الرعاية الصحية للمواطنين حتى تضمن لهم حياة آمنة خالية من أسباب الأمراض والأوبئة ومن هذه الضوابط والإجراءات مايلى:

أولاً: التصريح بمزاولة مهنة الطب

كان التصريح بمزاولة مهنة الطب يصدر عن ناظر الداخلية بناء على عرض من رئيس المصلحة الصحية، ولا يسمح لأحد بممارسة هذه المهنة إذا لم يكن حائزاً شهادة، أو دبلوماً من إحدى المدارس المعروفة. ولم يكن التصريح مقصوراً على الأطباء فقط، بل أمتد ليشمل الصيادلة والقابلات والحكيمات يبدو هذا واضحاً من القرارات التى كانت تصدر بموافقة ناظر الداخلية ومنها:

١ - بناء على ما عرضه مدير عموم الصحة صرح عطو فتلو ناظر الداخلية لمسيو الفريد أوزيورن الحكيم بتعاطى صناعته فى القطر المصرى.

٢ - بناء على ما عرضه مدير عموم الصحة فقد صرح عطو فتلو ناظر الداخلية للحكيم باجونس بتزو بتعاطى صناعته بالقطر المصرى.

٣ - كما قرر التصريح للست كاليوب ويفتهى بممارسة مهنة القبالة هى والست بولين بربرجوزره، كما صرح لكل من مدام سلطانه سليفاناكى والست كارينا دافينتى للعمل كحكيمتين، وللسيد عبد القادر أفندى حسين والسيد أمين أفندى الطحان بالعمل فى مهنة الصيدلة.

وتوجد صورة لترخيص داية بتاريخ ١٩٢٥م باسم/ أمينة حسين حسنين نجار بناحية كفر ربيع مركز تلا مديرية المنوفية، وتفيد أنها نجحت بمدرسة الدايات بجهة شبين الكوم فى ٣ أكتوبر ١٩٢٥م ولجنة الامتحان من الدكتور نجيب أفندى رفلة والست جاكسون المرضة المتجولة بعموم المصلحة. وقد يبدو غريباً أن أستعين بوثيقة صدرت فى القرن العشرين أى بعد فترة

الدراسة ولكن الهدف من ضمها للبحث أنها ذات دلالات مهمة أستطيع أن ألخصها فى الآتى:

١- أنها صادرة فى الربع الأول من القرن العشرين الأمر الذى لا يبعد كثيراً عن الفترة الزمنية للبحث.

٢- أن الحاصلة على التصريح فتاة من كفر ربيع مركز تلا محافظة المنوفية الأمر الذى يعنى أن المد العلمى وإقبال الأهالى على تعليم فتياتهم قد أتى ثماره.

٣- أن المستشفيات بدأت تنتشر فى محافظات مصر.

٤- نجيب أفندى رفلة وهو اسم دكتور مصرى مسيحى وهو يعنى أن التعليم كان مكفولاً لكل المصريين النابهين فهم سواء كانوا مسلمين، أو مسيحيين. فلم يكن هناك أى تمييز بين طوائف الشعب، وكان المعيار الوحيد فى اختيار تلاميذ مدرسة الطب هو الذكاء والمهارة والقدرة على استيعاب العلوم الحديثة.

ثانياً: الرقابة الحكومية على العاملين بالطب

وكان لابد من الحصول على شهادة بلقب طبيب من نظارة المعارف حتى يتم مزاولة المهنة وصدور قرار بذلك، ففى ١٦ نوفمبر عام ١٨٩٦م صدر قرار رقم ٥٣٩ بإعطاء شهادة طبيب لكل من (إبراهيم كامل جودة - يوسف واصف - إبراهيم حسن - محمد أيمن نظيم - أحمد حسين يوسف - محمد رامى - سليمان الحكيم - محمد مصطفى درويش - براجينوبولانى) وصرح لهم بمزاولة العمل.

وكان لنظارة الداخلية سلطة المراقبة على كل من يقوم بمزاولة مهنة ذات صبغة طبية، لارتباطها الوثيق بصحة الأهالى، لتقويم سلوكهم وردع من يشذ عن الأهداف النبيلة لهذه المهن، ومن أمثلة هذه الإجراءات التى اتخذت ضد بعض العاملين، ما أصدره مجلس التأديب التابع لمجلس الصحة برفت محمد أفندى عابد مفتش صحة مركز أطسا بمديرية الفيوم لإهماله فى أداء شئون وظيفته إهمالا جسيماً وعدم إطاعته للأوامر الصادرة إليه.

كما صدر قرار برفت فطومة أفندى عبد الله حكيمة اسبتالية بنى سويف لإقدامها، وهى فى حالة سكر بين على إهانة طبيب الاسبتالية المذكورة والتهجم عليه.

كما تقرر رفت الدكتور فوفان المدرس بمدرسة الطب لغاية ٣١ يناير ١٨٩٦م بناء على قرار استعفائه من قبل مدرسة الطب.

ثالثاً: بعض جهود الحكومة لنشر الرعاية الصحية

بذلت الحكومة المصرية جهوداً مشكورة فى سبيل نشر الرعاية الطبية والصحية فى ربوع البلاد؛ سيما بين طلاب المدارس ونلاحظ هذه الجهود فى بعض الإجراءات التى اتخذت لتأمين هذه الرعاية ومنها:

١ - عمل مسح شامل لطلبة المدارس من عام ١٨٨٤ وحتى ١٨٩٥م للوقوف على مدى انتشار بعض الأمراض ونسبة الإصابة بها، وجاءت بعض النتائج، كما أوردتها تقارير مجلس النظار كالتالى:

أ - أمراض العيون: قدرت نسبة الإصابة بين مجموع التلاميذ بنحو ٤٧,٣٢٪، وهى نسبة تعتبر كبيرة، كما أن نسبة هذا المرض إلى باقى الأمراض الأخرى تبلغ ٣٩,١١٪.

ب - تكدرات (اضطرابات) معدية تبلغ نسبة الإصابة بها بين التلاميذ ٢٢,٠٨٪ وبالنسبة لمجموع الأمراض تبلغ ١٨,٤٠٪.

ج - النزلات الشعبية وتبلغ نسبتها ١٢,٢٥٪ لمجموع التلاميذ ١١,٠٦٪ بالنسبة لمجموع الأمراض.

د - نزلات معوية وتبلغ الإصابة بها ١٨,٤٠٪ لمجموع التلاميذ و٧,٤١٪ بالنسبة لمجموع الأمراض.

هـ- أمراض الجهاز البولى وتبلغ نسبتها ١,٢٩ ٪ بالنسبة لمجموع التلاميذ و١,٧٪ لمجموع الأمراض.

و - الحميات ونسبتها ٤,٥٣٪ بين التلاميذ، ٣,٨٠٪ بالنسبة لمجموع الأمراض.

وقد خرج هذا التقرير بعدة نتائج كان من أهمها أن الأمراض تزداد عدداً وانتشاراً فى شهور أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، وهى أشهر الإجازة الصيفية بالإضافة إلى شهر رمضان الذى كان من ضمن الإجازات الرسمية، الأمر الذى يعيق مسار الرعاية الصحية، كما كانت من أهم نتائج هذا المسح أن بنية التلاميذ ضعيفة وأنهم محدبو الظهور وأصاب الأجسام العلل والأمراض وذهبت نضارة الأوجه الأمر الذى لا يستطيعون معه تحمل ما يلقى على كاهلهم من أعباء وما يرجى منهم من آمال. وقد أرجع التقرير هذا القصور إلى عدة عوامل منها:

١ - عدم ممارسة الرياضة.

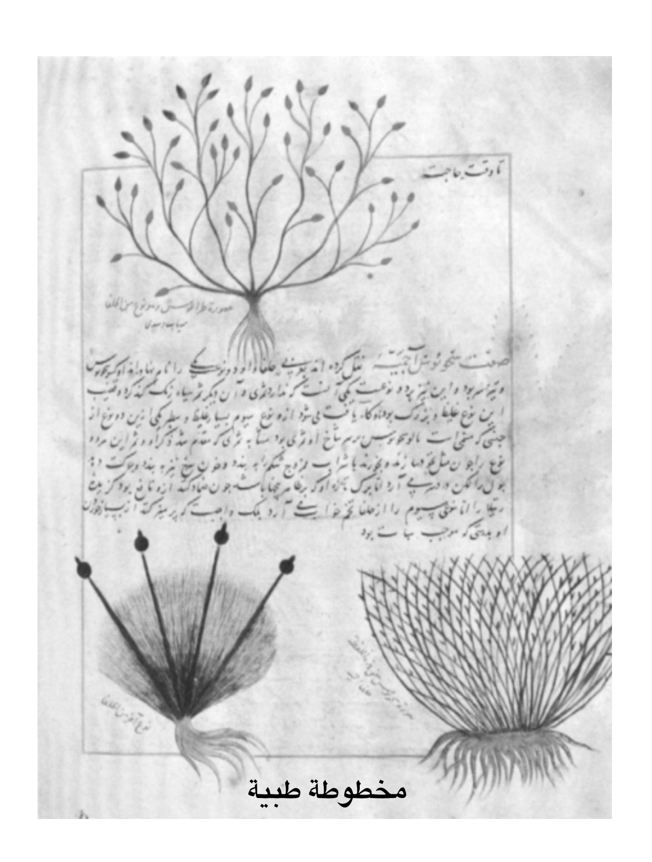
٢ - عدم مناسبة الأدوات المستعملة فى المدارس، مثل: المناضد والمقاعد وبعض الكتب ونحوها.

٣ - عدم كفاية الإضاءة ليلاً.

٤ - عدم وجود ماء صالح للشرب.

٥ - سوء حالة المراحيض.

الفصل الخامس


مخطوطة طبية

المخطوطات الطبية
من الفتح العثمانى
حتى نهاية القرن ١٩م

تمهيـــد

من أعظم مفاخر الحضارة الإسلامية، ذلك الكم الهائل من المخطوطات التى تناولت شتى مجالات العلم والمعرفة. والحق أن هذا العدد الضخم كان من أكبر العوامل التى ساعدت على بقاء عدد لا بأس به من تلك المخطوطات، فالحروب والجهل والتعصب والإهمال كانت على رأس العوامل التى أدت إلى ضياع وفقد الكثير من هذه المخطوطات فلو كان نتاج هذه الحضارة قليلا ما بقى لنا من تراثها شئ نفخر ونعتز به ونؤكد إسهامنا الباهر فى حضارة البشرية.

وحتى ما بقى من هذه المخطوطات تسرب من بين أيدينا، إما فى غفلة منا، أو بالسلب والقهر، وتقاسمته مكتبات العالم حتى تراوح عدد هذه المخطوطات ما بين ٢ و٦ ملايين مخطوطة من أندر ما كتب فى الفلسفة والأدب واللغة والطب والفقه والرياضيات والكيمياء وغيرها من فروع العلم المختلفة، ومن المعروف أن نسخ وكتابة المخطوطات كانت سمة ميزت العالم الإسلامى من حدود الصين شرقاً وحتى الأطلسى غرباً بالإضافة إلى بلاد الأندلس. ونظراً لتمكن المسلمين من هذه الصنعة وإتقانهم لتلك الحرفة، فإنهم طوروها وابتكروا وحسنوا وأبدعوا وضمنوا المخطوطات التصاوير البديعة التى أضفت عليها ذوقا ورونقا وبهاء، خفف من جمودها وجفافها وسهل على قارئها فهمها واستيعابها، فكان ذلك الفن وقفاً على المسلمين وحكراً عليهم.

وتأتى مدرسة بغداد على رأس المعاهد العلمية إنتاجا لصور المخطوطات (المنمنات) وتزخر مكتبات العالم بالعديد من المخطوطات المصورة والتى يرجع تاريخ معظمها إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى). ومن أمثلة تلك

المخطوطات شرح وتصوير الكتابين الرابع والخامس للطب الطبيعى لديسقوريدس.

وكذلك مخطوطة الأشجار للمؤلف نفسه والتي ترجع إلى عام ١٢٤٠ م ونسخها الحسن بن أحمد بن محمد الشناوى، وللمؤلف نفسه مخطوط عن الحيوانات السامة، وغيرها الكثير من المخطوطات، وقد ظلت هذه المدرسة عامرة حتى سقوط بغداد على أيدى المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

كما كان لمسلمى الهند إسهام وافر فى هذا المجال لا سيما المخطوطات العلمية، فعلى سبيل المثال نذكر المخطوطة التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٧٩م والمحفوظة فى المكتب الهندى بلندن، وهى مصنفة تحت بند (تشريح).

أما بلاد فارس فكان لها نصيب وافر فى هذا المجال، ولعل أقدم مخطوط باق باللغة الفارسية والمعنون بـ " الخصائص الحقيقية للعقاقير" لأبى منصور موفّق بن على الهراوى يوضح لنا مدى السبق لبلاد الفرس فى هذا المجال، وهناك مخطوط فارسى محفوظ بمتحف المترو بوليتان يرجع إلى عام (١٥٦٠ - ١٥٨٠م)، ويمثل مولد البطل القومى الإيرانى (رستم) وكذلك مخطوط لشرف الدين بن على محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ويعود تاريخه إلى عام ١٤٦٥م، ويوضح مجموعة متنوعة من العمليات الجراحية.

أما بلاد الأندلس، فقد ظل فيها الجدل قائما بين المتشددين فى مسألة التصوير ومدى مشروعيته، ولم تصلنا أى مخطوطة مصورة تنتمى إلى التصوير الإسبانى، لذا فقد اقتصر التصوير عندهم فى المخطوطات وبصفة خاصة الطبية على رسم وبيان الآلات التى تستخدم فى الجراحة.

المخطوطات العثمانية

يعتبر عصر السلطان محمد الفاتح هو العصر الذى شهد بدايات فن تصوير المخطوطات العثمانية. ولعل أشهر هذه المخطوطات قصيدة " اسكندر نامه" التى نظمها الشاعر التركى " أحمدى" ونسخها الخطاط حاجى بابا المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. أما المخطوطات العلمية فكان أهمها كتاب (الجراحة) من نسخ الخطاط " شرف الدين رئيس مستشفى مدينة أماسيا "، وهى مقدمة للسلطان محمد الفاتح فى سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م وتحتوى على ١٤٠ صورة توضح كيفية إجراء العمليات الجراحية، وهى محفوظة أيضاً بالمكتبة الأهلية فى باريس.

وتحتفظ مكتبة السليمانية بثلاثة مخطوطات توضيحية لديسقوريدس ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى.

وبالمتحف الإسلامى بمدينة القاهرة مخطوط عثمانى يرجع إلى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م وهو تاريخ النسخ، وهذا المخطوط من تأليف "أحمد بن جعفر الغافقى وهو محفوظ تحت رقم ٣٩٠٧ بعنوان: الأدوية المفردة والفوائد الطبية للنباتات والأعشاب" ويتحدث، كما يقول العنوان عن الحشائش والنباتات الطبية ويزدان المخطوط ببعض صور النباتات والأشجار والمياه ولم يوضح المخطوط اسم الفنان الذى رسم الصور.

وتحتفظ مكتبات العالم الكبرى بأعداد لا بأس بها من المخطوطات العثمانية، نظراً لأهميتها وطريقة إخراجها، والحق أن الأتراك العثمانيين قد أسهموا بقسط وافر فى هذا المجال، وذلك بتشجيعهم للقائمين عليه سواء فى مقر السلطنة، أو فى الولايات، الأمر الذى ساعد على نسخ وتأليف عدد ضخم من هذه المخطوطات.

كما يضم متحف قصر العينى الطبى عدداً من المخطوطات تعود إلى العهدين المملوكى والعثمانى ومنها مخطوط تشريح العين لشمس الدين بن الحسن الكحال. نسخه بالفارسية صدر الدين أحمد بن محمود الحسين عام ٨٦١هـ/١٤٥١م. وهناك مخطوط فى أمراض العيون يعود للعهد العثمانى بعنوان تذكرة الكحالين تأليف عيسى بن على يرجع لعام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، كما توجد نسخة من تذكرة داوود لمؤلفها داوود الأنطاكى ترجع إلى عام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م، كما يحتفظ المتحف بجريدة طبية متخصصة تسمى "يعسوب الطب" تحتوى على وصفات طبية لعلاج بعض الأمراض وقد طبعت فى ٩ ربيع الآخر عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م.

أحوال مصر العلمية زمن العثمانيين

درج بعض الباحثين على ترديد عدد من الآراء التى أطلقتها مجموعة من الرحالة والمستشرقين دون بحث، أو تمحيص، مما جعلها أموراً مسلماً بها، ولعل ما يهمنا من هذه الآراء هو ما يخص تاريخ مصر فى العهد العثمانى، سيما ما يتعلق بالناحية العلمية فقد كان من الشائع أن جميع مناحى الحياة فى مصر قد أصابها التدهور، فالاقتصاد أصابه الشلل والثقافة اضمحلت والفنون تراجعت،

وغير ذلك من الأمور، بيد أنه بالدراسة والبحث المتأنى أمكن تفنيد تلك الآراء، فالاقتصاد مثلاً لم يصب بالركود التام بسبب تحويل طرق التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، حيث استخدمت طرق أخرى لكن الاقتصاد استعاد قوته والدليل على ذلك كثرة عدد الوكالات التجارية التى شيدت فى تلك الفترة.

أما الثقافة فكانت انعكاساً لطبيعة العصر وما يعتريه من متغيرات عديدة، أما الفنون فقد كانت دائماً ما تطرأ عليها تغييرات تبعاً لهوية المشتغلين بها والمواد التى تستخدم فى تصنيعها، وقد وصل إلينا العديد من النماذج فى مختلف الفنون لا تقل روعة وإحكام صنعة عن مثيلاتها التى تنتمى إلى عهود أخرى.

والذى يهمنا فى هذا السياق هو الحالة العلمية فى ذلك العهد والتى أصابها التدهور نفسه الذى أصاب جميع النواحى فى مصر.

وليس من الإنصاف أن نحمل ذلك العهد المسئولية عن هذا التدهور، فمن المعروف أن الحياة العلمية قد اعتراها الضعف منذ أواخر العهد المملوكى، واستمرت لفترة فى بدايات العهد العثمانى.

ولكن عندما استقرت الأمور وهدأت الفتن، دبت الحركة فى أوصال الحالة العلمية وبصفة خاصة النواحى الطبية، وكان أكبر مقاصد هذه النهضة هو نسخ وكتابة المخطوطات الطبية وشروحاتها والتعليق عليها.

المخطوطات الطبية

كان للطب فى العصور الوسطى وما تلاها حتى بداية القرن التاسع عشر أضلاع ثلاثة هى: (الطبيب - المخطوطة - المنشأة الطبية) وكما سبق أن رأينا هذا الترتيب هو المنطقى من حيث الأهمية. وإذا أردنا الحكم على عهد من تلك العهود السابقة يجب أن نأخذ فى اعتبارنا تلك الأضلاع الثلاثة. ولكن عندما تناول الباحثون العهد العثمانى أقروا أن النواحى الطبية فى مصر بلغت منتهى السوء، وذلك لافتقار ذلك العهد إلى منشآت طبية ضخمة تقدم الخدمات الطبية لأبناء الشعب. وحتى لا نبتعد عن الحقيقة وجادة الصواب فإننا يجب أن نبحث فى أضلاع المثلث الثلاثة وليس ضلعاً واحداً حتى يكون حكمنا صائباً وقريباً من الحقيقة. وفى رحلة البحث فى تلك الأضلاع تم التعرف على أسماء عدد كبير من الأطباء الذين هم عماد تلك المهنة وسبق أن ذكرنا العديد من أسمائهم. أما الضلع الثانى، وهى المخطوطات الطبية فقد دهشت للكم الكبير

الذى وجدته ويرجع لفترة الحكم العثمانى، والذى إن دل على شىء فإنما يدل على وجود حركة علمية طبية نشطة طيلة هذه الفترة، وأن هناك علماء أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على هذا التراث، ومحاولة توصيله إلى أكبر عدد ممكن من طلاب العلم، حتى أنه كان يعد من أعمال البر والخير. وإذا كنا توصلنا إلى أن العديد من تلك المخطوطات تم نسخه عن كتب قديمة، فهذا لا يقلل من قيمة هذا الجهد، ولا غرو فقد اعتمدت جامعات أوروبا وحتى بدايات القرن الثامن عشر الميلادى على المخطوطات الإسلامية فى تدريس مناهجها الطبية، كما أن الطب وقف حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على معارفه القديمة ونظرياته الثابتة إلى أن تم اكتشاف الدورة الدموية الكبرى على يد (وليم هارفى) وبدايات علم الباثولوجى.

هذا وقد استطعت الحصول والاطلاع على العديد من النسخ المخطوطة التى ترجع لتلك الفترة، فاخترت منها ما هو مفيد فى مادته، غزير فى معلوماته، وسوف أبدأ بعرضها حسب تاريخ نسخها من الأقدم إلى الأحدث.

ولكن قبل أن أبدأ بعرض المخطوطات الطبية العثمانية وجدت من الأفضل التنويه إلى أقدم جزء من مخطوطة وجد فى حفائر مدينة الفسطاط من مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض والمعروضة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، وهو عبارة عن وصفة طبية لاستعمال ماء الشعير والحلبة لعلاج الطحال والأرحام.

كما وجدت وصفة طبية تعود للعهد المملوكى ولكنها لم توضح لأى شئ تستعمل. كما وجدت جزءا من مخطوطة تشرح بطريقة السؤال والجواب كيفية حدوث الأمراض وأعراضها وترجع أيضاً إلى العهد المملوكى، كما وجدت وصفة طبية للطبيب ابن العفيف طبيب السلطان برسباى الذى كان يعانى من داء فى جوفه. وهذه الأجزاء من المخطوطات محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بمدينة القاهرة.

١- مخطوطة "الموجز فى القانون"

- للإمام علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى المعروف بابن النفيس.

- نسخت هذه المخطوطة عام ٩٠٥ هـ وقام بنسخها " قاسم بن موسى فقيه " فى أواخر شهر رمضان، وهى محفوظة فى مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود

بالرياض بالمملكة العربية السعودية. رقم الحفظ ٢٩٨٥، وتم نسخها بالخزانة العامة بالرباط .D578

ونظرة إلى تاريخ النسخ نجد أنه يسبق مباشرة الفتح العثمانى مما يجعله لا ينتمى إلى فترة البحث، ولكن سبب البدء به أنه كان نواة لعدة نسخ تم نسخها فى فترات لاحقة لهذا التاريخ على أربعة فنون، الأول: فى قواعد أجزاء الطب العلمية والعملية، الثانى: فى الأدوية والأغذية المفردة والمركبة، والثالث: فى الأمراض المختصة بعضو دون عضو، والرابع: فى الأمراض التى لا تختص بعضو دون آخر وأسبابها وعلاماتها ومعالجتها.

وبالنظر فى دراسة الفن الأول، نجد أن القسم النظرى من فن الطب يشتمل على علم بأحوال بدن الإنسان، وعلم بالأسباب، وعلم بالدلائل، ويشتمل كذلك على بحث عن أمزجة الإنسان وربط هذه الأمزجة بجغرافية الأرض والعمر وبصحة الأعضاء وبشكل القوام الإنسانى.

وقدم لنا الكاتب مفهوماً آخر للأرواح، فهى عنده ليست النفس، كما جاءت فى الكتب السماوية ولكنها جسم لطيف بخارى يتكون من طاقة الأخلاط وهذه الأرواح هى الحاملة للقوى. وفى هذا الباب نجد شرحا للحواس الخمسة المدركة للظاهر، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وكيف ندرك بها الأشياء، والحواس المدركة للباطن كإدراك الخيال والفهم.

وتعرضت المخطوطة لبحث بعض الأمراض التى تنتشر فى فصل بعينه من فصول السنة، كانتشار الزكام ونزلات البرد والسعال فى فصل الشتاء.

وعرف الكاتب فى بحثه أن الحياة فى مكان معين له مواصفات جغرافية ومناخ محددان لها تأثير على صحة الإنسان، فالتربة الجبلية مثلاً تصلب الأبدان، والهواء البارد يحسن الهضم ويقوى الجسد.

أما الفن الثانى فى هذه المخطوطة فقد قدم لنا الأمراض التى تصيب عضواً بعينه كالكبد الذى يصيبه الاستسقاء وعلامات هذا المرض وطرق علاجه وليس ذلك فقط بل تطور المرض وما يترتب عليه من أمراض أخرى، وعلى المنوال نفسه تعرض لأمراض أخرى كقرحة الأمعاء وأنواع الإسهال.

وجدير بالذكر فى هذه المخطوطة أن العلاج كله كان بالمواد الطبيعية كالفلفل والثوم والزعفران، وباستخدام الأعشاب كورق الحنظل والدهانات كدهن الورد.

وفى نهاية المخطوطة حمد المؤلف ربه وشكره ودون تاريخ كتابة المخطوطة.

٢- مخطوطة "الشفا فى الطب المسند عن السيد المصطفى"

- تأليف "أحمد بن يوسف التيفاشى".
- محفوظة بدار الوثائق القومية تحت رقم ٢٣١٧ طب تيمور.

ألف هذا الكتاب فى الطب النبوى، وهو تلخيص لكتاب الحافظ الإمام الكبير "أبى نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحق الأصفهانى".

وقد حرص الأصفهانى فى كتابه على أن يورد الأحاديث النبوية الخاصة بالطب من عدة طرق للإسناد، حتى أن الحديث الواحد أحياناً ما بلغت طرق إسناده ثلاثين طريقاً، ولعل ما دفعه لذلك هو أن تأنس النفوس والأسماع للأحاديث عندما تجدها تأتى من عدة طرق وبأسانيدها كاملة وخاصة أن أكثرها أحاديث غريبة مجهولة عند أكثر المحدثين؛ ولذلك قام المؤلف "أحمد بن يوسف التيفاشى" بتلخيص الكتاب، فحرر الأحاديث من أسانيدها حتى لا يبقى منها إلا الحافظ ابن نعيم والصحابى الذى نقل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسقط مكرر الأحاديث فلا يثبت منه إلا لفظة تتضمن زيادة معنى مستفاد فيورد تلك اللفظة وناقلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدف من ذلك التيسير على طلبة العلم وعلى من أراد حفظ هذه الأحاديث الشريفة.

وقد أبقى على تراجم الكتاب وفصوله، كما هى فى كتاب أبى نعيم، فالكتاب مقسم إلى سبع مقالات، الأولى فى تقديم المعرفة وفضل صناعة الطب وما جاء فى تعلمه والحث عليه والثانية فى "معرفة تركيب البدن وترتيب الصحة"، والثالثة فى "ذكر أنواع العلل ومعرفة علاج كل نوع منها"، والرابعة فى "معرفة العقاقير ومنافعها" والخامسة فى "حفظ المريض بالحمية وتدبير الناقة بلزوم العادات وحفظ الأبدان بالأشياء ومعرفة قوى الأغذية والأشربة"، والسادسة فى "الفواكه" والسابعة فى "اللحمان وما يصنع منها"، ثم أخيرا زيادات يختتم بها الكتاب.

وفى كل مقالة نجد أبوابا تشمل تفاصيلها، فمثلا المقالة الأولى: "فى تقديم المعرفة وفضل صناعة الطب.." نجد بابا يحث على الطب والتداوى، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء".

وباب آخر فى إباحة إحضار الطبيب لمداواة المرضى، حيث إن النبى صلى الله

عليه وسلم أرسل طبيبا إلى "أبى كعب" فكواه وهناك باب فى معرفة الأمراض بالجس، حيث قال سعد مرضت مرضا فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده الشريفة بين ثديى حتى وجدت بردها على فؤادى فقال إنك رجل مفؤد (به داء القلب) فأت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب.

وهناك باب آخر فى تقديم المعرفة فى صناعة الطب واجتناب من لا يحسن الطب فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن".

وهناك باب فى إباحة مداواة النساء للرجال غير ذوات المحارم، فينسب إلى أم عطية أنها قالت غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رجالهم وأصنع لهم الطعام وأجبر عن الجرحى وأداوى المرضى.

وأخيرا باب عن النهى عن التداوى بالحرام فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من تداوى بحرام لم يجعل الله فيه شفاء".

وعلى المنوال نفسه جاءت فى مقالات الكتاب، ومن أبوابه المهمة، باب فى الحقن والخلاف حول إباحتها وكرهها ومن رآها نافعة، وخلاصته فى قول أبى بكر بن أبى عاصم، حيث قال: "إذا قال أهل العلم بالطب والمعرفة دواء هذا الداء الحقنة كان له أن يحتقن لقوله

صلى الله عليه وسلم " تداووا فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء".

وباب مهم آخر فى فضل البسملة وأنها تقى من أقوى سم "سم ساعة" عن الكلبى قال لما أقبل خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر الصديق يريد الحيق قال فبعثوا إليه عبد المسيح الغسانى فقال له خالد: من أنت لك خمسون وثلثمائة سنة قال ومعه سم ساعة يقبله بيده فقال له خالد: ما هذا الذى معك، قال: سم ساعة قال ما تصنع به، قال: أتيتك فإن يكن عندك ما يسرنى ويوافقنى وأهل بلدى قبلته وحمدت الله وإن يكن الأخرى لم أكن أول من ساق الذل إلى أهل بلده فآكل من هذا السم وأستريح من الدنيا فإنما بقى من عمرى اليسير، قال خالد هاته فأخذه من يده ووضعه فى راحته، ثم قال بسم الله وبالله رب الأرض والسماء بسم الله الذى لا يضر مع اسمه داء، ثم أكله فعجلته عشية، ثم عرق فأفاق فكأنما نشط من عقال فانصرف إلى قومه فقال يا قوم جئتكم من عند شيطان يأكل سم ساعة ولا يضره فعالجوهم.

ومن أهم المقالات والأبواب المقالة السابعة فهى مقارنة بين أنواع اللحوم وفوائدها وأضرارها فمثلا لحم البقر غليظ بارد يهيج المرة السود، أو يصلح أكله لمن كد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عليكم بألبان البقر فإنها دواء وأسمانها شفاء وإياكم ولحومها فإن لحومها داء".

أما لحوم الخيل فهى حارة غليظة تولد دما غليظا، وفى طعمها حلاوة. عن جابر رضى الله عنه قال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمير".

ويختتم الكتاب بقول الكاتب هذا كتاب الشفا فى الطب المسند عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

٣- مخطوطة مختصر تذكرة الإمام السويدى

هذه المخطوطة هى مختصر "التذكرة الهادية والذخيرة الكافية فى الأدوية المفردة" لصاحبها "إبراهيم بن محمد الدمشقى بن السويدى".

- طبعت فى بولاق سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.

وقد اختصرها عبد الوهاب الشعرانى فى عام ٩٤٣هـ- ١٥٣٦ م أى فى ق١٠هـ- ق١٦م.

ولهذه المخطوطة منهج واضح قائم على ترتيب أمراض الأعضاء من أعلى عضو ونزولاً حتى القدمين.

ولذلك نجدها تبدأ بتقديم علاج الصداع بأنواعه المختلفة، وتلاه علاج الدوار، ثم السبات والجمود وغيرهما، وعندما انتهى من الرأس نزل إلى البطن فعالج المغص والإسهال... وهكذا.

ومن الجميل فى هذه المخطوطة أنها شملت الطرق والوسائل المختلفة للعلاج، فهناك الدهان كدهان الرأس بدهن البنفسج، وهناك الشراب كشرب عصارة ورق الكرنب، وكذلك التقطير كتقطير ورق الصفصاف فى الأنف، والضمادات كتضميد الرأس بخليط من الخل ودهن الورد، ومن هذه الوسائل العلاجية كذلك لبس خاتم مصنوع من حافر حمار فهو يفيد فى علاج الصرع لسنة كاملة.

والمخطوطة لم تقدم العلاج من الأمراض فقط بل قدمت أيضاً طرقاً للوقاية من الأمراض، فمثلاً شم النرجس يقى من نزلات البرد، وتلطيخ المنخار من داخل الأنف بالمر يقى من نزلات البرد العادية والمزمنة.

كما قدمت عرضاً للأطعمة التى تزيد من شدة المرض، أو تساعد على علاجه فمثلاً تناول التوت الحلو والكرات والثوم بكثرة يزيد من الصداع.

وشمل هذا المنهج العلاجى أعراض المرض وعلاج المرض المضاد له كعلاج السهر والسبات، واللطيف الذى نذكره هنا، أن الكاتب قدم أدوية طبيعية بديلة للحبات المنومة مثل شرب حليب الماعز، وشم الزعفران ووضعه تحت الوسادة، وغسل الوجه ببذر الخشخاش المطبوخ مع قشره.

وإذا وضعناه شبر يمانى تحت الوسادة، فإننا سننام نوماً عميقاً ونحلم أحلاماً سعيدة.

ولم يتوقف الكاتب فى عرض منهجه عند هذا الحد، بل نجده يقدم علاجاً للأعراض الجانبية للأدوية، فمثلاً حين قدم أدوية مسهلة نجده يعقبها بوصف كيفية دفع مضار هذه الأدوية باستخدام الصمغ العربى.

وفى نهاية المخطوطة وبعد أن عرض لنا مؤلفها الأمراض التى تصيب الإنسان من رأسه وحتى قدميه، نجده يقدم فصولاً خاصة - ليست فى كتاب السويدى - بدأها بكيفية علاج عضة الكلب ولدغة الأفعى والعقرب.

وتلاها بكتاب لطيف وغريب عن "القبول والمحبة" وفيه وصفات وردت تحبب الناس فى الإنسان الذى يستخدمها، مثل وضع ثلاث ريشات كاملات من ريش الطاووس وتعليقها يجلب المحبة.

وآخر هذه الفصول فصل عن "الدبوغ من الثياب" وفيه وصفات عديدة لإزالة البقع من الثياب، كإزالة بقع الدم والبطيخ والحمص.

وكعادة القدماء فى الاعتراف بالجميل لمن سبقوهم، فإن الكاتب "الشعرانى" فى نهاية المخطوط يقدم جملة من أسماء الحكماء الذين نقل عنهم السويدى والذين وصل عددهم إلى أربعمائة حكيم.

٤- مخطوطة «عرف البان فيما ورد فى الباذنجان»

لصاحبها ابن طولون شمس الدين محمد بن على الدمشقى الصالحى.

جاءت هذه المخطوطة فى ثلاث ورقات فقط، وعلى الرغم من ذلك فقد تناولت موضوعاً مهماً وهو معرفة حقيقة الحديث النبوى عن الباذنجان. مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٢ طب تيمور.

فقد ورد حديث طويل السند انتهى إلى "ابن عباس" أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى وليمة رجل من الأنصار فأتى بطعام فيه باذنجان فتناول الرسول صلى الله عليه وسلم باذنجاناً فى لقمة، ثم قال "إنما الباذنجان شفاء من كل داء".

وفى رواية أخرى بإسناد عن أبى هريرة يعنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال: "كلوا الباذنجان فإنها شجرة رأيتها فى جنة المأوى وشهدت لله بالحق وشهدت للنبى ولعلى بالولاية فمن أكلها على أنها داء كانت داء ومن أكلها على أنها دواء كانت دواء".

وفى رواية ثالثة رويت عن أنس بن مالك: "كلوا الباذنجان وأكثروا فإنها أول شجرة آمنت بالله وأنها تورث الحكمة وترطب الدماغ وتقوى المثانة وتكثر الجماع".

وهذا الحديث - بكل رواياته - كاذب موضوع على النبى صلى الله عليه وسلم - بإجماع أئمة الحديث، وسند كل رواياته يؤكد ذلك وأيضاً متن الحديث نفسه لا يتفق والأحاديث النبوية الصحيحة.

فمن وضع هذا الحديث لا يعنى بالحديث النبوى ولا يعيه، ولذلك رأى الكثير من الأئمة أن واضعيه هم الزنادقة الذين أرادوا تشويه الإسلام والتشكيك فى حكمة النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد حاولوا المقارنة بين هذا الحديث وبين حديث آخر ورد فى أن "ماء زمزم لما شرب له"، ولكن ذلك مردود عليه بأن كل أئمة الحديث كذبوا حديث الباذنجان وقالوا موضوع، لكن حديث زمزم قيل إنه صحيح، أو حسن، أو ضعيف لكن لم يقل إنه موضوع أبداً.

وختم المؤلف مخطوطته بقوله الله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم، وهى مدونة بخط المؤلف عام ٩٥٣هـ ق ١٠هـ: ق ١٦م.

٥- مخطوطة «المعتمد فى الأدوية المفردة» لصاحبها يوسف بن عمر بن على الغسانى

محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢١٢.

جاءت هذه المخطوطة فى ١٤٦ ورقة، واتبعت منهجاً قائماً على أساسين :

١ - وضع علامة لكل كتاب من أمهات الكتب التى استقى منها المؤلف مادته، وهى خمسة كتب: "العشاب الجامع لقوى الأدوية والأغذية " ورمزه ع، "المنهاج"

ورمـزه ج، كـتـاب "للحكم أبـى الفـضـل حـبش بن إبراهـيم" ورمـزه ف، وكـتـاب "للأزهرى" ورمزه ز، أما "ابن الجزار" فلم يرمز له بأى رمز بل كتبه ابن الجزار.

٢ - المعـالجـة على ترتيب حـروف المعـجـم ليسـهل تناول المخطوطة (كـعـادة القدماء).

والمخطوطة أيضاً مقسمـة إلى قسـمين انتهى الأول عند حـرف "الصـاد" وبدأ الثانى من حرف "الضاد".

أمـا عـن مـوضـوع المخطوط فـهـو - كـمـا هو واضح من العنوان - الأدوية، وتناولها بكل أنواعها، وبكل مصادرها من أعشاب وثمار وحيوان (برى ، بحـرى) وأحجار كريمة، حتى الطين جعله مصدراً للعلاج وغيرها.

فمن الثمار - على سبيل المثال لا الحصر - استخدم "البلح" كعلاج للإسهال، ولسيلان الرطوبة من الرحم سيلاناً مزمنا ويفيد فى المعدة والكبد ويفـرز اللبن، واسـتـخدم أيضـاً "الخـوخ" فى قـتل الديدان لأن فى ورقـه مـرارة، وما تخـرج منه النواة بسهولة فهو أفضل للمعدة وأسهل هضما.

ومن الحـيـوانات، اسـتـخـدم "الأرنب البـرى" إذا شـوى، وأكل دمـاغـه يقى من الارتعـاش العـارض، وإذا دلكت به لثـة الأطفـال نفع فى الوجع النـاشئ من نبـات الأسنان، وإذا سـرت أنفـحـتـه ثلاثة أيام منعت المرأة من الحـمل، ومنـعت سيـلان الرطوبة من الرحم، واستخدم "النمر" فوصفه بأنه حيوان مفـترس أصغـر من الأسـد حـجـمـاً لكنه منقط الجلد بنقط سـوداء، ودمـه إذا لطخ به الكلف أبرأه، ودهنه من أنفع العـلاجـات للفـالج. ولم يهـمل الحـيـوانات البـحـرية فـاسـتـخـدم "الأرنب البحرى" وهو حيوان سام رماده يجلو البصر.

ومن الطيور المستخدمة فى العلاج "الهدهد" فلحمه إذ أطبخ وماؤه إذا شـرب نفع من آلام القـولون، وأفـاد فى تقـوية الذاكـرة، ودمـه إذا قطر فى العـين شـفى بياضها، وإذا ذبح على باب بيت حماه من السحر.

ومن النباتات البـحرية المستخدمة "البـد" وهو المرجان، وهو نبـات بحرى ينبت فى جـوف البـحـر وإذا خـرج منه اشـتـد وصلد، ويدخل هذا النبـات فى الأكـحـال فينفع فى وجع العين، وينفع فى علاج خفقان القلب.

ومن الأحجار الكريمة المستخدمة فى العلاج "الياقوت" وهو ثلاثة أنواع أصفر وأحـمـر وكحلى، والأحـمـر أنفسـهـا ويزداد حسـنا إذا سـخن، والأصفـر أقل صـبـرا

على النار، أما الكحلى فلا يصبر على النار وقيل إنه ينفع جمود الدم إذا علق وينفع فى الوسواس والخفقان وضعف القلب ومقاومة السموم.

أما الأعشاب والنباتات فهى كثيرة، ونجده يقدم وصفا دقيقاً لها وأنواعها ورائحتها وأصلها اللغوى - إن أمكن - و أماكن زراعتها.

ومن ذلك "البادنجان" فاسمه فارسى معرب ويفيد فى المعدة التى تقيأ و"الأقحوان" هو البابونج ويعرف فى مصر بالكركاس، وبعضهم يجعل الأقحوان نوعاً من أنواع الكركاس، وقال فى موضع آخر له ورق يشبه ورق الكزبرة وزهرة أبيض ووسطه أصفر، وفى طعمه مرارة، وهى صفات - عند المؤلف - لنبات يشبه الرياضيين يزرع فى اليمن، وينفع فى الربو والورم الحار العارض، وإدرار البول والحمى، كل حسب طريقة الاستخدام.

ومما فصله بأنواعه فى هذا المجال "الصمغ" فقدم له أربعة عشر نوعاً ووصف كل نوع من حيث اللون والطعم والرائحة وذكر استخدام كل منها وطريقة استعماله فى العلاج. فهناك صمغ البلاط وصمغ السمان وصمغ العظمى وصمغ اللوز وصمغ الزيتون وصمغ الصنوبر وغيرها.

ولم يغفل المؤلف استخدام الطين وأنواعه فى العلاج، فهو مفيد جداً فى كثير من الأمراض وخاصة "الطين المختوم"، فهو نوع يفيد فى قتل سموم الحيوانات الفتاكة، وينفع فى علاج الأورام والربو ومشاكل الأمزجة، أما "الطين الأرمنى" فيجلب من أرمينية وهو يابس جداً يميل لونه إلى الصفرة ويسحق بسهولة وقد يسمى حجراً أرمنياً وينفع فى قروح الأمعاء ودوار الرأس والقروح المتعفنة فى الفم، وفى علاج الربو وضيق التنفس والحمى الشديدة وهناك "الطين المصرى" و"الطين النيسابورى" وغيرهما.

وفى نهاية هذه المخطوطة المستفيضة فى أنواع الأدوية ومصادرها، والمكتوبة بخط المؤلف النسخ الضعيف نجده يحمد الله ويشكره، ويطلب منه الثواب ويصلى ويسلم على رسوله المختار، ثم يدون تاريخ كتابة المخطوطة فى ٢٩ شعبان من عام ٩٦٩هـ أى ق ١٠هـ: ق١٦م .

٦- مخطوطة تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب " أو " تذكرة داود " للشيخ داود الضرير الأنطاكى.

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم ٢٨٧٢ .

وتعد تلك المخطوطة من أشهر وأشمل المخطوطات التى اعتمد عليها الأطباء طيلة فترة الحكم العثمانى، ولسنا نبالغ إذا قلنا إنها مازالت تستعمل حتى الآن كأحد أهم روافد الطب الشعبى، والنسخة التى بين أيدينا طبعت عام ١٣٤٠هـ بالمطبعة العثمانية، وهى مصححة على النسخة الأصلية التى طبعت عام ١٢٨٢هـ، وبها من هذه المخطوطة كتاب "النزهة المبهجة فى تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة " للمؤلف أيضاً ويقول الشيخ داود إنه قام بكتابة هذه المخطوطة فى شهر ربيع الآخر سنة ٩٧٦هـ ١٥٧٠م، وكان عمره آنذاك ٢٦ عاماً.

وتقع المخطوطة فى ثلاثة أجزاء، ويبلغ عدد صفحاتها ٦٤٧ صفحة من القطع الكبير، ويقول الشيخ إنه استقى مادتها من نحو مائة كتاب من كتب الأقدمين، لذا فقد جاءت غزيرة فى مادتها، غنية فى معلوماتها. أما عن تقسيمها وتبويبها فقد ذكر داود أنه قسمها إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة فقد تناولت تعداد العلوم المذكورة فى هذا الكتاب وحال الطب معها ومكانته وما ينبغى له ولمتعاطيه وما يتعلق بذلك من الفوائد. ويبحث الباب الأول فى كليات ذلك العلم والمدخل إليه، والباب الثانى فى قوانين الإفراد والتركيب وأعماله العامة وما ينبغى أن يكون من الخدمة فى نحو السحق والقلى والغلى والجمع والإفراد والمراتب والدرج وأوصاف المقطع والملين والمفتح إلى غير ذلك، والباب الثالث فى المفردات والمركبات وما يتعلق بها من اسم وماهية ومرتبة ونفع وضرر وقدر وبدل وإصلاح؛ مرتبا على حروف المعجم، والباب الرابع فى الأمراض وما يخصها من العلاج وبسط العلوم المذكورة. وما يخص العلم من النفع وما يناسبه من الأمزجة وما له من المدخل فى العلاج، أما عن الخاتمة فحوت نكتاً وغرائب ولطائف وعجائب.

كما ضمت المخطوطة الكثير من المعلومات عن الفلك والروحانيات واشتملت على العديد من الرقى والتعاويذ وما غمض من الحديث ويدانى مرتبة السحر وأساليب الكهان.

وإذا كان الشيخ داود قد أخذ من كتب الأقدمين، كما سبق أن ذكرنا فإنه كان لا يأخذ الوصفة، كما هى، فكان يعمد إلى تجربتها على المرضى ويترك للقدر وللمصير أمر نجاحها، أو فشلها، بل يفسر ويحلل الوصفة ليرى مدى فعاليتها فى الشفاء فنراه يقول " إذا جهلنا مزاج مفرد - دواء - وضعنا منه قدراً معيناً فى إناء صغير وركبنا عليه أنبوباً للتبخير واستقطر ماء فيسيل منه بالضرورة جزء مائع وجزء زبدى ويتخلف آخر ويصعد آخر".

وقد انتهج الشيخ داود الحكيم لنفسه خطة فى البحث تتكون من عشرة قوانين سار عليها واتخذها أسلوبا لبحثه وهذه القوانين هى:

١ - ذكر الأسماء بالألسن المختلفة.

٢ - الماهية والصفة.

٣ - بيان الحسن والردىء.

٤ - ذكر الدرجة فى الكيفيات الأربعة.

٥ - مدى الاستفادة والمنافع فى سائر أعضاء البدن.

٦ - كيفية التصرف فيه مفرداً، أو مع غيره.

٧ - ذكر المضار، أو (يسمى بالأعراض الجانبية حديثاً).

٨ - كيفية إصلاح هذه المضار ومعالجتها.

٩ - ذكر الكمية والمقدار المناسبين.

١٠ - ما يحل محله، أو يقوم مقامه إذا فقد (أى البديل).

ثم أضاف لتلك القوانين العشرة ملاحظتين فى غاية الأهمية وهما:

أ - الزمان الذى يقطع (يجنى) فيه الدواء ويدخر (يخزن) حتى لا يفسد.

ب- موطن الدواء من حيث التربة التى فيها وحالة الطقس من برودة، أو حرارة.

ويعتبر الباب الثالث من التذكرة أهم أبوابها على الإطلاق، حيث تضمن المفردات والتركيبات مرتبة على حروف المعجم فأورد عدة مئات من أسماء النبات والحيوان والمعادن والعقاقير المتخذة منها، أو من عناصر، أو أملاح كيماوية، وخص الجزء الثانى من الكتاب بالحديث المفصل عن الأمراض أسبابها وأعراضها وكيفية معالجتها، كما رتب الأمراض أيضاً على حروف المعجم جرياً على عادة القدماء.

إن المتأمل لهذه المخطوطة الرائعة للشيخ داود بن عمر الأنطاكى ليعجب كيف تحقق لهذا الطبيب الضرير هذا الكم الهائل من المعلومات ويعتبر هذا السفر من أعظم ما خط فى العهد العثمانى، بل أعظمها على الإطلاق وهو إن لم يخط غيره فى هذا العهد لكفاه وما شعر الناس بنقص، ومن ثم فإنه بحق درة المخطوطات الطبية.

٧- مخطوطة "منهاج الدكان" لمؤلفها " محمد بن عثمان الحسن التونسى.

- محفوظة بدار الوثائق القومية تحت رقم ١٢٢٨ طب تيمور.

والاسم، كما ورد فى المخطوطة "منهاج الدكان ودستور الأعيان فيما ينبغى أن يحتوى عليه من الأشربة والمعاجين والجوارشات والربوب والأقراص والسفوفات والأكحال والاشيافات والدهان".

وكما هو واضح من هذا الاسم، فإن المخطوطة اهتمت بدراسة الصيدلة فعنيت بالأدوية ووسائلها المختلفة .

وجعلت من هذه الوسائل أبواباً لها، وهى خمسة وعشرون بابا وتوقف الحديث عن وسائل العلاج عند الباب العشرين، أما الأبواب الخمسة الباقية فهى تكملة للجوانب العلاجية.

وعلى سبيل المثال فهناك باب يبحث كيفية اتخاذ الأدوية، وفى أى زمان، وفى أى مكان وكيف تخزن وما يفسد منها وصفة الفساد وما يمنع فسادها وباب آخر فى إبدال الأدوية التى يتعذر وجودها فى الوقت الحاضر ودعت الضرورة إلى تركيبها.

والباب الأخير من أهم الأبواب لأنه وضح فيه حرص الكاتب على صحة مرضاه فوصف للصيادلة "امتحان الأدوية المفردة والمركبة ووصف حال الجيد منها".

نذكر مثلاً عن "دهن النارجيل" هو دهن من الجوز الهندى يفرق بين الخالص منه والمغشوش أن السالم يجمد فى زمان الشتاء ورائحته طيبة والمغشوش بالحليب لا يجمد ورائحته أقل من الطيب.

ونبات "الجاما" ينبغى أن يستعمل من الجاما المجلوب من جبال الروم وقد يجلب أيضاً من نواحى بلاد العجم وشكل هذا النبات وماهيته كأنه كف النسر المعروف بالأسقولوفندريون وزهره أحمر خفيف فيه عطر يسير ويكاد لا يظهر فيه الطعم ومالا يستعمل منه المجلوب من جبل لبنان.

وقد وعد الكاتب أن يضع كتاباً مفرداً فى هذا الموضوع - ما يصلح من الأدوية وما لا يصلح والبدائل لها - وذلك لأن هذا الموضوع سيخرجنا عن

موضوع المخطوطة ولا يتسع المجال له. وقد اكتفى فى هذه المخطوطة بذكر ما ينبغى استعماله والضرورى من الأدوية - من وجهة نظر المؤلف - والذى وقع له بالتجربة، أو ما نقله عن غيره من كبار الأطباء فى هذا المجال.

وحرص فى أبوابه على ذكر هذا المصدر لمعلوماته ومن أى كتاب استقاها، مثلاً فى باب الأشربة يقول عن "شراب الورد" هو من كتاب ابن رشد و" شراب وينارى" من دستور ابن بيان، وفى باب الأشياف يقول "شياف الفاخر" عن الرشيد ابن صغير و"أشياف أصفرلين " من دستور البيمارستان.

والأدوية المركبة فى هذه المخطوطة مكونة من مواد طبيعية، ومركبة بدقة مع وصف نفعها. فـ "شياف السنبل" يكتحل به من داخل ويطلى به من خارج فينتفع من بقايا الأرماد ويحلل غلظ الجفن، وهى اقاقيا وصمغ عربى وراسخت وتوبال النحاس من كل واحد عشرة دراهم سنبل هندى وثلاثة دراهم زعفران ودرهم ونصف الدرهم أفيون يسحق الجميع ويعجن بماء الورد ويجفف فى الظل، و"شراب التفاح" المخفف المقوى للمعدة والقلب يؤخذ من التفاح المخصب السالم من العفن يمسح بخرقة صوف، أو كتان خشن وينقى من حبة عوده ويدق فى جرن صوان، أو رخام ويعتصر ويؤخذ من الماء بعد تصفيته وغليه وقشط رغوته لكل رطل سكر أربع أواق من ذلك الماء وإن أردته أجود فيكون لكل رطل سكر نصف رطل ويؤخذ له قوام ويرفع ويستعمل، وهكذا فى كل دواء مقدم فى هذه المخطوطة.

وفى نهاية المخطوطة يدون الكاتب تاريخ تأليفها فى شهر رجب من سنة ٩٨٤هـ أى فى ق ١٠هـ : ق ١٦م.

٨- مخطوطة " أرجوزة فى الختان"

المؤلف "على بن محمد بن على الشربينى".

- محفوظة بدار الوثائق القومية تحت رقم ٨٨٧٤.

هذه الأرجوزة هى الأولى من نوعها التى يتعرض لها البحث، وهى قصيدة شعرية تهدف إلى تناول موضوع واحد هو "الختان"، وقد تحدث عن القيم الفنية والأدبية للقصيدة الشعرية، فاهتمت بالجانب العلمى مع التزام وزن واحد.

وهى وإن دونت فى عدد قليل من الأوراق - ٦ ورقات مقاس ٢٠-١٥٠ سنتيمتراً - إلا أنها تناولت موضوع الختان من جميع جوانبه فحددت أوجه

الختان، وشروطه، والسن المناسبة له، وأفضل علاج لمضاعفاته وقد أوضح لنا المؤلف هذه الجوانب المختلفة لموضوع الأرجوزة فى بدايتها.

وخلال المخطوطة نجد عناوين داخلية تحدد لنا موضوع الأبيات القادمة، وبدأت بذكر أول من اختتن من الرجال والنساء، وهو الخليل "إبراهيم" عليه السلام والذى فعلها بأمر من الله وهو فى الثمانين من عمره، ولم يكن لاهياً عن هذا الأمر ولكنه انتظر أمر الله.

وهناك أقوال مختلفة حول تحديد عمر الخليل فى هذه الحال، وقد أوردها المؤلف بلطف وخبرة، كما أورد عدم موافقته لهذه القصة فمقصود الختان هنا هو الطهور فى البدن كله. وهو رأى "ابن عباس" أيضاً، وهو الموافق للعقل.

وتحدد لنا الأرجوزة السن المناسبة لختان الذكور باليوم السابع للميلاد، وإذا تأخرنا عن هذا الموعد فلننتظر إلى بعد الأربعين، وإذا تأخرنا فعلينا الانتظار إلى سن السابعة، وأفضل الأوقات للختان هو وسط الخريف لأنه أفضل الفصول مناخاً فى مصر.

وعرفتنا الأرجوزة على الأنبياء الذين ولدوا مختونين، وهم عشرة: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ويوسف وسليمان ويحيى (عليهم السلام). واختلف حول ختان النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - فرأت إحدى الروايات أن جده هو الذى ختنه فى اليوم السابع لميلاده.

وللختان أربعة أوجه، أفضلها - كما اختار مؤلف الأرجوزة ومعه العلماء الأطباء - هو الوجه الرابع الذى يمسك فيه الطبيب القلفة بالسبابة والإبهام وينظر بدقة إلى ما يقطع ويتجه فى القطع إلى الشمال، ويستخدم موسياً حاد الشفرة.

وهناك علاج "طبيعى لمضاعفات الختان من نزف الدم، فنستخدم أعشاب الصبر والمر وحطب السفرجل والزعرور، وكذلك الترمس والفول والصمغ والطين الأرمنى، وهو علاج أقره السعدى فى تذكرته.

ولكى نحافظ على صحة المختون فعلينا ألا نطعمه قبل الختان إلا خفيفاً ونطعمه بعد الختان مرق الفروج المخلوط بحصرم وقيل بالتفاح مع استخدام ماء الورد، ثم الكافور وأبيض الصندل، وإذا ما وقع خطأ بعد القطع فالأرجوزة تقدم علاجاً لتداركه وعلاجاً آخر للورم الذى يطرأ على المختون.

وفى نهاية الأرجوزة نجد المؤلف يثنى على أرجوزته ويرى أنها انسجمت فى نظمها وتمكنت من موضوعها ومن ينكر ذلك فهو غير منصف، ثم شكر الله وسأله الرحمة والثواب.

وحدد تاريخ تدوينه لها فى ذى القعدة من عام ١٠٤٥هـ أى فى ق ١١هـ : ق١٧ م.

٩- مخطوطة "المختار فى الطب"

لمؤلفها "على بن أحمد بن هبل التبريزى البغدادى".

- محفوظة بدار الوثائق القومية تحت رقم , ٢٣٥٤

يبدأ هذا الكتاب دون أى مقدمة فبعد البسملة يطالعنا أول عنوان فى المخطوطة وهو "فصل" فى أمراض الدماغ" وهو يوضح لنا منهج المخطوطة فى عرض الأمراض وعلاجها حسب ترتيب الأعضاء من أعلى إلى أسفل.

ويذكر للمؤلف اهتمامه بالتفاصيل فى كل جزئية يعرض لها وخاصة فى عرضه للأسباب المختلفة للمرض وعلاماته وعلاج كل نوع.

ومن أمثلة ذلك الفصل الأول "فى أمراض الدماغ مرض الصداع" فلهذا المرض أسباب كثيرة منها ما هو خارجى كضربة الشمس، أو الحمام الحار، أو تناول شئ ما كالبصل والثوم، أو تناول شراب عتيق.

ومن الأسباب البدنية، أسباب مزاجية، أو خلطية امتلائية، أو عرض تابع لمرض كتبعة الصداع لأمراض المعدة، أو للسهر والتعب، أو للاستفراغ، أو لإفراط الجماع، أو الغم والهم، ومن الأسباب المزاجية أسباب عن الأمزجة الساذجة، أو الأمزجة اليابسة، أو الأمزجة السوداوية ولكل سبب من هذه الأسباب تفاصيله.

ومن أمثلة ذلك توضيح أسباب "السرسام الحار" المعروف بـ "قرانبيطس" وهو اسم يطلق على مرض هو ورم حار يحدث فى أغشية الدماغ يتبعه حمى حادة وحمرة الوجه والعين وثقل الرأس وصداع وكراهة ضوء وتواتر نبض وسرعته وتشوش نفس واضطراب حركات واختلاط عقل وهذيان وربما اسود معه اللسان، أو أصفر وربما كان هذا المرض فى جوهر الدماغ، أو فى جزء من أجزائه، أو كان عاما ويطلق هذا الاسم على اختلاط يعرض للهذيان مع حمى حادة وسرعة نبض وتواتره وإن لم يكن هناك ورم بل حمى الدماغ واضطراب تبعا لحميات حادة يتراقى عنها أبخرة حارة، أو بسبب مشاركة عضو آخر حمى،

أو ورماً كحدوث هذه الحال فى أورام تحدث فى المعدة، أو الكبد، أو الحجاب، أو الكلى، أو الرحم، أو مجرد سوء مزاج حاد مفرط ملهب للدماغ، أو تابع لذات الرئة، أو ذات الجنب وأكثر ما يحدث هذا المرض تبعا للحميات الحادة وأما سبب هذا الورم الذى يحدث فى الدماغ فلا يكون إلا من ملتهب، أو محترق، أو صفراوى وقلما يكون عن دم صاف، أو عن صفراء ينفذ فى جرم الغشا فتورمه وأما ما يكون عن صفرا محرقة إذا عرض لمن عنده قلة دم فى بدنه قلما ينجو.....إلى آخر الأسباب ويصاحب كل هذه الأسباب الصداع.

وقدمت المخطوطة علاجا لكل سبب من هذه الأسباب، وجعلت لكل علاج فصلا خاصا به، فهناك فصل فى مداواة الصداع الحار بلا مادة" وهو الناشئ عن طول لبث فى شمس حادة فعلاجه بأن يضمد الرأس بخرقتين مشربتين بدهن ورد وخل خمر وماء ورد مبرد وإن كان الزمان صيفا بردت بالثلج وكرر وضعها على الرأس، أو يضمد الرأس ينقله الحمقا وجرادة الفزع وورق الخلاف مدقوقا مع دهن ورد وخل خمر وماء ورد.

وهناك فصل ثان فى علاج الصداع الناشئ عن طول مقام فى الحمام الحار، وهو ضرب بذر قطنً بخل خمر ودهن ورد وماء ورد ويطلى به اليافوخ على خرق كتان مبردة.

والفصل التالى فى "مداواة الصداع الحار مع مادة دموية، أو صفراوية" وذلك بالفصد، فإن لم يكن كافيا بالفصد الصافى إن احتملته القوة والسن وإلا فالحجامة على الساق والكاهل والرقبة والحجامة على الكاهل بليغة النفع، ثم أقبل على الرأس بالأطلية الباردة.

وغذاء المريض بالحوامض كالعدس المقشر المطبوخ بماء الرمان وحليب الخشخاش واللوز وإن كانت الحرارة مع الصداع قوية شرب بذر بقلة السكنجيس وماء تمر هندى وشراب بنفسج. ونلحظ هنا اهتماما باستخدام أنواع عديدة لوسائل العلاج، وكان ينوه عن كل وسيلة بعنوان يكتب بخط بارز فقبل استخدام الحبوب نجد عنوان "حب"، أو "صفة حب" وقبل العلاج بالأشربة نجد عنوان "صفة دواء" وقبل الأضمدة نجد عنوان "ضماد" وهكذا.

ومن ذلك "ضماد" جيد للصداع الحار بأن يؤخذ سويق الشعير وبذر قطونا ويعجنان بماء عصى الراعى، أو بقلة الحمقا، أو ماء الخيار، أو ماء الخس ويضمد به الرأس.

ومنه سقوط نافع لعلاج الصداع نفسه وذلك بالكافور والأفيون متساويين ويعجنان بدهن النيلوفر ويحل منهما عند الحاجة بشىء من دهن بنفسج ويسقط به.

أما الأطلية فتبتدىء بعنوان "طلا جيد" ومنها طلا جيد للصداع المزمن بأن يؤخذ كف من ملح جرش وخل وماء ويعجن به حنا و يخضب به الرأس ويترك ليلة، ثم يغسل من غد بماء فاتر.

أما الحبوب فمنها "صفة حب" يسهل الصفرا فى علاج الصداع الحادث عن المشاركة مع البدن وذلك باستخدام درهمين أهليج أصفر ودرهم صبر ونصف درهم ورد ونصف درهم محمودة وافق يجمع ويحبب ويبتلع بجلاب حار ويضمد الرأس ويقوى بالصندل والطين الأرمنى.

ومن أهم وسائل العلاج الجديدة علينا وجاءت فى هذه المخطوطة استخدام الجراحة فقدمت لنا عملية بزل لمريض الاستسقا الرقى، وهى جراحة دقيقة تتم بأن يجلس المريض على رجليه إن استطاع ويجلس خلفه من يحفظ ظهره ويكبس الماء فى جوانبه حتى يجتمع إلى الأمام ناحية المثانة وإن كان الماء تولد فى ناحية الأمعاء فينبغى أن يتباعد عن السرة بمقدار ثلاثة أصابع من تحت السرة وإن كان ابتداء العلة بسبب الكبد فإلى يسار السرة وإن كان ابتداؤها بسبب الطحال فإلى يمين السرة، ثم كشف الجلد بمبضع حاد حتى ينتهى إلى الصفاق، ثم يسلخ الجلد إلى فوق بالآلة التى يسلخ بها الجلد، ثم يثقب الصفاق بالمبضع حتى ينتهى إلى فراغ البطن، ثم يدخل أنبوبة من نحاس فى البطن حتى يخرج منها الماء بحسب احتمال قوة العليل، ثم يخرج الأنبوب ويرد الجلد وتوضع الرفايد والقضايب ويشد البطن.

وعلى المريض أن يستنشق الأرايح الطيبة ويحتسى من أمراق الفراريج ويتناول من اللحم ما يقويه وتخرج منه القضايب بعد ثلاثة أيام، أو أربعة.

ومن أحدث وسائل العلاج التى يلجأ إليها الأطباء فى عصرنا الحديث "الرياضة" وقد لجأ إليها الطبيب كوسيلة علاجية ناجحة، وذلك منذ نحو ق ١١ هـ . فهى وسيلة من وسائل علاج "الاستسقا اللحمى" فيجب أن يلجأ إليها المريض على خلو المعدة ويحذرها كل الحذر على الطعام.

وهى وسيلة علاجية لليرقان الناشئ عن لسع حيوان ذى سم حار، فينفع المريض جدا الرياضة المحرقة المحللة.

ومما يذكر للمؤلف أيضاً أنه لم يغفل حق سابقيه فى هذا المجال من أمثال جالينوس وأبقراط، فقد نقل عنهم علاجات كثيرة، خاصة أبقراط، وكان يذكر ذلك فى بداية العلاج فقد نقل عن أبقراط العلامات الردية للهجرانيين فقال: "إن أبقراط ذكر تفاصيل العلامات الردية فى مواضع من كتبه مفرقة وأخذ الناس عنه ونقلوا وجربوا وصححوا ما قاله فوجدوه فى غاية الحسن والصدق وإنى سأورد ما قاله على وجهه مع ما يليق لى من أقوال العلماء وتجارب الفضلاء...".

أما ختام المخطوطة فكان بفصل خاص يسمى بـ "تقدمة المعرفة وأحكام فى الهجران" ومعنى الهجران فى لغة اليونان فصل الخطاب وحقيقته وتغير يحدث فى بدن المريض وليس كل المرضى بل أصحاب الأمراض الحادة.

وقد توالت الفصول التى توضح كل ما يخص الهجران من علامات منذرة به، وفى أيامه، وفى أحكام النكس وتدبير من انتكس ممن فارقته الحمى بهجران وأخيرا فى "العلامات الجيدة والعلامات الردية للهجرانيين".

ومثلا من الفصل الأخير هناك علامات ردية فى الغاية تدل على سرعة الهلاك ومنها دون ذلك بمراتب، ومنها اختلاف الحرارة فى بدن المحموم حتى يكون بعض أعضائه حاراً وخاصة البطن وبعضها بارد خاصة الأطراف تصبب العرق وانتصاب العروق الصغار عند الجبين والجفن والترقوة فهو ردى، وبروز الرحم فى المرض الحاد علامة ردية، والسبات مع ضعف النبض ردئ وييبس الجلد بحيث إذا مددته لا يرجع إلى موضعه وضعف المعدة فى المرض الحاد كل هذه علامات ردية.

وقد اختتم المؤلف مخطوطته بذلك وسجل لنا أنه ألفها للشيخ الطبيب "مصطفى بن عبد العزيز" المشهور بالإخلاص وذلك فى عام ١٠٢٤ هـ أى ق ١١ هـ : ق ١٧ م.

١٠- مخطوطة "قمع الواشين فى ذم البراشين" لصاحبها "نور الدين أبى الحسن على بن الجزار".

نسخة خطية فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية تاريخها ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م.

الإدمان ظاهرة اجتماعية سلبية تعانى منها المجتمعات فى عصرنا الحالى، وهناك جهود عظيمة تبذل على جميع المستويات لمحاربة هذه الظاهرة.

وقد رصدت لنا هذه المخطوطة جهوداً عظيمة بذلت لمكافحة هذه الظاهرة، وتعود إلى عام ١٠٥٤ هـ؛ أى ق ١١هـ: ق ١٧م.

فقد بلى المجتمع المصرى بانتشار شراب مسكر عرف بالبرش، وصار إدماناً عند مستخدميه، وكان له من التأثيرات السلبية على الشباب ما جعل المؤلف " ابن الجزار " يهب ليوضح أثر هذا الشراب السلبى على مستخدميه ويسوق الأدلة على تحريمه شرعاً، وينظم شعراً فى هذين الغرضين لعله يكون أكثر تأثيراً على المستمعين.

ومن هنا جاء ترتيب المخطوطة على بابين، أولهما أوضح الأدلة الشرعية على حرمة البرش. فهو حرام قياساً على الخمر، فكل مسكر حرام وهذا الشراب مسكر ومهلك فهو مخدر يذهب بالعقل ويكسب مبتلعه التخدر، ويورثه الفشل والكسل، ويجعله لا يشبع إن أكل، ولا يقنع إن أخذ ولا يسمع لكلام أحد، فهو مهلك بكل المقاييس وقد قال تعالى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة". ولكن نستوضح ما بهذا المعجون الخبيث المعروف بالبرش من أضرار ومفاسد علينا أن نرجع إلى مكوناته وهى: فلفل (أبيض وأسود)، وزعفران، وأفيون ومكونات أخرى.

فالفلفل: حار يابس فيه بعض رطوبة وفيه لدغ ويسبب حرقة ومتى جفف وأخذ فإنه يسبب اشتعالاً فى القلب وناراً بالكبد.

الأفيون: يغير من حال متناوله بدناً وشكلاً فيصبح وجهه أصفر غريباً كل من يراه يعرف أنه يتناوله فطبعه طبع الموت. ففيه تجفيف وتخدير وارتخاء للمفاصل ويحبس الريح فى البطن ويورث البرص الذى لا نجاة منه ويفقد الشهوة فى الجماع.

الزعفران: وهو حار يابس يجفف كل رطوبة فى الدماغ التى هى ميزان الجسم وهو يحبس الطبع والطبيعة ويساعد خلط السودا التى هى أصل كل داء.

وغير هذه المواد هناك الأفيون الذى يورث الجنون، والبنج الذى يخدر ويسكر. من هذا العرض نستبين أنه مسكر مهلك، وكل من يقدمه للناس ويصنعه فهو لئيم سفيه قاتل.

أما الباب الثانى من هذه المخطوطة فلم يخرج عن نطاق الباب الأول، ولكنه جاء نظماً شعرياً ليكون أكثر تأثيراً فى الناس.

فقال – مثلاً – فى تأثيره فى الجسم:

شبهتها بالبرش فى أفعاله ... كم أورث الضخم السمين هزالا

صارت به أبناء مصر عيرة ... لا يستطيعون الجميع مقالا

خرساً وبكماً وضلالة ... إن قاتلوهم لا يرون قتالا

نشفت رءوسهم فلا خير بها ... والناشفات بجسمهم تتوالا

لاريق فيهم ولا أدبابه ... أحوالهم قد أصبحت أهوالا

صداغهم مخسوفة منكوسة ... مكشوفة مكسوفة تتزالا

يتمايلون بغير سكر مطرب ... يتقاصرون ولو يرون طوالا

وكل هذا الوصف ويزيد – لشكل من يتناول هذا الشراب المسكر اللعين هو شكل شبابنا من المدمنين فى هذا العصر الحالى – شفاهم الله من هذا البلاء.

ونهاية المخطوطة ترد على من يسأل عن الحكم فى القهوة المشتقة من البن وقشره، وعلى الرغم من أنها بدعة – فى هذا الوقت البعيد – فإنها ليست محرمة لأنها لا تشغل عن ذكر الله وعن الصلاة ولا تضر بصحة الإنسان إلا من أفقدته شهوة الجماع – فإنها منشفة للرطوبات – فهى حرام عليه.

١١- مخطوطة "المصابيح السنية فى طب البرية" لصاحبها شيخ الإسلام "شهاب الدين أحمد بن سلامة القليوبى الشافعى".

محفوظة بدار الوثائق القومية تحت رقم ٣٧١٨.

موضوع هذه المخطوطة هو الطب والعلاج، وفى بدايتها أثنى المؤلف على الله وحمده وصلى على رسوله المختار، ثم أثنى على مؤلفه هذا ورأى أنه جمع فيه ما تفرق فى غيره من الكتب وأنه سهل " لا يحتاج فهمه إلى عون، وأنه كتبه ويريد به نفع الناس والمثوبة من الله.

والمخطوطة مقسمة إلى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، وكل باب مقسم إلى عدة فصول. ولها منهج " داخلى – لم يصرح به الكاتب – فقد رتبها على أمراض الأعضاء من أعلى عضو وهو الرأس نزولاً حتى القدمين. وهو المنهج نفسه الذى اتبعه الشعرانى فى مخطوطته " مختصر تذكرة الإمام السويدى".

وأضاف إلى المنهج أنه على هوامش المخطوطة كان يكتب اسم المرض الذى سيعالجه بخط بارز وبحبر ثقيل. وكذلك كان يكتب عبارات لينبهنا إلى أهمية ما سيلى مثل " تنبيه - وأما أعلم - وصفته .... ".

ويلفت نظرنا أنه فى هذه الفترة التاريخية المتقدمة التى دونت فيها المخطوطة سنة ١٠٦٩ ق ١١ هـ : ق ١٧م توصل المؤلف إلى معلومة طبية مهمة، وهى أن المرض النفسى سبب أساسى من أسباب المرض العضوى بالإضافة إلى أسباب أخرى، وهى اختلاط الأطعمة والهواء والصناعات والأماكن والفصول والاحتباس والاستفراغ والنوم واليقظة وحالة الجسم من السكون والحركة البدنيين والنفسيين، وبعلاج هذه الأسباب يصح الإنسان - بإذن الله.

وقبل أن يبدأ المؤلف بعرض منهجه، عرض أصول الأمراض من الأخلاط وكيف نشخصها من خلال النبض والقارورة (تحليل البول).

فكل نوع من أنواع النبض علامة على خلط معين ومرض لعضو من الأعضاء؛ فمثلاً النبض الغليظ سريع الحركة هو علامة الخلط الدموى وموضعه الكبد وأصله الشمس، والنبض الرقيق بطئ الحركة هو علامة الخلط السوداوى وموضعه الطحال وأصله من التراب. القارورة (لون البول) فإنه يحدد المرض وموضعه من الجسم.

وهناك نحو ٣٠,٠٠٠ مرض تنشأ عن الأخلاط، فالدم مثلاً ينشأ عنه دوار وصداع وثقل العينين ووجع الآذان مع الحرارة وغيرها، والصفرا ينشأ عنها الحرارة فى الرأس ويبس الأنف وغيرها ... وهكذا فى باقى الأخلاط، ونجد علاجاً يفيد فى كل خلط على العموم ، وكذلك أطعمة وأشربة توافق هذا الخلط، فلحم العجول السمينة وفراخ الحمام ومشروب اللبن الحامض والتمر هندى والكمثرى تفيد فى الخلط الدموى، أما الخلط البلغمى فيفيده سمين الضأن المشوى مع الخردل والفلفل ومشروب السكر الممزوج بالماء، أو مشروب القرفة والزبيب والتمر.

والمؤلف ينصحنا بالحرص على هذا الباب - المشتمل على أسماء الأطعمة - لأنه من النادر أن نجد مثله فى المؤلفات الأخرى.

ومن بداية الباب الثانى يبدأ عرض منهج المخطوطة، فعرضت الأمراض التى تصيب الرأس وما ينفع فى علاج كل عضو فيه، كعلاج الصداع بأنواعه وعلاج الفالج وما معه من النسيان والسبات والدوار والخدر والكابوس والرعشة.

وتلاه بعلاج النزلات، وهى من الأمراض العامة لكنها ذكرت مع الرأس لغلبتها فيه، وعالجها بالبابونج ونقيع التمر هندى شرباً وبالشبت، أو الكزبرة ضماداً وبالسكر السليمانى استنشاقاً.

ومن أجمل وأغرب فصول هذا الباب الفصل الخامس والأخير وهو "فى العشق وما يجلبه" فمما يجلب العشق شرب غسالة طوق ثوب المعشوق، وشرب شعيرات من الحرمل، وشرب سحيق رخام قبور الموتى، أو تراب قبور القتلى، والنوم فى المقابر.

وسيراً على المنهج نفسه يأتى الباب الثالث فى أمراض العيون، والرابع فى أمراض الأنف والأذن والفم وهكذا نزولاً بالأعضاء حتى الباب الثامن فى أمراض الساقين.

أما التاسع فكان "فى الأمراض التى لا تختص بعضو معين من البدن "كالأمراض المعدية من جرب وحكة وجذام، والأمراض الناتجة عن أسباب خارجية كالحرق بالنار، أو قروح الجروح، ومنها السموم الحيوانية، أو النباتية، أو المعدنية.

ولكى تكتمل هذه المنظومة جاء الباب العاشر عن "زينة الأبدان وغيرها" وفيه فصل عن "الجسد خارجه وداخله" ويقدم كيفية تفتيح لون الوجه والجسم والتخسيس وإزالة كثرة العرق وإزالة آثار الوشم.

وفصل آخر فى الشعر من حيث تطويله وتسويده، ومنع الشيب والقمل وإنبات الشعر، وليكون الإنسان جميلاً قلباً وقالباً جاء الفصل الأخير فى "إزالة الطبوع من الثياب"، ولأن المؤلف يؤمن بأن "الوقاية خير من العلاج" فقد قدم لنا نصائح نحافظ باتباعها على الصحة ونتقى بها العديد من الأمراض. مثل عدم أكل السمك مع السمن، أو البيض لأنه يورث الفالج ووجع الضرس والبواسير ولا تأكل حامضاً مع اللبن حتى لا تهلك - ولا تداوم شرب الماء البارد ليلاً فإنه يورث العمى. ولا ينبغى حبس شهوة الطعام، أو الشراب ولا تنم عقب الأكل ليلاً.

ومنهج الوقاية هذا متبع فى كل المخطوطة، ففى بداية كل فصل - تقريباً - نجد الكاتب يقدم وصفات علاجية تشفى وتقى هذا العضو بشكل عام.

فمثلاً فى بداية الباب الثانى الخاص بأمراض الرأس قدم وصفات علاجية تنفع فى علاج ألم الرأس من صداع وغيره، وهى استعمال مثقال من بذر الحنا

مع ثلاث أواق من الماء والعسل، أو شرب زهر التفاح، أو زهر الكمثرى، أو زهر السفرجل.

وفى الباب الثالث بدأه بوصفات علاجية تنفع فى جميع أمراض العينين، ومنها الاكتحال بمذاب شعر الإنسان، أو بالعقيق وذلك بمرود الذهب مرتين فى كل شهر، أو بمرارة البقرة السوداء أربعة وعشرين يوماً، أو بسحيق لسان الغزال، أو تقطير الصبرا والقطران والضماد مخ البيض المسلوق مع الزعفران، أو مع دهن الورد.

ولابد أن نشير إلى أن هذه المخطوطة كتبها المؤلف بنفسه بخط النسخ فى ٢٠ ورقة مقاس ١٥,٥ - ٢١ سنتيمتراً.

١٢ - مخطوطة " كتاب الأطعمة والأشربة" لمؤلفها: أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصفهانى".

محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٤٩٢,

يطالعنا التليفزيون بالعديد من البرامج، كما نجد الكثير من الكتب والمجلات التى تدور كلها حول الغذاء الصحى المفيد والشهى فى الوقت نفسه، وهذا هو ما حاول الأصفهانى تقديمه لنا فى هذه المخطوطة منذ القرن ١١هـ و بالتحديد فى أول رجب من عام ١٠٩٠هـ.

والمخطوطة مقسمة إلى ٣١ باباً تتحدث جميعاً عن أنواع الأطعمة المفيدة والشهية فى الوقت ذاته مثل الاسفيدباج وماء الحمص والكباج والزيرباج وغيرها، وللأبواب رموز بالحروف الأبجدية، والواضح أن العديد من أوراق هذه المخطوطة مفقود لأننا بعد ٣١ باباً نجد أبواباً فى الأدوية التى تستخرج من الأطعمة وهما بابان فقط باب "النطولات" وباب "أدوية الشعر".

وأما عن أبواب الأطعمة فكل باب يصف طريقة إعداد الطعام وتأثيره على المعدة من حيث سرعة، أو صعوبة الهضم وكيفية استخدامه لعلاج بعض الأمراض.

فمثلاً فى باب "المصوص والهلام" نجد أن المصوص والهلام طعامان خفيفان على المعدة والبدن سريعا الانهضام، بعيدان عن التخمة والفساد، موافقان لأصحاب المزاج البارد وأجود المصوص ما يتخذ من الطيهوج والقبح قريب العهد

بالوادى والصحارى وقد تتخذ أيضاً بالدجاج والفروج والفراخ والعصافير والعنابر وغير ذلك، وينبغى أن تذبح هذه الأصناف من الطير وتترك ليلة فإذا كان من غد شقت بطونها وحواصلها وغسلت ويترك ريشها عليها ليبقى بياض ألوانها وحسنها، ثم تلقى فى طبق مثقب حتى يسيل عنها الماء، ثم يأخذ الثوم المقشر والكزبرة المدقوقة وورق الذاب وورق السداب فجمعت وخلطت وصب عليها الخل الأبيض ما يغمرها وطبخت حتى نضجت ورفعت عن النار وقطعت رءوسها وأطراف أجنحتها وأرجلها وقدمت لمن به إسهال بعد إضافة المر والزبيب المدقوق والسماق والنبق وقطع السفرجل، ومتى اتخذت للمحرورين حذف الثوم عنها وجعل مكانه ورق الكزبرة، ولم يغفل المؤلف فى وصفه لإعداد الطعام أن يصف كيفية اختيار الجيد والمناسب منه.

فمثلاً فى باب "تدبير السمك الطرى والمالح" السمك الطرى طعام بارد رطب يولد البلغم، مرخ للمعدة، مرطب للجسد وهو من طعام المحرورين وذوى المعدة القوية، وليس من طعام أصحاب المعدة الباردة الضعيفة، فإن دعت الشهوة إلى أكله فينبغى أن يختار منه الشبابيط البرية المتولدة فى الماء الكثير الصافى الشديد الجريان من مياه الأنهار التى على حوافها عشب جيد ولا يكون على حوافها أشجار قد رسخت بأصولها فى الأنهار، فإن السمك يأكل منها فيفسد طبعها، و ينبغى أن يكون أرض تلك الأنهار إما رملاً وإما حصى وإما صخراً.

وأما السمك المالح فطعام غليظ ردىء بطئ الانهضام، يعطش، مولد للبلغم بملوحته وهو ليس من طعام الأصحاء ولا المرضى، فإن دعت الشهوة إليه فينبغى أن يختار منه ما كان هشاً سميناً، فينقع فى الماء الحار نقعاً طويلاً، ثم يغسل بالماء الحار، ثم ينشف ويغلى بدهن الجوز الطرى والخل الطرى، ثم يؤكل حاراً بهذا الصباغ.

ولأنه لا غنى عن الخبز، فإن المؤلف لم ينس أن يقدم وصفاً لأجود أنواعه وكيفية صناعتها، وأجوده هو خبز السميد، ويعد أجوده لسرعة الهضم خبز الخشكار المتخذ من الحنطة وينبغى إيجاد عجن الدقيق ويلقى فيه الملح والخميرة بقدر ويدوى من الملح ويطال فركه حتى يبلغ نهايته، وإذا ألقى البورق فى العجين كان الخبز أطيب وأشد تخلخلاً، ثم يخبز فى تنور غير حديث ولا عتيق قد سحر بالحطب ويترك حتى يسكن فوره، ثم يخبز.

ولأن خير الأمور الوسط، فإن الاعتدال فى شرب الماء يؤثر على الهضم وعلى

الصحة بشكل عام، فهى تعين على الهضم وعلى نفاذ الطعام إلى البدن وتقوية الجسد وتحفظ رطوبات الجسم الأصلية على حالها، أما الإفراط فى شرب الماء فإنه يعيق الهضم ويرخى المعدة ويبرد البدن.

ولكى يكون الحفاظ على الصحة كاملاً فلابد من اتخاذ "تدابير للجسد بعد الأكل والشرب" - وهو الباب الأخير من الأبواب الواحد والثلاثين - فيجب ألا نبادر إلى النوم حتى نفرغ تماماً من الأكل وننتظر بعده بساعة ونمشى مشياً رقيقاً حتى يستقر الطعام فى المعدة.

وكما سبق أن ذكرنا فى بداية الحديث فإنه لم يصل لنا من أبواب الأدوية سوى بابين الثامن عشر " النطولان " والتاسع عشر فى "أدوية الشعر" واستوضحنا منهما أنه كان يقدم الأدوية من خلال الغذاء الصحى، ولكل نوع من أنواع المرض ما يناسبه من الطعام والدواء.

ونرى ذلك فى "أدوية الشعر" فنحن نستخدم منبتات الشعر بحسب الأسباب المانعة للإنبات، فداء الثعلبة نستخدم له الثوم والبصل والكبريت والبندق المحروق وزبد البحر واللوز المر المحروق وغيرها.

وهناك حافظات لتساقط الشعر وجاذبات للغذاء إلى أصول الشعر، وهى الأدوية التى لها قبضة وحرارة ولدونة ولزوجة كالأس واللادن والمر وورق السمسم وورق القرع.

أما الأدهان فيستعمل منها بحسب حرارة الدماغ وبرودته ورطوبة أعضاء الرأس ويبوستها وتدهن منها بعد معرفة مزاج الدماغ، فإذا رد مزاج أعضاء الرأس إلى الاعتدال كان سببا فى إنبات الشعر، وحفظاً له وتقوية لأصوله.

وقد استغرقت هذه المخطوطة القديمة فى تاريخ تدوينها الحديثة فى موضوعها ٢٠ ورقة من مقاس ١٢,٥ - ١٩,٨سنتيمتر، ودونت بالخط النسخ فى أوائل رجب من عام ١٠٩٠هـ أى ق ١١ هـ : ق ١٧ م.

١٣- مخطوطة "أغذية المرضى" لمؤلفها "محمد بن على بن عمر السمر قندى".

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٤٩٢.

علم الطب من أشرف العلوم السياسية الاضطرارية المحتاج إليه لبقاء نوع الإنسان، وعلى الرغم من ذلك فقد عرف هذا العلم الإهمال والتقصير فى

تناوله، وأصبح طلابه لا يتعلمون منه إلا بالقدر الذى يجعلهم يحصلون الأموال من المرضى، ولعل ذلك هو ما دفع المؤلف لتدوين هذه المخطوطة المتخصصة فى الطب والأدوية، وللأسف فقد فقدت عدة أوراق من هذه المخطوطة، فبعد المقدمة التى أوضحت لنا دوافع الكاتب لتأليف المخطوطة نجد أبواباً تبدأ من العاشر وحتى السابع عشر. فكانت أوراقها تسع عشرة ورقة من مقاس ١٢,٥ - ١٩,٨ سنتيمتر، ومدونة بخط النسخ.

ومن خلال هذه الأبواب السبعة، يمكننا أن نستوضح منهج المخطوطة، فقد رتبت على أساسين، أولهما: هو تقديم وسائل العلاج المختلفة والثانى: هو تقديم الأغذية الصالحة للمرضى بأمراض معينة، ويلفت نظرنا فى أبواب المجموعة الأولى وصف وسيلة العلاج أولاً، ثم الهدف منها والفروق بين أنواعها إن وجدت.

فمثلاً فى باب "الأطلية والأضمدة والكمادات" توصف الأضمدة بأنها المركبات التى قوامها قوام المعاجين توضع على الأعضاء الظاهرة، وتشد عليها والأطلية ما كان منها أرق قواماً، بحيث إذا مسحت بها الأعضاء لصقت بها وانفرشت على سطوحها، ولم يحتج إلى الشد والعصب عليها. أما الكمادات فهى رطبة، أو يابسة، فالرطبة كالمثانات المملوءة مياهاً حارة، وتوضع على الأعضاء لتسخنها مع الترطيب، وقد تغلى فى تلك المياه أدوية مرخية محللة مثل الخطمى والشبت والبابونج والبنفسج ونحوها.

أما الكمادات اليابسة فهى مثل الملح المسخن والرمل والنخالة والرماد ونحوها، وهى توضع على الأعضاء لتسخينها مع التخفيف. وجملة الكمادات تستعمل لتسكين الوجع، واليابسة للوجع الريحى، أما الباردة فللوجع اللاذع.

وبعد هذا الوصف لطبيعة هذه الوسائل العلاجية، يأتى تأثيرها على الأمراض المختلفة، فالأطلية المستعملة فى الأورام الحارة، مثل المتخذة من الصندلين والورد والكافور بالخل وماء الكزبرة، فإن كان للكبد فماء عنب الثعلب وماء السفرجل، وإن كان للطحال فالبخل والكزمازج والطحلب.

أما الأدوية المستعملة فضمادات الأورام الباردة، فهى مثل الإكليل والبابونج والمرذنجوس والشبت والخطمى، ثم إن كانت فى الكبد يضاف إليها السنبل والريوند والزعفران والمرو ونحوها، أما فى الطحال فيضاف السذاب والريوند والأشق، وإن كان للصدر فينصح بالبنفسج والخطمى ودقيق الشعير، وهكذا تسير الأبواب التالية عن وسائل العلاج المختلفة.

وأما الأساس الثانى الذى قام عليه منهج المخطوطة، فهو وصف الأغذية التى تناسب كل مرض، وقد رتبت على ترتيب أعضاء الجسم من أعلى إلى أسفل فبدأت بالرأس، وما بها من أعضاء وما يصيبها من أمراض مختلفة، ثم تلاها الصدر، وهكذا نزولاً بالأعضاء.

ومن الأطعمة المناسبة لمرضى العيون - مثلاً - الزبد بالخل والماء بدهن اللوز والسكر، ويصلح السمسم المقشر بدلاً من الزيت، وكذلك يصلح المزورات المعمولة من التفاح والرمان والأجاص والعناب والبقول المرطبة والقرع بدهن اللوز الحلو.

أما ما ينفع من علل الفم الحارة والبثور والخوانيق فهو أكل الفواكه التى جمعت حموضة وقبض، كالسفرجل الحامض والحصرم والتوت الشامى، والأطعمة المتخذة من الفراريج والعدسية الصفراء.

وفى نهاية المخطوطة يدون المؤلف تاريخ تدوينها فى رجب عام ١٠٩٠هـ أى ق ١١ هـ : ق ١٧م .

١٤- مخطوطة "دفع المضار الكلية للأبدان الإنسانية" للشيخ الرئيس " أبو على الحسين بن عبد الله - ابن سينا".

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٤٩٢.

إن الحفاظ على صحة الرعية إحدى مسئوليات أولى الأمر، ولذلك فقد أمر الوزير "أحمد بن محمد السهلى الخوارزمى" الشيخ الرئيس ابن سينا بكتابة هذا الكتاب الذى وضع له عنوان "دفع المضار الكلية للأبدان الإنسانية"، وذلك لتدارك القصور فى الكتب الطبية التى قرأها الوزير، فكل هذه الكتب حذرت من الأمور الخاطئة الضارة بصحة الإنسان وقصرت فى وصف كيفية تدارك الوقوع فى هذه الأمور، ولذلك الغرض قامت المخطوطة على أساسين: الأول تحديد أنواع الخطأ الذى يجلب المرض.

وتمت معالجته فى خمس مقالات، وتبين من دراستها أن الصحة متوقفة على اعتدال المزاج واستواء التركيب، وللحفاظ على هذه المعادلة علينا اجتناب بعض الأمور وتعديل أمور أخرى.

ولأن هدف الكتاب الاختصار فإنه توقف عن الحديث فى الأمور الواجب اجتنابها لأن المتقدمين اهتموا بها.

أما الأمور الواجب تعديلها فكانت هى موضوع البحث هنا، وتتمثل الأمور فى تعديل الهواء والشراب واليقظة والنوم وتعديل الحركة البدنية والحركة النفسية وتعديل السكون والدعة وتعديل ما يستفرغ وما يحتبس.

وقد أجملت كل هذه الأمور فى المقالة الأولى، ثم فصلت فى أربع مقالات تالية:

والحقيقة أن هذا المنهج وإن كان يبدو منظماً، فإنه يحتاج إلى كثير من التركيز عند تناوله، لأن الحديث عن الموضوع الواحد موزع على عدة أماكن.

فمثلاً من أراد أن يعرف كيف يعدل الطعام فعليه أن ينظر فى المقالة الأولى ليرى مجمل الحديث عنه، ثم ينظر فى المقالة الرابعة ليجد التفصيل هناك، والتعديل، كما عنته المخطوطة هو التوسط فى كل الأمور فى الطعام والشراب والنوم واليقظة وغيرها فقد عمل المؤلف بمبدأ "خير الأمور الوسط".

فمثلاً تعديل الطعام يكون إما فى كميته بأن يكون أكثر، أو أقل، وإما فى كيفيته بأن يكون أحر وأبرد وأيبس وأرطب وشديد ضعف القوام فيعفن سريعاً كاللبن، أو شديد قوة القوام كالأرز والذرة، وإما للبشاعة كالخبز المكى، أو الدسومة للدهون، وللحدة فى الطعم مثل البصل والثوم، وإما للمرارة كاللوز المر للحموضة كالخل الحادق، أو للزوجة كالهريسة والسمك، أو للخشونة والقبض كالنبق والسفرجل، أو للملامسة واللين كالصمغ.

وضرب من التعديل فى ترتيب الغذاء فى جمع بعضه مع بعض والخطأ فى تعديله أن يعقب البطئ الانهضام ما هو أسرع انهضاماً فيسبقه، أو المعين على فساد متوقع من الطعام كالثوم على الكرنب فأحدهما يعجل العفونة والمكث، أما تعديل الشراب فيشبه تعديل الطعام، وتطلق كلمة الشراب على الماء وما يسكر وللربوب وأشربة الفواكه.

وللماء شروط ينبغى أن تتوافر فيه، فيجب أن يكون رقيقاً خفيف الوزن عديم الطعم والرائحة قابلاً للحر والبرد بسرعة، ومن الأنهار الجارية على الطين الحر، أو الطين العذب سريع الجريان بعيداً عن المنبع الذى منه يتدفق مكشوفاً للشمس والريح، وإن كان النهر أعظم فهو أجود خاصية اللذة وسرعة الانحدار عن فم المعدة.

ومن تعديله ما يتعلق بتوقيته حتى لا يكون على الريق، ولا بعد الامتلاء ساعة

الفراغ من الطعام، ولا عقب حركة عنيفة، ولا عقب سبب يخلخل البدن كالجماع والحمام.

إذا هذه التعديلات وغيرها لم تخرج عن حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى دعانا فيه إلى الاعتدال فى الطعام والشراب وتقسيم البطن إلى ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس.

وأما الأساس الثانى للمخطوطة فهو كيفية تدارك الأضرار التى تنتج عن الوقوع فى الخطأ - بالخروج عن التعديلات السابقة.

ويتم هذا التدارك بتناول الغذاء السليم المناسب وبأنواع الأدوية المختلفة، ولذلك نجد أبواباً خاصة بوسائل العلاج المختلفة.

ومن أمثلة هذا التدارك "هواء الحمام" إذا لم يكن معتدلاً فكان حاراً فإنه يسيل الأخلاط الجامدة إلى أعماق الأعضاء فيحدث إما سدداً، وإما أوراماً ويصعدها إلى الدماغ فيحدث، إما صداعاً شديداً، وإما سيلان الرطوبات إلى التجاويف الفارغة فيحدث عنه صرع، أو سكتة.

ويتدارك ضرر الحمام الحار، إما بالمشروبات كرب التفاح ورب السفرجل ورب الحماض وشراب التمر هندى، وإما بالأطلية كالصندل وماء الكزبرة الرطبة، أما إذا كان هواء الحمام بارداً، فإنه يحرك المادة حركة ناقصة فيحدث من ذلك آفات، وربما يحدث منه الجرب والحكة، أو الزكام والمغص.

ولتدارك كل ذلك فإنه يُهيأ ماء ساخن معتدلٌ مقدار ما يحمله الطبع ويصب على الرأس قبل الخروج بساعة، مع التدليك الدائم والغمر للتعرق.

ولم تغفل المخطوطة تأثير الرياضة لأن "العقل السليم فى الجسم السليم" ولا يسلم الجسم تماماً إلا بممارسة الرياضة.

ومن تأثيرها العلاجى مثلاً أنها تساعد على التخلص من الفضلات الغائرة المتغلغلة إلى أعماق الأعضاء والتى يمكن أن تحدث قروحاً ووجعاً فى الأعضاء فعلاجها فى الرياضة مع المشقة والجوع.

أما أبواب الأدوية التسعة فقد وردت دون منهج محدد، فكان التقسيم على أساس وسائل العلاج فقط.

ومن هذه الأبواب "باب فى الحبوب المسهلة والإياجات"، وباب "فى المطبوخات والمنقوعات"، وباب فى "الحقن والشيافات" وآخر فى "أدوية القئ".

والحقيقة أننا نجد أن وصف الوسيلة العلاجية كان وافياً دقيقاً، حتى أننا نجد مقارنات بين قانون تركيب بعض الوسائل العلاجية وتأثيرها.

فمثلاً فى باب "المطبوخات والمنقوعات" ورد أن هذه المطبوخات قانون تركيبها مثل قانون تركيب الحبوب والأبارحات على تفاوت مقادير الشربة (الجرعة) بينها، وهى ألطف منهما وألين وأخف على الطباع وأقل تسخيناً وأسرع إسهالاً، وذلك لأنها أقوى أدوية مسهلة انتزعت من أجرامها بواسطة الماء، فالإسهال بها سهلاً ومفرغاً عنه فى زمان قصير ولا يبقى منها فى البدن بعد الإسهال شئ يصير سبباً لبقاء أعراضها من الكرب وسقوط الشهوة والعطش، كما أن تناول هذه المطبوخات أسهل فى تناولها من ابتلاع الحبوب.

وأما عن الدقة فى وصف الوسائل العلاجية، فهو وصف شكل الحقنة فى باب "الحقن والشيافات "، فورد أن تدبير المحقنة ينبغى أن يكون طول الأنبوبة من فتر إلى شبر وعرضها فى غلظ الخنصر، ويقسم تجويفها إلى قسمين صغير وكبير، نسبتها نسبة الثلث إلى الثلثين، التجويف الأصغر لخروج الريح والأكبر لدخول الحقنة، والأصغر لا ينبغى أن يمر مع الأكبر إلى منتهى طرفه الأغلظ، بل يقصر دونه بقليل ومقدار الحقنة يكون من نصف رطل إلى ثلثى رطل بحقن فاترة الحرارة.

ووسائل العلاج لم تتخذ فقط من الأدوية، بل من الأغذية كذلك، ففى باب" أدوية القئ "نجد أن هناك مقيات تقيئ الصفراء وأخرى تقيئ البلغم وثالثة تقيئ السوداء.

أما التى تقيئ الصفراء، فهى إما من قبيل الأغذية كماء الشعير والخيار وأطراف الخرفان والسمك الطرى والأحشاء الدسمة بدهن الخل وأطراف البقول كالسرمق والأسفاناخ وورق السلق وأمراق الفراريج.

وإما من قبيل الأدوية كالسلنجين مع ماء الشعير الذى طبخ فيه اللوبيا الأحمر، وقشور البطيخ وأصوله المقلوعة والمقطوعة والفقاع المتخذ من دقيق الشعير وبذر الرمق، ولم تغفل المخطوطة أن لكل دواء مدة صلاحية، خاصة ما كان مركباً منها؛ ففى باب "الأقراص" نرى أنها من المركبات التى تركب لأغراض شتى ولا يراد ادخارها زماناً طويلاً، كادخار المعجونات، كما أن السفوفات مركبات يحبذ استعمالها فى الحال وذلك لسرعة بطلان قواها ووشك انفعالها مع كيفيات الهواء والمداخلة لها.

وبعد هذه الأبواب التسعة فى الأدوية يدعو المؤلف لطلاب الطب بأن يعينهم الله على طلبه وللمرضى بالشفاء.

ثم يقول إنه جمع فى بعض ورقات ما استطاع من أغذية المرضى راجياً بذلك منفعة الناس والثواب من الله تعالى.

وإن كانت الأغذية لا تعالج بالشكل الطبى المعروف إلا أنها تساعد على تخفيف الأمراض والشفاء منها.

فهناك أغذية تصلح لأمراض "الصداع الحارة" و"قلة اللبن" و"الكبد الباردة" و"الطحال" و"الإسهال بأنواعه" و"الديدان" و"حرقة البول وقروح المثانة" وأغذية "الحميات" و"أوجاع المفاصل"، ويعود تاريخ النسخ إلى شهر رجب من عام ١٠٩٠هـ، أى ق ١١ هـ: ق ١٧ م، ودونت بخط النسخ ولم يعرف اسم الناسخ.

١٥- مخطوطة " مجموعة فضائل أولها كتاب فى الطب" للمؤلف "علاء الدين على بن أبى حزم القرشى الشافعى" ابن النفيس.

- محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٣١٨.

تناول هذا الكتاب فنوناً أربعة، الفن الأول فى قواعد علم الطب، والفن الثانى فى الأغذية والأدوية المفردة والمركبة، والفن الثالث فى الأمراض المختصة بعضو وأسبابها وعلاماتها ومعالجاتها، والفن الرابع فى الأمراض التى لا تختص بعضو دون آخر وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها.

الفن الأول: فى قواعد علم الطب بشقيه العلمى والعملى، فالشق العلمى نلاحظ أربعة أجزاء، نتعرف فى الأول على الأمور الطبيعية الأربعة، النار والهواء والأرض والماء، وعلى المزاج وأقسامه من معتدل وغير معتدل، وأعدل الأمزجة هى أمزجة الإنسان، وأعدل أصنافه سكان خط الاستواء والشبان أعدل مزاجاً من الصبيان والشيوخ، وجلدة أنملة السبابة هى أعدل الأعضاء وأحرها القلب وأبردها الشعر.

وفيه نتعرف على أن الأخلاط أربعة وأفضلها الدم وفائدته تغذية البدن، ثم البلغم وهو يستحيل دما، إذا فقد البدن الغذاء، كما يرطب الأعضاء فلا تجف ولا تكف عن الحركة، ثم الصفراء وفائدتها تلطيف الدم وتنقيته وتدخل فى تغذيته، مثل الرئة، وينصب جزء منها إلى الأمعاء فتغسلها من الثقل والبلغم

اللزج، ثم السوداء، وهى تفيد الدم غلظا ومتانة وتدخل فى تغذية العظام، وينصب جزء منها إلى فم المعدة فينبه إلى الجوع ويحرك الشهوة.

ونتعرف على مفهوم جديد للروح، فلم يقصد بها الكاتب الروح التى فى الكتب السماوية ولكن يعنى بها هنا جسما لطيفا بخاريا يتكون من طاقة الأخلاط وهذه الأرواح هى الحاملة للقوى.

أما القوى فهى ثلاثة أجناس، قوى طبيعية، وهى مسئولة عن التغذية والإخراج والتكاثر والنمو، والثانية قوى نفسانية، وهى مسئولة عن الحواس، منها ظاهر كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس، والباطن منها كالخيال والوهم، والثالثة هى القوى الحيوانية، وهى التى تهيىء الأعضاء لقبول القوى النفسانية.

أما الجزء الثانى من القسم الأول فيعرض أحوال بدن الإنسان من صحة، أو مرض.

والجزء الثالث من هذا القسم فيعرض للأسباب، والسبب ما يكون أولاً، ثم عليه تكون حالة البدن من صحة، أو مرض، وقد يكون خارجياً كحرارة الشمس، أو برودة الهواء، أو نقاء الماء، أو الغضب والفزع، أما تغير الفصول فتأتى فى مقدمة أسباب المرض، ففصل الصيف مثلاً يثير الصفرا ويورث أمراضها كالحمى المحرقة والعطش، أما فصل الشتاء فيورث الزكام ونزلات البرد والسعال، وفصل الخريف تكثر فيه الأمراض المحتبسة شتاء وتسيل إلى الأعضاء الضعيفة فيحدث فيها الخراجات والأورام.

والجزء الرابع من القسم الأول النظرى هو العلم بالدلائل أى العلامات، والعلامة ترشد الطبيب إلى سبب المرض وأعراضه، والعلامات كثيرة منها ما يدل على الأمزجة، ومنها ما يدل على التركيب كاللمس واللحم والسمين والشحم والشعر ولون البدن وهيئة بنية الأعضاء وكيفية وسرعة الانفعال والنوم واليقظة والفضلات المتدفقة والوزن والنبض والحرارة والانفعالات النفسية.

القسم الثانى من فن الطب وهو القسم العملى، ويشمل علامات الأمراض التى تصيب الجسم بشكل عام والتى تصيب عضواً بعينه وكيفية علاجها.

وقد عرضت هذه المباحث عرضاً مرتباً، حيث ابتدأ بالمرض وعلاماته، ثم العلاج ويبدأ كل منها بعنوان.

ومن ذلك عنوان "علاج الدود" وأنواعه أربعة، أحدها المتولدة فى أعالى

الأمعاء، وهى طوال كبار، وقد تبلغ قدر الذراع ويعرف بدغدغة فم المعدة ولذعها ومغص وعسر بلع ونفور من الطعام، خصوصاً الدسم، وثانيها المتولدة فى المستقيم، وهى صغار كدود الخل وتعرف بحكة المخرج، وثالثها المتولدة فى القولون الأعور، وهى أعراض وتسمى حب القرع، ورابعها مستديرة ويكثر معها الشهوة، وهى تجذب الغذاء وتتحرك عند الجوع حركات قارضة، والعلامات المشتركة للدود هى سيلان اللعاب ورطوبة الشفتين ليلاً وجفافها نهاراً لانتشار الرطوبات واغتذاء الدود بها فيظل صاحبها يرطب شفتيه بلسانه مع ضرير أسنان وضجر وصياح وكلام وتململ أثناء النوم وسوء خلق وغثيان على الطعام.

أما العلاج فهو قتلها بالأشياء المرة، أو بما له خاصيته وبإسكارها بمثل الكزبرة اليابسة وإخراجها بتليين الطبع وإخراج الصغار بالفتايل والحقن المتخذة.

ومن الحيل الجيدة فى إخراج الدود هى أن نسقى الدود الأدوية القتالة، فهى تعافها ولا تقربها فعلينا أن نطعم صاحبها اللبن أياماً فهى تحسبه، ثم نجوع صاحبها جوعا شديداً ونخلط الأدوية باللبن على بعد حتى لا يشمها، ثم يشربها دفقة واحدة ساداً منخريه وربما امتص قبل شربه قليلاً من اللحم المدقوق المقلى من غير ابتلاع وليكن بغير ملح ولا كزبرة فيهيج الدود وتفتح أفواهها فتلتهم ما يرد إليها.

أما هذه الأدوية فهى كالشيح وأوراق الخوخ ومائه، والثوم والترمس والقطران والنعنع والشونيز والحاشا والأفيون وشحم الحنظل وحب النيل، أما ماء البطيخ والخل خاصة خل الحنظل إذا احتساه صاحب الدود كل ليلة نفع جداً فى قتل الدود.

وقد عرضت المخطوطة لأنواع عديدة من وسائل العلاج؛ فهناك الضماد مثل استخدام بعض الأضمدة لعلاج الدود، وهى مكونة من ترمس برى وصبر وشحم حنظل يعجن بماء ورق الخوخ، أو الأجاص ويضمد به حول السرة، وإن كانت المعدة ضعيفة فليعجن بالسفرجل.

وقد تعالج بالحقن المكونة من قنطريون وسرخس وافتيمون وبسفايج وقسط مر وقشر أصل التوت من كل واحد ثلاثة دراهم يسطبح ويستعمل بزيت.

وقد يكون العلاج مرهماً مثل استخدام مرهم الشادنج، أو مرهم المقل لعلاج شقاق المقعدة ويتجلى استخدام وسائل علاجية مختلفة فى علاج البواسير، فالأدوية

الباسورية منها مسقطات ومنها مفتحات ومنها حابسات للدم ومنها مدملات ومنها مسكنات للوجع، وهى إما أشربة، أو أضمدة، أو نطولات، أو بخورات.

وللأغذية دور مهم فى هذه العلاجات، فالمريض بالبواسير عليه أن يمتنع عن تناول كل غليظ وكثيف ومحترق الدم والتوابل، ويلزم كل ما يسهل هضمه سريعاً ويطيب غذاؤه كاللحم اللطيف ومخ البيض.

وبذلك تختتم هذه المخطوطة، وقد جاءت فى ٩٩ ورقة من مقاس ١٥ - ٢١ سنتيمتراً نسخت فى عام ١١٧٤ هـ أى ق ١٢هـ، ق ١٨م. ولم يعرف اسم الناسخ.

١٦- مخطوطة " نتائج الفكر المعرب عن تفاصيل الثمر" مؤلفها "شعبان بن سليم بن عثمان الصنعائى".

- محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٤٣٤ طب تيمور.

هى أرجوزة من ٦٣ ورقة جعلت من خواص الثمار والنباتات وبيان تأثيرها الطبى موضوعاً لها، وأكملت جوانبه بتوضيح الفرق بين المأمون والتالف منها والذى يحسن استخدامه فى الفصول المناخية المختلفة.

وأول ما يلفت النظر فى هذا النظم أنه لم يكن له منهج واضح ومحدد فى عرضه للموضوع، فبعد خمسة أبيات حمد فيها الله وأثنى عليه وصلى على رسوله تحدث عن المشمش وتأثيره العلاجى، ثم تلاه مدح الكمثرى، ثم التين، ثم التفاح فالعنب وهكذا دون ترتيب محدد.

ولكل نوع من هذه الثمار فوائده فمثلاً التفاح: فله ألوان متعددة أحمر وأخضر وأصفر، وشرابه مفيد لخفقان القلب ولجلب المحبة، ويداوى قروح المجروح، وهذا ما قرره ابن سينا، ومن أضراره إذا مال للحموضة يورث النسيان.

أما العنب: فهو سيد النباتات، وبه تزدان الرياض، وعصيره شراب الحصرم دواء لكل داء معضل كالطاعون، ونقيع العنب ملين للطبع، ومع الخشخاش يفيد فى السعال ويستعمل مع ورق الورد كضماد يزيل البلغم.

والحديث عن الخضراوات والحبوب لم يخرج عن النطاق نفسه السابق، ففى وصف الفقوس" ومنافعه: نجد أنه يشفى من عضة الكلب ويفيق المغشى عليه شماً و يوضع كدهان للوجه فيعيد الحيوية، يفيد فى علاج الصفرا والجذام والكلف والصداع والسرطان والبواسير.

ومن الحبوب بدأ النظم بعرض الحنطة، وذلك لأنها أفضل وأكثر ما يستعمل والجيد منه ما كان لونه أحمر وتغشاه صفرة وله ملمس دهنى.

وعجنه يفيد فى قروح العين، وقشره إذا خلط بالملح والحليب وجعل ضماداً يفيد فى البرد، ومع الخل يشفى من الجرب.

وتكملة لهذا العرض جاء عرض فصول السنة، وما يناسبه كل فصل من الأطعمة والأشربة، فمثلاً فصل الشتاء يناسبه تناول الأكلات الحارة المستخدم فيها التوابل بأنواعها، كالفلفل والزعفران وأكل اللحم والدجاج والعسل والبعد عن أكل البقول الرطبة.

ويناسبه ارتداء الملابس الصوفية وشرب الزنجبيل، والعيش فى الشرق من الأماكن.

ولكى تتم نعمة الصحة على الإنسان لابد من التزامه بآداب الطعام والشراب والنوم واليقظة والجماع، ولابد من ممارسة الرياضة، وهى النصائح التى قدمتها له الأرجوزة.

فمن فوائد الرياضة - مثلاً - أنها تساعد على الهضم وتساعد على نقص وزن السمين وخاصة رياضة المشى.

ولأن المخطوطة لم تضع لها منهجاً تسير عليه، فإنها عادت بعد ذلك لعرض منافع العسل والسمن والخشخاش.

وبالنظم نفسه أرخ المؤلف لتدوين المخطوطة بعام ١١٧٥هـ أى ق ١٢هـ : ق ١٨م

١٧- مخطوطة "هدية الإخوان فى شجرة الدخان"

- مخطوطة "الزبيدى محمد بن مرتضى الحسينى".
- محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٤٦ فضائل ورذائل تيمور.

"التدخين ضار جداً بالصحة" عبارة أثبتتها الأبحاث العلمية والتجارب الطبية الحديثة، بل وأثبتت ما هو أخطر من ذلك، فالتدخين يصيب الإنسان المدخن بأمراض قاتلة، ولذلك تكاتفت الكثير من هيئات ومؤسسات المجتمع لمناهضة هذه العادة السيئة.

ومن الواضح أن هذه العادة السيئة انتشرت منذ زمن بعيد، ولذلك طلب

بعض أصدقاء المؤلف الزبيدى "أن يؤلف لهم كتاباً يوضح فيه كل ما يخص شجرة الدخان من حيث تحقيق اسمها وأصلها ومنافعها وخواصها والحكم الشرعى فى استعمالها.

وهناك زعم فاسد بأن العرب القدماء لم يعرفوا هذه الشجرة، والحقيقة أنهم عرفوها ووصفوها فى كتبهم وذكروها فى أشعارهم، ومن هؤلاء "ابن دريد" فى كتابه "الجمهرة"، والأزهرى فى "التهذيب"، والجوهرى فى "الصحاح"، وأشهرهم وأسبقهم "أبو حنيفة الديبورى" فى كتابه "النبات".

ونستخلص من وصفهم جميعاً لها أنها شجرة عربية منبتها جبال أرض الحجاز، وعرفت بشجرة الطباق، ربما لأن أوراقها فى أصل نبتها مطبوقة بعضها على بعض، وينبت هذا الشجر متجاوراً لا تكاد ترى واحداً منه منفرداً، وله نوار أصفر مجتمع ولا تأكله الإبل، ولكن الغنم تأكله.

وقد انتقلت إلى بلاد الإفرنج فى أواخر ق ١٠ م، فعرفوا منافعها وولعوا بها، ومنها إلى بلاد الهند، ثم عادت إلى بلاد العرب، وبعدها بلاد الترك التى نطقوا اسمها "تنباك". وأخيراً عرفت فى كل البلاد باسم " شجرة الدخان" نظراً لطريقة استخدامها.

وأما عن أنواعها، فهناك الأشجار الجبلية التى تنبت مع العرعر وجوز البر وغيرهما فى الجبال، دون حرث، وتسقى من مياه الأمطار، واستعمال هذا النوع خطر لقوته.

وهناك المزروع فى سفوح الجبال وشطوط الأنهار، ويجلب هذا النوع من أماكن مختلفة، من بلاد الترك وهو قوى خطر، ومن أرض المغرب وهو كسابقه فى القوة، ومن أرض العجم ولابد من حيلولة الماء بينه وبين شاربه لقوته وتخديره، وقد يخلط مع الهندى بشيرج القصب ليحصل الاعتدال.

وأجود أنواع هذه الشجرة على الإطلاق ما ينبت على سواحل الشام وقراها القريبة من البحر، فهو شجر لين معتدل المزاج لطيف الرائحة طيب المنبت والمغرس، ولا يحتاج إلى خلطه بشئ آخر.

ومن جملة ما يستعمل من هذه الشجرة، التبخر بورقها وبذرها، وشرب مدقوق البذر، والتنشق بمدقوق يابس الأوراق قبل التعفين وبعده والضماد بورقها.

وأما شرب دخانها الصاعد منها فلابد له من طريقة خاصة لاستعماله للاستفادة منه، وذلك بوضع جمرة خالصة من السنديان عليه لا من غيره من الأشجار ولا مما يخرج من قلوب الأشجار القديمة لأنه يصبح ضاراً بالدماغ، ولا مما يفتل به من يابس النباتات كالكتان.

والأفضل استخدام قصبات من أشجار جبلية كالعرعر والنبع وأجودها الياسمين وبفوات تلك الشروط المتقدمة تفوت خواص هذه الشجرة لكثير من الناس فيتضررون منها فضلاً على النفع.

ويصبح الضرر أقوى وأشد بأكل ورق، أو بذر هذا النبات فهو يورث أمراضاً صعبة الشفاء.

ولهذه الشجرة منافع كثيرة، أوردها الأقدمون فى كتبهم من أمثال "صاحب القاموس" و"أحمد بن محمد البوسعيدى" و"أحمد بابا السودانى"، وهى من الكثرة حتى أننا ظننا أن فيها شفاء من كل داء.

وقد أجمل المؤلف هذه المنافع فى أنها تشفى من السموم ضماداً، أو شرباً، وذلك بأن يجفف ورقه فى الظل ويشرب دخانه وقتها. وتشفى من السعال المزمن وضيق التنفس والصداع والشقيقة والحميات والبواسير ولسع الأفاعى والحيات والعقارب.

وهو عجيب فى الهضم ورفع الامتلاء بسرعة، وينفع فى وجع الكبد والطحال والكلى والمثانة ونزلات البرد وعرق النسا، والنقرس والجرب والحكة، ويضمد بورقه معجوناً بالعسل والخل على المفاصل المريضة، والصدغ وإذا دق بذره غير ناعم وشرب أياماً نحو الأسبوع وزن درهم بالعسل وماء الورد والصندل فإنه يفتت الحصاة ويحلل الرياح.

وإذا وضع على الأذن الثقيلة مخلوطاً بالتبن أزال ثقل السمع، ورماد ورقه لضعف البصر وخشونة الأجفان.

وهناك قصيدة طويلة لأحد الفضلاء يمدح فيها الدخان ويذكر منافعه ومنها:

لها قوة تنقى بها خلط بلغم … وحيا سريعاً من يجرب بصادق
ويذهب بالسوداء شرب دخانها … وتذهب بالضراء فى لمح بارق
كذاك الأفاعى والصلال الرواشق … وما مثلها شئ للسعة عقرب

وعلى الرغم من هذه المنافع، فإن الأبحاث الحديثة أثبتت أن أضرار التدخين لا تعد، فهى تورث أمراضاً مزمنة خطيرة تفتك بالإنسان، كما أنه يضر بمن حوله أيضاً، لذا فلم ير للتدخين أى منافع.

ولذلك لم يكن هناك خلاف بين الفقهاء حول تحريم التدخين فى عصرنا هذا، فهو مهلك للإنسان، ومن ثم نهانا الله تعالى عن أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة، ولكن المؤلف استعرض لنا خلافاً فى تحريم شجرة الدخان، فهناك من يرى أن دخانها جائز الاستعمال، وكذلك شم مدقوق يابسها؟ أما أكلها فإنه حرام لأنه مضر مؤذ يفسد البدن والحواس.

أما من حرموها فكان تحريمهم إياها قياساً على الخبائث والمسكرات فهى تورث الفتور والكسل لبعض الناس.

وربما لأنهم نظروا إلى ما يلحقها من العوارض الخارجة عن ذاتها، كاستعمالها فى مباسم فضة وذهب، وتعاطى العامة إياها فى الأسواق مما يسقط المروءة واجتماع شربها مع منكر كشرب النساء لها مع الغناء واللهو المحرم، والتنافس فى شرائها المترتب عليه تبذير الأموال والتضييق على معيشة العيال وقانا الله شر التدخين.

وقد انتهى المؤلف من هذه المخطوطة فى ١٧ رجب سنة ١١٩٦هـ ق ١٢هـ : ق ١٨م وجاءت فى ١٢ ورقة.

١٨- مخطوطة "الرحمة فى الطب والحكمة" للمؤلف "محمد المهدى بن على إبراهيم الصبيرى اليمنى".

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٢٨٢٢.

وجاء تأليف هذه المخطوطة استجابة لطلب الوزير "أبى القاسم بن عبيد الله " وذلك ليحدد الأمراض التى يمكن أن تبرأ فى ساعة - بإذن الله - بعد أن اجتمعت فى أيام وشهور.

وكان منهج المخطوطة فى ذلك هو ذكر الأعضاء من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين وهناك بعض الأعضاء لم يأت ذكرها لأن الأمراض التى تصيبها ليست من الأمراض سريعة الشفاء.

وبدأت هذه الأمراض بالصداع بأنواعه، ثم هيجان العين، فالزكام فوجع الأسنان، ثم العلق والشقيقة والصرع وهكذا حتى القدمين.

ولكل مرض علاجه، فالزكام مثلاً من أصعب الأمراض ويعالج بصب ماء شديد الحرارة على نافوخ المريض حتى يشعر بهذه الحرارة فى دماغه فيبرأ فى ساعته بإذن الله.

والجديد أن هناك علاجاً لقلع الأسنان بدون أدوات، أو ألم، وذلك بأن يؤخذ عقار ويوضع فى خل حتى يخمر شهراً ويلين ويصير مثل العجين، ثم يوضع على الضرس فيقلعه فى الحال.

ولم يهمل المؤلف الجراحات بأنواعها، فالجراحات العسرة التى لم تسكن منذ سنة، أو أكثر، يؤخذ لها سمن بقرى عتيق أتى عليه ثلاث سنوات، أو أكثر ويغمس فيه فتيلة من قطن ويوضع فى الجرح، فإنه يقطع التقيح فى الحال، ويكون تمام التئام الجرح فى ثلاثة أيام بإذن الله.

وأعظم علة يراها المؤلف هى عرق النسا، ويختلط أمرها على كثير من الناس، فلا يستطيعون تشخيصها، وهى تأتى بألم فى جانب من الوركين صاعداً من طرف القدم وعلاجه أن يؤخذ درهم صبر سقطرى ومثله أهليلج أصفر ومثله سورنجان، يدق وينخل ويعمل حباً ويتناوله المريض، فإنه يسهل فى خمسة، أو ستة مجالس فيكون الشفاء بأمر الله.

وبذكر هذا المرض ينتهى الجزء الأول من المخطوطة، ويليه بعض الملاحق التى تحمل عنوان "فائدة".

وموضوعات هذه الملاحق ليس بينها رابط، وهى أشبه ما تكون بالخواطر وأولها يحمل عنوان "اختبار المريض" وذلك بأن تكتب على بيضة الآية الكريمة "هو الذى أحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم ..". ثم توزن البيضة ونضعها تحت وسادة المريض ونعيد وزنها فى الصباح، فإن زاد وزنها صح المريض، وإن قل فإلى رحمة الله تعالى.

ويلى ذلك وسيلة "حل المفقود". ثم الثالث فى اختبار أيام الشهور العربية، فكل يوم من هذه الأيام له صفاته وأعماله المستحبة، أو المكروهة فيه، فمثلاً: اليوم الأول من الشهر يوم سعيد خلق الله فيه آدم وهودا عليهما السلام، فكلموا فيه الملوك والأمراء واطلبوا حوائجكم وسافروا فيه، فإنه يوم مختار صالح، وبيعوا واشتروا فيه، ومن مرض فيه إلا ويبرأ سريعاً ومن ضلت له ضالة وجدها قريباً.

أمـا اليـوم الثـالث فهـو يوم نحس فاحـذر فـيـه ولا تطلب حـاجة ولا تدخل على سلطان ولا تبع ولا تشـتـر ولا تسـافـر فـيـه، فإنه اليـوم الذى أخـرج فيـه آدم من الجنة.

والحقيقة أن المؤلف لم يوضح لنا مصدر معلومـاته عن هذا الموضوع، ولا نعلم مدى صحتها ونعتبرها من الغرائب.

أمـا الجـزء الثـالث من المخطوطة فـيـحـمل عنوان "فـائدة" أيضـاً، وهو آيات قرآنية تكتب وتقرأ للمريض ليشفى بأمر الله ، وبعدها صلاة وسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى نحو عشر ورقات.

والواضح أن هناك أوراقاً مفقودة من هذه المخطوطة، لأنها بعد ذلك تطالعنا بقصـيدة طويلة، ليس لها أى تقديم، ولا يعـرف من مؤلفـهـا وهى تقدم عـلاجاً لضـعف الجـمـاع، وترى أنه يصلح لبـعض الأمـراض الأخـرى كـالمغص النـاتج عن الامـتـلاء وتأخـر الحمل وهضم الطعـام وعـلاج العـين، وهذا العـلاج مـأخـوذ من كتاب جالينوس وقد توارثته الأجيال.

ويتـركب هذا العـلاج من قـافلة حبشـيـة وكبـابة وخـولنجـان وعـرق ذهب وجـوز الطيب وزنجـبـيل، وذلك بنسب مـتـسـاوية، وتسـحق فى هـاون، ثم تنقع فـى مـاء وصمغ وتصنع منه أقراص وزن الواحد ربع درهم وتجفف فى الظل.

وبذلك تنتهى المخطوطة التى دونت بخط النسخ فى ٢٧ ورقة من مقاس ١٥- ٢١ سنتيمتر فى عام ١٢١١هـ أى ق ١٣هـ : ق ١٩م .

١٩- مخطوطة "شرح كتاب أبينديميا للإمام أبقراط" للمؤلف "علاء الدين على بن حزم القرشى ابن النفيس".

- محفوظة بدار الكتب المصرية

على الرغم من أن كتـاب أبينديمـيـا لأبقـراط، والذى لخـصـه ابن النفـيس فى القرن السابع الهجرى، يعد حلقة قديمة إلى حد بعيد فى سلسلة التطور المعرفى الإنسانى، فإنه حقق ما تتجه إليه طائفة من المجالات العلمية والعملية الآن، ألا وهو التخصص.

فهذا الكتاب تخصص فى الأمراض الوافدة الحادثة عن فساد كيفيات الهواء.

أمـا "ابن النفيس" فكان أمينا فى شرح هذا الكتاب، واعتـمد فى منهجـه على

تفسير الألفاظ وإيضاح العلل وتفصيل المجمل، لكنه لم يتعرض للمخالفين المعارضين لعدم الإطالة.

والحقيقة أن "ابن النفيس" كان يشتت القارئ فى بعض الأحيان، لأنه لم يكن يقدم مقطوعة من كتاب أبقراط، ثم يقوم بشرحها، ولكنه أحياناً كان يقدم عبارة ويشرحها، ثم عبارة أخرى، وهكذا.

والكتاب يبدأ بوصف ما يعترى الهواء من اختلاف نتيجة لاختلاف البقاع والأزمنة، وذلك لأن اختلاف الهواء هو أساس الإصابة بالأمراض المختلفة.

وأزمان البيئة أربعة خريف وشتاء وصيف وربيع، ولكل زمن ظروفه، من حيث الحرارة والأمطار والرياح.

والغريب هنا أن هذه الفصول قد ارتبطت بما يعرف عندنا بالأبراج، ففصل الخريف، مثلا، هو زمان حركة الشمس حركتها الخاصة من أول الميزان إلى أول الجدى، ويسمى زمان حلول الشمس أول الميزان زمان الاستواء، وكذلك حلولها أول الحمل لأن فى هذين الوقتين يستوى الليل والنهار فى جميع المعمورة.

ويلى ذلك وصف الأمراض التى تنتج عن اختلاف هذه الأزمنة، وتبدأ بالحمى التى تحدث عن خروج هواء الربيع عن حالة الاعتدال فيقل المطر ويصبح الهواء يابسا بعد رطوبة الخريف، فتنفذ الرطوبات فى الأبدان وتتبخر إلى الدماغ فتحدث الحمى، وهى غالبا حمى غير مميتة لأن الرطوبة فى الأبدان ليست مفرطة.

وقد يصاب بعض الناس بأورام خلف الأذن نتيجة لاندفاع هذه الرطوبة من الدماغ إلى الأذن، وهذه الأورام قابلة للتحلل، ولا تتقيح، لأنه لا يصاحبها التهاب، ولو صاحبها لأحدثت حمى محرقة لها وجع شديد وأكثر من يتعرض لهذه الأورام هم الغلمان والفتيان كثيرو الحركة أما النساء فلا يتعرضن لهذه الأورام.

وقد يتطور الأمر بهذه الرطوبات فتسيل إلى أسفل وتصيب الرئة، فيتعرض الإنسان للسعال، وإذا لم يشف منه فى هذا الفصل (الربيع) وحل فصل الصيف، فيصاب بعض الناس بالسل، ويشرف الآخرون على الإصابة به.

وبالنهج نفسه السابق، يسير الكتاب فى عرضه للأمراض وتطورها، ومن صميم هذا الموضوع الحديث عن كيفية تشخيص الأمراض، ووسائل هذا التشخيص.

فلابد للطبيب من استعمال بدنه وحواسه وفكره فى تعرف الأمراض وتدبرها، وعليه أن يتعرف من المريض على كل أحواله ليكون التشخيص وافيا.

وليعرف أن للأبدان ثلاثة أقسام، أعضاء وأجسام محصورة فيها، وهى الرطوبات وأجسام نافذة فيها وهى الأرواح، ولكل قسم حالاته فى الصحة والمرض.

ومن أحوال المرضى كذلك، النطق والسكوت فهما دليل على حالة عقل المريض، فمن كان كلامه عظيماً، دل ذلك على القوة والعكس، وإن كان كثيرا فهو يدل على ابتداء اختلاط الذهن.

أما ما يخرج من البدن فهو مهم أن يعرفه الطبيب، فهذه المواد دليل المرض، أو الصحة ومن هذه المواد العرق والدموع والقئ والبزاق، فلكل مادة من هذه المواد لون وقوام وسبب لخروجها ومكان لخروجها وطعم وهكذا.

كما أن الزمن والسن من المعارف التى يجب أن يلم بها الطبيب، فهل الفصل الذى حدث فيه المرض ملائم لحدوثه أم لا، وكم هو زمن المرض، أما سن المريض فهى مهمة فمثلا خروج الأسنان ونبات الشعر وخروج المنى مرتبطة جميعا بسن معينة، إذا تأخرت، أو تقدمت عن هذه السن فهى علامة مرضية.

ولم يغفل المؤلف تدابير المرض، واستنتجنا أنه يقصد بها الوقاية من الأمراض. ومنها معرفة كيفية الانتقال من غذاء إلى آخر، بينهما اختلاف فى الكيفية والكمية والنوع، كأن ننتقل من طعام حار فى الشتاء إلى آخر بارد فى الصيف، ومنها تدبير الاستحمام والدهان وكل ما يرد إلى البدن، وليس بجزء منه وقد يصبح جزءا منه كالأدوية والغذاء والهواء المستنشق الذى يختلط بالدم ويصير جزءا من الروح.

ومن التدابير إصلاح المراقد والمضاجع ، فينظر الطبيب فى أى المواضع ينبغى أن يكون وكيف يكون الدثار؟ فالمحرور مثلا يجب أن يكون مرقده فى مواضع باردة، و دثاره يكون مثل الكتان.

والحقيقة أن هذه التدابير كثيرة جدا لكثرة الأمراض التى قد يصاب بها الإنسان فلن نستطيع حصرها، ولن نصل فيها إلى حد اليقين.

ولهذا الكتاب ملحق به قصص بعض المرضى، وقد استخدم أبقراط رموزا من الحروف الأبجدية على سبيل الاختصار.

فمثلا: استخدم حرف "ص" ليشير إلى أن المريض قد صح، واستخدم حرف "هـ" إن كان المريض قد هلك، وحرف "ح" لعدد أيام المرض وغيرها، وقد وردت هذه القصص فى كتاب أبقراط دون شرح لأعراض المرض، أو سببه لكن "ابن النفيس" قام بهذه المهمة بشكل عظيم يدل على تمكنه من هذا العلم.

ومن هذه القصص مثلا: المرأة المريضة التى كانت فى منزل والدها السيد طامالس التى تحركت عليها أعراض العلة التى تسمى أبليوس بقوة وشدة، كان بها قئ كثير، وكانت بها أوجاع فيما دون الشراسيف وكانت فى المواضع السفلية من البطن أوجاع ومغص دائم، ولم يكن بها عطش، وكانت تسخن أحياناً وكانت أطرافها باردة بردا دائما، وكان بها كرب وأرق وكان بولها رقيقا يسيرا وكان برازها رقيقا يسيرا أيضا، وما عولجت بشىء نفعها حتى ماتت.

هذه هى قصة أبقراط، أما شرح ابن النفيس فقال فيه: العلة التى تسمى أبليوس، هى ورم فى الأمعاء يصحبه تعسر خروج ما يخرج من أسفل، وأردأها ما كان الورم فى الأمعاء الدقاق، وظاهر أن ورم هذه لم يكن حارا وإلا لزم ذلك حمى مزمنة قوية، لكنه كان من بلغم ولذلك كان يخرج لها برازيسير، وأما القئ فظاهر أنه يلزم فى هذه العلة، وكذلك فقدان الشهوة، وأما فقدان العطش فلأن الورم لم يكن حاراً، وأما الأوجاع التى دون الشراسيف، فلأجل انجذاب المواضع التى هناك بفعل الورم، ويقل ما يحتبس لأجله ولأجل ما يلزم هذا المحتبس من الرياح يحدث المغص والأوجاع فى أسفل البطن، وهذا يدل على أن الورم فى الأمعاء الغلاظ، أما السخونة أحياناً فلأجل الأوجاع، أما الكرب والأرق فلأجل احتباس الفضول فى الأمعاء والمعدة أيضاً وأما برد الأطراف فلضعف الحار الغريزى لانحلاله بهذه الأوجاع ولفساد أرواح القلب، بما يتصعد من أبخرة الأمعاء، وأما دقة البول وقلته فلأجل قلة ما كان ينفذ إلى الكبد من الغذاء، ولأن الكبد أيضاً يتضرر بهذا الورم لأجل المجاورة وقد أصابها ضيق شديد فى النفس، لمزاحمة المحتبس للحجاب الحاجز فكان موتها.

والحقيقة أن هذه المخطوطة من المخطوطات الطوال، حيث استغرقت ١٩٣ ورقة مقاس ١٥ - ٢٣ سنتيمتراً .

٢٠- مخطوطة "معينة المعانى فى صناعة الطب من الإخوان"، أو "منظومة فى الطب" مؤلفها "إبراهيم أحمد الشافعى الشيوى الدسوقى".

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، تحت رقم ٣٠٤٦.

هى منظومة فى فن صناعة الطب، والطب خاصة لأنه من العلوم التى تميل القلوب إلى تعلمها، وبه تصلح الأبدان والقلوب.

ومادة هذه المخطوطة جمعت من كتب مشهورة بالصحة كالحاوى والتذكرة السنية وغيرهما.

وقد وضع لها مؤلفها منهجا، أوضحه فى بدايتها، فهى تبدأ بفائدة فى تعريف علم الطب، ثم قاعدة فى وسائل التشخيص التى يستخدمها الطبيب، ثم عرض لعلاج كل عضو يصاب بالأمراض بداية من أعلى عضو "الدماغ"، و نزولا حتى القدمين، وقبل الخاتمة ألحق بها نظماً خاصاً بأمراض الأطفال.

وفى تعريف علم الطب ذهب إلى أنه العلم الذى تعرف به أحوال الأبدان من صحة، أو مرض وموضوعه هو الأبدان وهو موضوع يعجز الباحث عن تناوله بجميع جوانبه، ولكن يدرك منه ما يستطيع، ولتعلم أن الإهمال فيه قد يؤدى إلى موت إنسان.

أما وسائل التشخيص المعتمد عليها هنا، فهى تحليل البول واختبار النبض ويجب أن يكون التحليل فى قارورة من بلور، أو زجاج صاف، ولونه وقوامه يحددان نوع المرض، فمثلا الأبيض الغليظ علامة على السوداء، والميل إلى الحمرة مع الغلظة دليل على غلبة الدم وهكذا.

أما النبض فهو محصور فى ستة أشكال، يدل كل منها على نوع المرض المسبب لها، فالنبض الغليظ سريع الحركة دليل دموى وموضعه الكبد وأصله من الشمس، أما الغليظ بطئ الحركة فهو علامة البلغم وموضعه الرئة وأصله من الماء.

وتلى ذلك مقدمة ترى أن ما يصيب الأبدان من أمراض يأتى من اختلاف الطبايع الأربع "الصفرا والدم والسودا والبلغم"، وإن تساوت هذه الطبايع فى جسد، وهو الشائع، صح، وإن مال إحداها تولدت الأمراض، ولها علامات،

فعلامات غلبة السودا مثلا، دوار الرأس مع ضعف القلب والصدع فى اليافوخ والحرارة فى الرأس والبياض فى العينين وصرير داخل الأذنين.

وكما أن هناك أسباباً تورث الأمراض، فإن هناك أيضاً أمورا تركها فيه صحة الأبدان، كألا يأكل الشخص السمك الطرى حتى الامتلاء، مع شرب الماء البارد، فإنه يؤدى إلى الفالج ، وألا يجمع الإنسان بين البيض مع لحم السمك، فإنه يولد القولون والأوجاع فى الضرس، وكذلك السمك مع اللبن يؤدى إلى البرص والوثب، والصراخ يؤدى إلى الفتاق.

وكان يجب على المؤلف أن يرجئ هذا الباب إلى نهاية المخطوطة، فيقدم أسباب الأمراض وعلاماتها، ثم كيفية الوقاية منها.

وعلى سبيل الإجمال نجد بعد ذلك عرضا لطبيعة الأطعمة والأشربة والمستحب منها فالطير، مثلا، الأهلى (البلدى) منه أفضل، ثم الجناح، ثم الصدر والأسماك متماسكة اللحم والتى تعيش فى الماء العذب أفضل من البحرية، وكل شئ دسم فهو بارد رطب وكل حلو فهو حار رطب فى الاعتدال.

أما علاج الأمراض، موضوع المخطوطة، فيبدأ بالدماغ وحتى القدمين، ويبتدئ كل نوع بعنوان "فوائد الـ...." قبل العضو، فهناك فوائد القلب و"فوائد الدماغ" وهكذا.

ومما يذكر للمؤلف أنه لم يكن يترك العضو وينتقل إلى غيره إلا بعد أن يتمه من حيث كل الأمراض التى تصيبه وعلاجها.

فمثلا، العين، قدم لها علاجا لتقوية بصرها وتنوير ظلمتها وآخر لنزول الماء منها ولحمرتها، وعلاجا ينبت الشعر فى الأجفان وينفع فى القروح، وآخر لجرب العين ولاسترخائها ولداء الرمد، ولخشونة الأجفان وهناك علاج لشعرة العيون.

وإذا تعددت أسباب المرض تعددت علاجاته، فمثلا السعال الناشئ عن الربو يعالج بطبيخ التين اليابس مع الحلبة حتى يتهرى، ثم يصفى ماؤه عن تفله ويجعل عليه بنفس قدره عسلا، ونطبخها مع نزع الرغوة حتى تأخذ قواما، ويشرب منها المريض قبل النوم حتى يبرأ.

أما السعال الناشئ عن برد الهواء فينفعه الجوز المشوى بقشرته، ثم إذا كان السعال مزمنا فينفعه لعق الزعتر مع العسل.

وينفع مع كل أنواع السعال، ويكسب الحسن للون البشرة، ويبرئ من الحميات

المزمنة سف مقادير متساوية من الشمر والسكر وعرق سوس مع المداومة على ذلك.

أما وسائل العلاج فقد تعددت كذلك، فهناك الشراب، كما هو واضح من علاج السعال والضماد، كالتضمد بورق الخروع على الثدى لإدرار اللبن، والسفوف مثل سف الشيح، أو جوارس الكمون كعلاج للتخمة وهناك الطلاء كطلاء المقعدة بمحلول الصبر مع ماء الكرات لعلاج البواسير.

وفى الخاتمة نجد علاجات لبعض الحالات الخاصة، مثل علاج الدمامل والخراريج وعلاج لسع الهوام والعقارب وعلاج داء الثعلب والبهاق وعلاج الجروح وداء الفيل والنقرس.

والجدير بالذكر أنه اعتبر أن السحر أحد الأمراض التى يجب أن تعالج بالتبخر بالشيح واللبان مع الزعتر، أو ذبح الهدهد وتعليقه فى مكان السحر.

وآخر الأبواب فى "فوائد الأطفال" وبه علاج لكثير من الأمراض التى تصيبهم، ويعجب المؤلف من إهمال الكتب الطبية لمرض يسمى بـ "داء الشم"، وهو مرض خطير ويعالج بدهان "دهن حب البان، أو دهن البنفسج الممزوج بالمسك، أو بشرب ماء التفاح مع ماء الورد، أو بشراب الحصرم مع ماء النعناع، وهناك علاجات للمغص والصرع وللتأخر فى المشى ولحبوب الرأس فى الصبيان وللطفل الذى يبول على نفسه.

ولم يغفل الكاتب علاج الأطفال من الحسد والنظرة وذلك بتعليق عود الصليب، أو عود هندى على المصاب منهم.

وفى الختام كان تقديم علاج عام ينفع من كل علة وداء ومن كل وجع ظاهر وباطن من مفرق الرأس لمنتهى القدمين.

وتتكون من جوز الطيب وحلو القسط وزعفران وقرفة وقرنفل وعود ومصطكى وروواندا وغافتا وكرفس وبذر هندى وبذر كشوت فى وصفة عجيبة، شملت العديد من المواد، وكانت تجمع من هذه المواد أوزان متساوية وتعجن بالعسل الذى وزنه ثلاثة أمثال المقدار ونحفظه من الغبار ونتناوله يوميا، وتبدأ الجرعة من درهمين، ولا تزيد على ستة دراهم.

وفى النهاية يحدد المؤلف عدد أبيات المنظومة ٢٠٣ أبيات، جاءت فى ٣٠ ورقة من مقاس ٧,٥ - ٢٤ سنتيمتراً، ونسخت بخط الرقعة البدائى، وتاريخ النسخ يرجع إلى عام ١٢٤٥هـ.

وطلب المؤلف أن يسامحه القارئ على ما يجده من أخطاء، أو عيب فى النظم، ومن ير خطأ فلينظر فى كتاب "قانون بن سينا" ليستوضح الأمر، ويتعرف على الصحيح وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد.

٢١- مخطوطة "كتاب كشف الأسرار فى حكم الطيور والأزهار" ويليه "مقامات السيوطى"

- هذه المخطوطة مجهولة المؤلف بالنسبة لنا لكنها تدخل فى الإطار التاريخى للبحث فهى مؤلفه فى عام ١٢٦٨ هـ أى ق ١٣ هـ : ق ١٩ م.
- محفوظة بدار الكتب المصرية

والحقيقة أنها من المخطوطات الثرية المتميزة فى موضوعها، فهى تكشف عن الفوائد الطبية لبعض النباتات والأزهار، بالإضافة إلى الحكم والمواعظ التى نستشفها من هذه النباتات ومن الحيوانات أيضاً.

وقد تمت صياغة كل هذه المعلومات والجمع بينها بأسلوب أدبى جميل، يدل على أن المؤلف حساس وشاعر وذو حس أدبى واتجاه فلسفى تأملى دينى.

ومن نتائج هذه التأملات وجد المؤلف أن كل ما حولنا فى العالم من جماد وحيوان وأشجار وأزهار، ما هى إلا رموز نستخلص منها العبر والعظات فهى تنطق بلسان الحال الذى هو أفصح وأصدق من لسان المقال.

وبالرغم من الهدف النبيل للمخطوطة، فإنها لم يكن لها منهج واضح فى عرض مادتها، فذكر الطيور جاء دون ترتيب لها، وكذلك عرض النباتات والحيوانات، حتى أننا نجد ذكر الشمع فى وسط الحديث عن الأطيار.

لكنها التزمت بشئ واحد فى كل المخطوطة، وهو تقديم أبيات من الشعر حول الموضوع الذى يتحدث عنه.

وتماشيا مع هدف المخطوطة، فإن كل عنصر يتحدث عنه المؤلف يتصدره عنوان "إشارة الـ..." وذلك لأن كل نبات، أو حيوان، أو طير، إنما هو إشارة إلى موعظة، أو حكمة.

وأول إشارة تطالعنا هى "إشارة النسيم" وفيها من فوائده أنه رسول المحبين يحمل رسائلهم ويحفظ أسرارهم وهو لين الانعطاف، فلولا وجوده لكان الجو جافاً، وهو يختلف فى الفصول الأربعة، ففى الربيع يهب من الشمال، وفى

الصيف والخريف يهب من الجنوب، وذلك كله يساعد على نمو الثمار وتلقيح الأشجار وتسلسل الأنهار، وفى الشتاء يخف عن كل شجرة حملها ويجف ورقها ويبقى أصلها.

ويلى هذه الإشارة إشارات إلى بعض الزهور وفوائدها، الطبية والحكم المستفادة منها، وجاء عرض هذه الإشارات على شكل حوار بين الأزهار، ومن ذلك إشارة النرجس، الذى قال عن نفسه إنه القائم على ساقه لله عز وجل متهجداً فى الليالى وهو مع ذلك خادم القوم وشاهدهم و"سيد القوم خادمهم"، وهو يعلمنا شروط الخدمة فهو يشد للخدمة وسطه ويوثق بالعزيمة شرطه ولا يجلس بين الجلاس، ولا يرفع إلى النديم رأساً، ولا ينسى عهد من وصله ولا يقسو قلبه على من قطعه.

وعنه قال أبو شروان "النرجس" ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر"، وهو ينفع غاية النفع من داء الثعلب والصرع، وفى أصله قوة تلحم الجراحات العظيمة وشمه ينفع من وجع الرأس والزكام البارد، ودهنه نافع لأوجاع العصب وأوجاع المثانة والأذن.

وقد رد عليه الياسمين فى إشارته قائلا: إنه أسمك مشمول بالعجمة، وكيف لك أن تطلب الملك وأنت قائم مشدود الوسط فى الخدمة، وأنت المهيج للقئ المصدع من المحرورين للرءوس وتسقط الجنين وصفرتك لغير علة.

أما أنا، الياسمين، فأبيض الوجه والبياض شطر الحسن، وجاء ذكرى فى حديث شريف عن أن قارئ القرآن الكريم يؤتى بياسمين الجنة فى قبره.

وأنا النافع من أمراض العصب الباردة والملطف للرطوبات الجامدة وللزكام والشقيقة ومن وجع الرأس البلغمى والسوداوى ودهنى نافع من الفالج ووجع المفاصل.

ويرد على الياسمين إشارة الريحان، ثم الأقحوان، ثم الخذام .. إلخ، وتلى هذه الإشارات "إشارة السحاب" التى ركزت على أهميته فى الحياة لكل الموجودات، وفيه قال تعالى: "وجعلنا من الماء كل شئ حى..." .

ثم تأتى إشارات الطيور وأولها "إشارة الهذار"، ثم الباز، ثم الحمامة فالخطاف والطاووس والخفاش والبط والنحل والفراش.. إلخ.

وهى كالأزهار فى حياتها حكم ومواعظ لأولى الأبصار، ومن أهمها

"إشارة الحمامة" فهى رمز للأمانة، حيث تم اختيارها لنقل الرسائل وذلك بعد تمام نضجها واعتدال تركيبها وهى تتحمل فى سبيل هذه الأمانة المخاطر والخوف من الوقوع فى فخ مدفون، وكذلك تتحمل الجوع والطير فى الظلما والهواجر، وإذا ما وصلت إلى مرادها وأدت الأمانة انقلبت إلى شكر الله والراحة.

وفى إشارة النحلة "العديد من الحكم كذلك فهى تقول عن نفسها: إنه إذا صفا المشرب صفا عيش الشارب، وبطيب المطاعم يطيب الطاعم ولذلك لما طاب مشربها ومأكلها رفعت رتبتها وعلا منصبها وكمل أدبها وسلكت سبل ربها ذللا وشكرت نعمته وصنعت لنفسها فى الجبال بيوتا يعجز كل صانع عن صنع مثلها.

وقد ورثت العلم والعمل فكان الشمع ثمرة العلم وهو للضياء، والعسل ثمرة الحلم وهو للشفاء من كل داء وبعد إشارة الهدهد التى هى آخر إشارات الطيور والتى تحمل قصة الهدهد مع سيدنا سليمان وما فيها من عبر. تأتى مباشرة إشارات الحيوانات وتبدأ بإشارة "الكلب"، ثم الجمل والفهد والفرس ودودة القز.

ومن إشارة الجمل "نتعلم الجلد والصبر، فمن توسد الفقر فعليه بالصبر، فالفقير الصابر هو المعدود من الأكابر".

فالجمل يحمل الأحمال والأثقال ويقطع المراحل الطوال ويصبر على مر النكال، ولا يعتريه فى ذلك ملل وليس بالخاين ولا الغلول، يسلم قيادته إلى الحادى ليبلغ مراده وهو المشار إليه فى الذكر الحكيم "ويحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس".

ومن "إشارة الفهد" نتعلم حسن الألفة والأخلاق الصلفة، فهو فى صيده أروع مثل على إصلاح النفس فهو إذا أخفق فى طلب فريسته يغضب على نفسه غضبة التقصير، فمن استوثب نفسه إلى المكارم فأبت، فعليه أن يغضب عليها غضبة الأنف، ثم يعود إلى التوبة ويستأنف، ولا يرضى بالهمة الدنية ومن إصلاح النفس، كذلك أنه إذا اعتراه سمن وغلب عليه شحمه، فإنه يخلو بنفسه ويعالجها بترك العادات والمألوفات وإذابة الشحم بالجوع الذى هو مخ العبادات، وذلك حتى يصفو الجسد من العفونة والنفس من الرعونة.

وفى النهاية وفى موضوع المخطوطة نفسها، تأتى مقامات الأسيوطى تحت عنوان "المقامات المسكية".

فموضوعها، كما هو واضح من العنوان هو الطيب وهو أربعة أنواع "المسك والعنبر والزعفران والزباد"، وذلك لأن لهذه الأنواع الكثير من الفضل، وقد جاء ذكرها فى أحاديث نبوية صحيحة السند، ومنها قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة".

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من عرض له طيب فلا يرده فإنه خفيف المحمل طيب الريح" والطيب مستحب فى مواطن كثيرة - لكل حى وكل ميت - كالجمعة والعيدين والكسوفين والاستسقاء وعند الإحرام.

وأول هذا الطيب هو المسك وعنه قال الرسول صلى الله عليه وسلم "خلق الله الجنة بلاطها المسك وحشيشها الزعفران وحصباؤها اللؤلؤ وترابها العنبر".

وقال تعالى عن المسك: "يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون". وقد طيب به النبى صلى الله عليه وسلم فى حنوطه عند وفاته.

ومن حكمة استخدامه أنه فى الدرجة الثانية من الحرارة التى اشتعلت وما اعتدلت، ومن منافعه أنه يسخن الأعضاء وينفع من الرياح الغليظة المتولدة فى الأمعاء ويقوى القلب ويذهب عن النفس أحاديثها المستنكرة ويصلح أفكارها ويقوى الأعضاء الظاهرة وضعا والباطنة شربا، وينفع فى أوجاع البواسير الظاهرة طلاء عليها بالتكرار وفى أدوية الحواس الأربع كلها ذكاها، وإذا خلط بالأدوية المسهلة أبلغ فى نفعها وغير ذلك الكثير من المنافع.

وعنه تحدث الكثير من الشعراء ومن ذلك قال الشاعر:

المسك أنفس طيبا مثل الشباب وزينة

حكاه ظرفا وحسنا فى شذاه ولونه

إن كان للطيب عين فالمسك إنسان عينه

وعلى المنوال السابق نفسه كان ذكر العنبر والزعفران اللذين صحت الأحاديث النبوية فى أن الأول تراب الجنة والثانى حشيشها.

ولكل منهما فوائده الثابتة وفى نهاية المقامات والمخطوطة يؤرخ الكاتب لها بيوم الخميس من شهر شعبان عام ١٢٦٨ هـ وقد كتبها فى ٣٠ ورقة.

٢٢- مخطوطة "المفردات الطبية" لمؤلفها "أحمد بن حسن الرشيدى غانم".

- محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٩٩ طب.

ألف هذا الكتاب على أنه درس فى المفردات الطبية بمدرسة الولادة المرضية، بناء على طلب من ناظرها المعلم البيرون اللغوى.

ولذلك، فإن هذه المخطوطة منظمة تنظيماً دقيقاً، فنجد لها فهرسا مفصلا ومنهجا واضحا ومقدمة تعرف بالمادة الطبية وفعلها وترتيبها. فالمفردات الطبية هى المواد الداخلة فى علم شرح الأدوية، وهو علم هدفه الوقوف على الجواهر المستعملة فى معالجة الأمراض.

وهذه الجواهر تؤخذ من الممالك الطبيعية الثلاث: النباتات والحيوانات والمعادن، أما طعم الأدوية وفعلها فله تأثير فى العلاج، فإذا كان الدواء بلا طعم، فإنه غالبا لا يكون له فعل ظاهر سريع على البدن، وهو إما دواء عمومى، أو موضعى، فالموضعى تأثيره على العضو الذى يوضع عليه فقط أما العمومى هو الذى يؤثر فى البدن كله.

أما منهج المخطوطة فهو قائم على ترتيب الأدوية حسب النتائج الأولية التى تتولد عنها، وهى بذلك اثنتا عشرة رتبة، الأولى المليئة والثانية المنبهة العمومية، والثالثة: المقوية، والرابعة: القابضة والخامسة المسهلة والسادسة: المقيئة والسابعة والثامنة المدرة للطمث، والتاسعة المخدرة، والعاشرة المعرقة والحادية عشرة المحمرة والمنقطة والثانية عشرة الطاردة للدود.

وبعرض كل رتبة من هذه الرتب نجد أن لها تأثيراً على البدن وطريقة لعملها ومصدراً تُستقى منه الأدوية.

مثلا: الرتبة الثانية فى "المنبهات العمومية"، يذكر المؤلف فى هذا القسم الأدوية المنبهة التى لا يظهر فعلها فى نوع من الأعضاء بمفرده، بل يحس فعلها فى جميع أجزاء البدن، وهى مستخلصة من النباتات كالقرفة والقرنفل والفلفل الأسود والزنجبيل والبن والشاى والبابونج الرومى والأقحوان والنعناع الفلفى المعروف بالنعناع الإنجليزى وحصا اللبان والكزبرة الخضرة والكمون والشمار والأنسيون والكراويا وشجر النارنج والبرتقال.

ويمكننا الحكم بأن المخطوطة بشكل عام تتسم بالدقة والتقدم، ففى وصف النبات، أو الحيوان المستخلص منه جوهر علاجى نجد وصفا دقيقا للشكل وربما وصفا تشريحيا للحيوان، وتحديداً للطائفة النباتية، أو العائلة الحيوانية المنتمى إليها الحيوان، وتحديد للمكان الموجودة به.

ومثال ذلك وصف "نبات الشاى" بأنه شجر ينبت كثيرا فى بلاد الصين ويتخذ من هذا الشجر الأوراق، وهى بيضاوية الشكل طولها من إصبع إلى إصبعين كاملة من قاعدتها إلى طرفها، وهى ذات رائحة ذكية طعمها مر.

وبعد أن تسخن يفصل عنها عنصر حريف بوضعها فى الماء المغلى نصف دقيقة، ثم تعصر فى خرقة من قماش وتوضع على ألواح من حديد مسخنة، ثم تنتقل إلى ألواح أشد من الأولى حرارة، وهكذا حتى تجف وتكتسب لونها وشكلها المشاهد فى المتجر، هذا ومنه أخضر ومنه أسود والأخضر أنواع وكذلك الأسود.

استعماله وخواصه وهو مستعمل فى جميع جهات أوروبا، ومنقوعه كثيرا ما يستعمل لتسهيل الهضم، لكن لا ينبغى المداومة على استعماله، لا سيما للأشخاص العصبيين، ومن يحصل عندهم التنبيه بسهولة، ما لم يكن مخلوطا باللبن مثلا، وأما الأشخاص الذين عندهم ارتخاء طبيعى فلا ضير باستعمالهم له، وهو يقوى الوظائف المهمة من الجسم، ويسرع الهضم ويقويه، ومن ذلك يسرع فى دورة الدم ويزيد فى العرق الجلدى، وكيفية استعماله منقوعاً فى نصف درهم إلى درهم، فى رطل إلى رطلين من الماء المغلى، ثم يحلى بالسكر.

ومن المملكة الحيوانية نجد وصف "الزراريج" وهى حشرات ذوات أجنحة، كيسية من طائفة المنقطات وتكون فى خلايا زمن الربيع على أغلب أشجار الياسمين وطولها من ستة خطوط إلى عشرة، ولها أربعة أجنحة، اثنان علويان خيطيان طويلان سهلا الكسر، متلونان بالخضرة اللامعة الجبلية، واثنان سفليان شفافان أطول من العلويين، وهما يميلان للسنجابية معدان للطيران، وصدرها صغير جدا مربع أعرض من البطن والرأس مع الصدر يكونان أحد عشر مفصلا وشكل رأسها قلبى غليظ وعيونها مشقوقة ولها قرنان أسودان ضيقان أطول من الرأس، وتجمع هذه الحشرات فى شهر الربيع قبل طلوع الشمس عندما تكون مدهونة بسبب رطوبة الليل، وتجمع على منخل يوضع على إناء فيه خل موضوع فوق الحرارة التى تؤدى إلى تصاعد حمض الخليك الذى يقتلها، ثم يجفف جيدا لتحفظ فى زجاجة ويسد عليها بإحكام وتسحق، ثم تتعاطى من الباطن من ربع

قمحة إلى نصف قمحة وصبغة من نقطتين إلى ٨ نقط، و تقطر هذه الصبغة من الظاهر وقد يجهز منها زيت يستعمل دلكا وهى علاج للشلل المثانى والسيلان الأبيض المزمن ولعدم شهية الأكل فى الأشخاص المصابين بالداء الزهرى .

وقمة هذا التقدم تتضح فى استخدام مصطلحات كيميائية حديثة وأدوات معملية، مثل "ثانى أكسيد الحديد" لونه سنجابى أسود إذا كان قطعا وهو مركب من الحديد والأوكسجين ويحضر بوضع الحديد مدة طويلة فى الماء وهو من رتبة المقويات. وأما الأدوات المعملية فمنها استخدام المرشح والمجفف وعند درجة حرارة ٣٦ م فى تحضير كبريتات اللينين أحد المقويات من المملكة المعدنية.

ومن أهم موضوعات المخطوطة موضوع المخدرات فقد عرضت لتأثيرها بشكل عام، ثم تأثير كل مخدر على حدة.

فهذه المخدرات ذات تأثير خصوصا على الأعصاب والمخ؛ فهى تنقص همة الأعضاء المخية وتضعف وظائفها، وهذه الأدوية أن أعطيت بكمية صغيرة جدا وقع أكبر فعلها على الجهات المماسة لها فتنقص حسها، وإن أعطيت بكمية كبيرة أحدثت ضعفا فى جميع البدن يؤدى إلى النوم، وإن كان المقدار أكبر يؤدى إلى ثقل فى الرأس وظلمة فى البصر ونقص فى القوة العقلية، أو ضعف ودوخان وحالة تشبه حالة السكر.

وقد تحصل له حركات تشنجية وفالج، وغالبا فإن النبض لا يستقر على حال، ويكون التنفس صعبا وغالبا ما يحصل صعوبة فى العرق.

وتأثير هذه الأدوية واضح فى أعضاء الهضم، إذا أخذت بكمية صغيرة ولها تأثير مسهل لطيف جدا .

وقد انتهت المخطوطة بعرض آخر رتبة من الرتب دون أن تقدم خاتمة توضح فيها تاريخ نسخها بالضبط ولكنها تعود إلى القرن ١٣هـ، ١٩م وقد دونت فى ٤٧ ورقة.

٢٣- مخطوطة "أمراض أعضاء التنفس":

- مجهولة المؤلف.
- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٢٣٦٢ .

هذه المخطوطة مجهولة المؤلف وهى فى إطار تاريخ البحث، مؤلفة فى عام ١٢٩١هـ ١٨٧٤م أى ق ١٣ هـ : ق ١٩ م.

وهى بذلك من المخطوطات المتقدمة تاريخيا، وكذلك هى متقدمة فى منهجها ومادتها العلمية، فقد حققت نوعا متقدما جدا فى التخصص فى موضوع البحث، فقد اهتمت بالأمراض التسممية المزمنة. تناول الفصل الأول أمراض أعضاء التنفس والحنجرة والرئة، بينما تناول الفصل الثانى أمراض القلب، والثالث فى أمراض التامورا على الغلاف القلبى، وأما الأخير فعالج الأوعية الغليظة.

وقد قسمت هذه الفصول إلى مباحث التزمت منهجا واحدا فيها جميعا، فهى تعرض كيفية حصول وأسباب المرض، ثم تعرض الأعراض وسير المرض، ثم التشريح المرضى للعضو المصاب وأخيرا المعالجة الوقائية والسببية.

ومن الأمثلة فى هذا المنهج، المبحث الأول فى "الاحتقان والالتهاب النزلى للغشاء المخاطى الحنجرى" والذى يعرف بالنزل الحنجرية.

أما كيفية الحصول فمتى امتلأت الأوعية الشعرية للأغشية المخاطية بالدم نشأ عن ذلك التهابات نزلية ونعنى بها نزول إفراز مرضى وانتفاخاً ورخاوة فى جوهرها وتكون خلية حديثة التكوين متفاوتة الكمية.

ويختلف الأشخاص من حيث استعدادهم للإصابة بالمرض، فالأشخاص ذوو البشرة الرقيقة الذين يعرقون بسهولة هم أكثر استعدادا للإصابة بهذا المرض، وذلك لأنه يحصل لهم تبريد فجائى عقب تصاعد الإفراز وكذلك الأشخاص المنهوكون قليلو المقاومة بالنسبة للمؤثرات الظاهرة أكثر تأثرا من غيرهم.

أما الأسباب المتممة لهذا المرض فهى كثيرة، أولها المؤثرات الوصفية التى تؤثر فى الغشاء المخاطى الحنجرى بكيفية مهيجة فتحدث فيه التهابا نزليا، وذلك كاستنشاق الهواء الزايد والروايح والأتربة والأبخرة الحريفة والسعال الشديد والصياح بصوت عالٍ والغناء ونحو ذلك.

وقد يحصل أيضاً من دخول السوائل المهيجة فى الحنجرة والماء الساخن شديد السخونة. وثانيها: حدوث الالتهاب النزلى بتأثير البرد على سطح الجلد ولاسيما إذا أثر على الأقدام، أو العنق. وثالثها: أن هذا الالتهاب قد يمتد من الأعضاء المجاورة إلى الغشاء المخاطى للحنجرة إذ كثيرا ما يحدث ذلك عند حصول نزلات أنفية، أو شعبية بدون أن تتأثر بأسباب مرضية جديدة. ورابعها: فى كثير من الأحيان يكون الالتهاب النزلى عرضا لمرض بيئى ناتج عن أصل معد، أو تسمم حاد فى الدم، أو مزمن كالحصبة، أو الجدرى، أو التيفوس، أو داء الزهرى.

أما عن التشريح المرضى فيظهر فى أحوال الالتهاب النزلى للغشاء المخاطى الحنجرى ويتسبب دائما فى درجة عظيمة من الاحمرار والاحتقان الوعائى، كما يظهر من شدة الظواهر المرضية مدة الحياة.

كما أنه يكون عرضه لحدوث بثور دموية صغيرة فى منسوج الغشاء المخاطى، كما يكون مغطى بإفراز مخاطى متعكر يشاهد فيه بالميكروسكوب خليات ممتدة شفافة تسمى بالخلية البشرية الجديدة، أو بالجسيمات المخاطية ومنسوج الغشاء نفسه يكون منتفخا رخوا هشا.

وفى الحالات المزمنة يوجد الغشاء المخاطى داكنا، أو أزرق محمرا، أو مسمرا وهذا ناتج عن تراكم مواد ملوثة.

أما المعالجة الوقائية فتكون بالتعود التدريجى على المؤثرات التى تحدث الالتهاب الحنجرى النزلى فمثلا لا يجب أن يترك الأطفال المصابون بهذا المرض فى المنازل بل يخرجون إلى الهواء الطلق، ويتدثرون بالملابس الثقيلة التى تحميهم من البرد مع عدم الإفراط فى تدثير العنق وتغطيته بأربطة من الصوف بل يكفى رباط خفيف من الصوف، أو الحرير.

وأما المعالجة السببية فهى إن كان الالتهاب النزلى ناتجا عن مهيجات لا وسطية فيجب أن نبعد المريض عن هذه المهيجات ولأجل ذلك يوضع المريض فى جو معتدل الحرارة ويتجنب التكلم بصوت عال، وكذلك يؤمر المريض بمقاومة التهيج المرضى والسعال. ولا يستمر على استعمال المشروبات السكرية الفاترة والمستحلبات ومما يعطى لتلطيف ذلك المسكنات ويجب الاحتراس فى استعمال هذه الوسايط مع الأطفال.

وكذلك فى المعالجة السببية نلجأ لاستعمال المعرقات إن كان الالتهاب النزلى ناشئا عن تأثير البرد فى الجلد والأقدام، أو العنق وأجودها استعمال المعرقات العطرية الفاترة وندثر العنق برباط من الصوف، أو وضع ضمادات خردلية، أو فاترة عليه وينصح أيضاً بلف الجسم بملاءة مبتلة بالماء البارد بعد عصرها جيدا وتركها حتى تسخن واستعمال الحمامات القديمة الباردة.

ومن أفضل المياه المستخدمة فى هذا المرض المياه القلوية وحدها، أو مخلوطة باللبن الفاتر ويجب البعد عن المأكولات الدسمة، أو المملحة والمنبهة فهى بيئة خصبة لهذا المرض ومن المفيد جدا هنا استخدام المياه الكبريتية - كمياه حلوان - فهى غزيرة فى كميتها ومعتدلة فى حرارتها .

ومن الموصى به بكثرة فى هذا المرض عدم ترك الأطفال ينامون مدة طويلة بل ينبغى إيقاظهم وإعطاؤهم بعض المشروبات فإنه عادة ما ينشأ عقب ذلك سعال، ومن ثم يمنع تراكم الإفراز المخاطى على حافة فوهة المزمار.

وهناك العديد من الملاحظات المهمة التى يجب أن نذكرها هنا، منها أن الكاتب كان يذكر آراء القدماء فى بعض الموضوعات ويصححها إذا كان فيها خطأ، ومن ذلك أنه نبه إلى أن الأقدمين كانوا لا يعرفون الالتهاب الحنجرى ذا الغشاء الكاذب بهذا الاسم، ولكنه عرف فى كتبهم باسم خناق وعرفوه على أنه امتناع التنفس، أو البلع وهو لا ينطبق على المرض الذى نحن بصدده ولا يدل على طبيعته من كل وجه بل أقرب اسم له هو "الخناق الحنجرى".

ومن الملاحظ استخدام المؤلف لمصطلحات كيميائية حديثة وأجهزة كذلك، ومن ذلك استخدام مصطلح تشخيص وتشريح ومن الأجهزة التى ذكرها "المنظار الحنجرى" (الميكروسكوب) وجهاز المعلم (سالتى جبرون).

ومن المصطلحات الكيميائية "كبريتوز الأنتيمون" و "كبريتات النحاس" ومحلول نترات الفضة" وغيرها كثير.

فهى مخطوطة ثرية دونت فى ٢٢٥ ورقة مقاس ١٤,٥ - ٢٠,٧ سم وبخط ديوانى.

٢٤- مخطوطة "كافية ذات اللب والفهم فى أصول علم الطب" للمؤلف "محمد بن عمر اليمنى أبو على".

- محفوظة بمكتبة جامعة الأمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم , ٨٣٤

هذه المخطوطة منظومة فى الطب، وقد بدأت بحمد الله والثناء عليه وعلى قدرته فى خلق الإنسان وتصويره فى أحسن صورة.

وكما هو واضح من العنوان فإنها ركزت على أصول علم الطب الذى هو علم " لا يمكن للناس الاستغناء عنه، وهو يعمل على حفظ الصحة الموجودة وجلب الصحة المفقودة ولابد لذلك من طبيب حاذق على علم بالغذاء والدواء والوقاية من الأمراض.

وتكون وقاية الجسم بالاقتصاد فى ثلاثة أمور: الجماع، الأكل والشرب، والهواء ولكل أمر آدابه التى لا يتم إلا بها ففى الطعام مثلا - لابد أن نمضغه

جيدا ونبدأ بالملح ولا ندخل طعاماً على آخر إلا بعد تمام هضم الأول ولا نجمع بين أطعمة مفرطة مثل السمك واللبن ولنأكل باليد اليمنى ونسمى الله ونحمده. أما الماء فيجب أن يكون عذبا باردا صافيا ومن بئر غزيرة تتعرض للشمس وتجعل النفس خارج الإناء عند الشرب.

ولتمام الوقاية علينا أن نتعهد الجسد بالنظافة والغسل وبقص الشعر وتمشيطه وتقليم الأظافر واستخدام السواك والبعد عن كل ما يصيب النفس من غم وغضب.

ولعموم الصحة على الإنسان أن يمزج زنجبيلاً وفلفلاً وقرنفلاً ومصطكى وعسلاً بنفس المقادير ويتناول منها وزن درهم على الريق.

أما أصول علم الطب فهى أربعة كفصول السنة وهى: الصفراء كالصيف والسوداء كالخريف والبلغم كالشتاء والدم كالربيع.

وهناك وسائل لإصلاح ما يفسد من هذه الأصول فالسوداء مثلا - يصلحها كل ما هو سخن رطب مثل ماء اللوبيا والزبد والسمن وكذلك الألبان ولحم الضأن والفراريج وصفار البيض والموز والزبيب والحلوى والرطب والعسل المنزوع منه الرغوة واللوز والكرات والحلبة ويصلح البلغم وقت السفر ما كان سخنا يابسا كالتمر والسمسم والبصل والثوم والسليط والجراد والحبة السوداء والرشاد والزنجبيل والفلفل والمر والحلتيت والقرنفل والباذنجان والمصطكى والملح واللبان.

وهناك علامات على فساد هذه الأصول فأول غلبة الدم - مثلا - فتدر الحواس وصداع الرأس ونستعمل له خلاً وحامض اللبن مع الخميرة وإذا أهملناه فإن العين تحمر ويتكون الرمد والجدرى والدمامل ونعالج الرمد بالمكث فى بيت مظلم واستخدام زلال البيض لتسكين الألم.

ومن مبادئ علاج الجدرى أن نسرع إلى شرب الحامض وأكل اللحم واللبن ودهن الجسد كله بالبصل ودقيق حلبة وبر ونخضب الرجل بالحنا ونمنع الغسل.

ومن مبادئ البلغم وعلامات فساده ارتخاء المفاصل وثقل الأعضاء فبادر بتعديل المزاج بعسل وزنجبيل خشية حدوث حمى مطبقة، أو عسر طلق، أو بياض البصر، أو برص، أو فالج، أو غيرها.

ولنعالج الحمى - إذا حدثت- بالخل والشهد وشرب الساخن لا البارد، ولعسر

الطلق تناول ثلاثة دراهم قرفة، ولبياض البصر زبد البحر كحلا وتقطير اللبان بعد نقعه فى الماء وللبرص أكل البر مع السمن والعسل والثوم والشهد على الريق.

والخاتمة هى كتابة اسم المخطوطة "كافية ذات اللب والفهم فى أصول علم الطب"، ثم حمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد دونت المخطوطة فى ٤ ورقات ونظمت فى ٢٣ : ٢٦ بيتا من مقاس ١١ - ١٧ سنتيمتراً وتقديرا، فقد نسخت فى ق ١٣هـ: ق ١٩م.

٢٥- مخطوطة "فوائد طبية" - مجهولة المؤلف.

- محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم ٢٣٦١.

هذه المخطوطة مجهولة المؤلف، وهى عبارة عن كراسة واحدة يبدو أن أحد المهتمين بالطب قد استخلصها لنفسه من مراجع عدة، ولذلك لم تزد أوراقها على أربع ورقات من مقاس ١٧,٤ - ٢٥ سنتيمتراً ودونها بخط الرقعة وكان ذلك تقديرا فى ق ١٣هـ: ق ١٩م.

واشتملت المخطوطة على عدة فوائد أولها عن الطبيب والتخصصات الطبية المعروفة فى هذا العهد والأدوات المستخدمة وقتها؛ فالكحال يعرف بمروده والختان بموسه والمجبر بخلعه وربطه ووصله والكواء بمكواته وناره والجرايحى بمبضعه ومراهمه فكل هؤلاء أطباء سواء كانوا بشريين أم بيطريين.

ولكن الحاذق من هؤلاء الأطباء هو الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرا، منها النظر فى نوع المرض وسببه والنظر فى سن المريض وبلده وقوة مقاومته للمرض وفصل السنة الذى أصيب فيه وحال الهواء وقتها، ثم النظر فى الدواء المضاد لهذا المرض وقوته والبدء بالأسهل، ثم الأصعب وليكن هدف الطبيب إزالة العلة مع الحرص على عدم حدوث مضاعفات.

وأهم ما فى هذه التوصيات أن يكون الطبيب على دراية بعلم القلوب والأرواح وإلا فهو متطبب وليس بطبيب فتقوية القلب وصلاحه وتزكية الروح فى التقرب إلى الله بالأعمال الصالحات من ذكر ودعاء وابتهال وصدقات.

أما بيت الداء فى البدن فهو المعدة - ونجد لها شرحا تشريحيا مفصلا يدل على تقدم الطب فى هذه الفترة - فهى عضو عصبى مجوف كالقرعة فى شكله

مركب من ثلاث طبقات مؤلفة من شظايا دقيقة عصبية تسمى الليف ويحيط بها لحم وليف آخر إحدى الطبقات بالطول والأخرى بالعرض والثالث بالوراب وفم المعدة أكثر عصبا وقعرها أكثر لحما، وهذا التركيب - بحكمة الخالق - يلائم وظيفتها وهى محل الهضم وينزل منها الغذاء المهضوم إلى الكبد والأمعاء، وقد تعجز المعدة عن هضم بعض الطعام ويتحول إلى فضلات وذلك بسبب كثرة الغذاء، أو رداءته، أو سوء ترتيبه فى تناوله، أو لمجموع ذلك وقد لا يستطيع الإنسان التخلص من هذه الفضلات فتكون المعدة هى بيت الداء.

وتأكيدا لذلك فإن العديد من الأمراض يحدث بفعل الأبخرة التى تصعد من المعدة فإن اندفعت إلى الخياشيم أحدثت الزكام وإن اندفعت إلى اللهاة والمنخرين أحدثت الخناق وإن اندفعت إلى الصدر أحدثت الزلة وإن انحدرت إلى القلب أحدثت الخبطة وإن اندفعت إلى العين أحدثت رمدا وإن انحدرت إلى الجوف أحدثت السيلان.

وهناك فائدة واحدة فى هذه المخطوطة جاءت نقلا عن "الحافظ بن كثير" وهى تعرض للخلاف بين العلماء فى قضية هل الروح هى النفس أم لا ؟ وانتهت إلى أن الروح ذات لطيفة كالهواء سارية فى الجسد سريان الماء فى عروق الشجر وإذا ما اتصلت بالبدن فهى النفس، الروح هى أصل والنفس مادتها.

أما الحافظ بن القيم فنقلت عنه المخطوطة أكثر من فائدة منها فائدة فى ضرورة استخدام الأدوية فى توقيت مناسب فلا يجب أن نلجأ إلى الأدوية إلا بعد أن نجرب دفع المرض بالأغذية فالدواء يضعف الصحة إذا لم يجد فى البدن داء يحلله، أو وجد داء لا يوافقه، أو كانت كميته زائدة عن المطلوب.

أما الماء فهو عصب الحياة فإن لجودته شروطاً فلابد أن يكون لونه صافيا وعديم الرائحة وطعمه عذباً وقوامه رقيقاً خفيفاً ومجراه طيباً ومنبعه بعيداً وحركته سريعة حتى تدفع الفضلات المخالطة وأن يكون متعرضا للشمس والهواء وأن يكون مصبه أخذا من الشمال إلى الجنوب، أو من المغرب إلى المشرق.

وختمت المخطوطة بفائدة حول علاج شرب الماء الكدر وذلك بأن يلقى فيه نوى المشمش، أو قطعة من خشب الساج، أو جمر ملتهب يطفأ فى الماء، فإن كدرته ترسب إلى أسفل.

٢٦- مخطوطة "ذهاب الكسوف والظلمة فى علم الطب والطبايع والحكما":

دون هذه المخطوطة الإمام "أبو محمد عبد الله بن غروب المراكشى القرشى". محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود تحت رقم ٣٣٢٩. تقديرا فى ق ١٣ هـ: ١٩م، وقد كتبها بنفسه بخط مغربى أندلسى والتنقيط على الطريقة المشرقية واستوفاها فى ٢٤٣ ورقة وبمقاس ١٦ - ٢١سنتيمترا وهذه المخطوطة يتضح منها اهتمام العلماء الأوائل بمعرفة "علم الإنسان".

فتعرض المؤلف فى البداية لدراسة "علم الطبيعة" وهو - عنده - العلم الذى يهتم بدراسة انتظام الكون وتراكب الأشياء ومن الطبايع ركبت الأدوية وانتفعنا بها.

ثم تعرض الكاتب لأهمية دراسة "الحكمة" وأن طلبها فريضة وإحاطة الإنسان بثمارها هى الكمال بالنسبة له، فهو بذلك يسعى إلى معرفة حقيقة ذاته وسر تميزه عن سائر المخلوقات. وقد دلت الدراسة على أن الكاتب ملم بالكثير من علم الفلك، حيث نجده يربط فى كل مثال كان يضربه عن تكوين أعضاء الإنسان يربطه بالكواكب وحركتها وعددها.

وقد استطاع الكاتب أن يصل إلى حقيقة تكوين الإنسان - من وجهة نظره - وكذلك تكوين عناصر الطبيعة الأربعة (الماء، التراب، الهواء، النار) فأول زوجين خلقا هما طبيعة الحرارة وطبيعة البرودة، ثم اختلطا فتولد الدوران ومن ذلك تولدت العناصر الطبيعية الأربعة ومنها خلقت السماوات والأرض فالنبات فالحيوان، ثم الحيوان الناطق "الإنسان" ونجد بعد ذلك دراسة لعلم الأخلاط الذى يوضح لنا كيف يصح بدن الإنسان ودراسة أخرى للأمزجة " وحالات الإنسان المزاجية والروحية وعلاقتها بصفات الإنسان الجسدية وهى الباب الأخير من هذه المخطوطة المكونة من سبعين باباً.

كانت تلك المخطوطات جزءاً من أهم ما دون فى العهد العثمانى وكما رأينا تناولت جل ما يهم العملية الطبية من وصف أمراض وشرح علاجات وذكر فوائد مختلف أنواع الثمار وامتدت أيضاً إلى تناول بعض العادات المستهجنة والآفات الاجتماعية المستحدثة والتحذير من مضارها والدعوة إلى هجرها ونبذها وتلطف البعض فكتب مخطوطات فى بعض المشروبات وبيان فائدتها مثل

مخطوطة "ذكر مس الطائف فى لطائف تقوى شاربى الشاى بالطائف" لعلى عبد الحق المعروف بالقومى محفوظة تحت رقم ٢١٩٠ جدار الوثائق القومية بالقاهرة.

ومنذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بدأت طباعة الكتب الطبية التى قام بتأليفها أطباء مصر الذين أتموا تعليمهم بالبلاد الأوربية ولكن لم يمنع هذا من وجود بعض المخطوطات التى ترجع إلى تلك الفترة مثل مخطوطة بعنوان (الطب الشرعى) تأليف عبد الحميد بك عامر والدكتور سيدنى سمث، وقد بدأها المؤلفان بتعريف الطب الشرعى وأنه يسمى أيضاً بالسياسى والحكمة وهو عبارة عن تطبيق كل من العلوم الطبية والطبيعية على الأسئلة الشرعية لأجل حلها، أو إيضاحها على قدر الإمكان، وبين واجب الطبيب الشرعى فى أن يكون على دراية بالعلوم الطبية والطبيعة العامة معرفة تامة وتطبيقها على الأسئلة الشرعية طبقا للأصول العامة والخاصة للمباحث الطبية والشرعية وتحتوى المخطوطة أيضاً على وصفات لأدوية مفردة ومركبة - وقد تم نسخها تقديرا نهاية القرن الثالث عشر الهجرى وقد طبعت هذه المخطوطة عام ١٩١٩م بمطبعة القد عام ١٩٢٥م ، وهناك مخطوطة أخرى فى (العمليات الجراحية) تأليف الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن أحمد الدرى ١٢٥٧ - ١٣١٨ هـ، وقد استهل المؤلف المخطوطة بالحديث عن طرق التخدير التى كانت متبعة قديما وما استحدث بعد ذلك حتى ظهور الكلوروفورم وكثرة استعماله، كما شرح العديد من العمليات الجراحية مثل عمليات الأوعية وربط الشرايين وعمليات البتر وعمليات الثقب المنشارى للجمجمة وعمليات الصدر والثدى والبطن والشرج والأعضاء التناسلية وغيرها وقد نسخ المخطوط تقديرا فى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى وهى محفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم ٢٩٧٢.

وبعد هذا العرض الموجز نستطيع أن نستخلص أن نسخ وتأليف المخطوطات الطبية قد ساعد إلى حد كبير على بقاء ذلك العلم حيا ومزدهراً ليقوم على خدمة أهل مصر ومحاولاً تخفيف آلامهم وشفائهم.

المراجع

أولاً - الوثائق:

١- وثائق أرشيف وزارة الاوقاف

٢- وثائق أرشيف دار الوثائق القومية

٣- وثائق أرشيف الشهر العقارى

٤- وثائق مكتبة وزارة التربية والتعليم

ثانياً - المراجع العربية:

١- د. أحمد السيد الصاوى، مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

٢- أحمد شمس الدين، التداوى بالأعشاب والنباتات قديماً وحديثاً، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.

٣- د. أحمد شوكت الشطى، الطب عند العرب، سلسلة العرب (٧)، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ب. ت.

٤- د. أحمد عزت عبدالكريم، تاريخ التعليم فى عصر محمد على، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨.

٥- د. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات الإسلامية، دار التراث العربى، بيروت، لبنان.

٦- د. إلهام محمد ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن ١٨، سلسلة تاريخ المصريين (٥٢)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢.

٧- أمين سامى باشا، تقويم النيل فى عصر محمد على، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٨.

٨- د. حسام الدين إسماعيل، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل ١٨٠٥ - ١٨٧٩، دار الآفاق العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.

٩- حسن فريد ابو غزالة، أمراض لها تاريخ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، سلسلة الثقافة العلمية، ط١، ١٩٩٥.

١٠- د. حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩.

١١- د. سمير يحيى الجمال

- تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الفرعونى، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٧٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

- العصر اليونانى والرومانى، تاريخ المصريين (٩٩)، ١٩٩٧.

- العصر الإسلامى، تاريخ المصريين رقم (١٥٧)، ١٩٩٩.

١٢- د. عامر النجار، فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.

١٣- د. محمود فوزى المناوى، د. حسنى محمد نويصر، تاريخ النهضة الطبية المصرية، متحف قصر العينى، مكتبة نهضة مصر، يناير ٢٠٠٠.

د. محمود فوزى المناوى،

- حكماء القصر العينى ، مكتبة نهضة مصر، ١٩٩٩.

- القصر العينى مدرسة تاريخ الحركة العلمية فى مصر الحديثة (العلوم الطبية)، أكاديمية البحث العلمى، القاهرة، ١٩٩٥.

١٤-ناصر أحمد إبراهيم، الأزمات فى مصر فى القرن ١٧، دار الآفاق العربية، ط١، القاهرة، ١٩٩٨ .

ثانياً - مراجع أجنبية معربة:

١) أصلان ابا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، اسطنبول، ١٩٨٧.

٢) أندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، ١٩٧٤.

٣) أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة ٩٦٩ إلى ١٩٦٩، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (١٢)، القاهرة، ١٩٨٦.

٤) جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة د. مصطفى العيادى، العدد ٣٠٨، مايو ١٩٩٠، سلسلة كتاب اليوم.

٥) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦) خالد فهمى، كل رجال الباشا محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١ .

رابعاً - رسائل جامعية غير منشورة:

١) سعاد محمد حسن، الحمامات فى مصر الإسلامية، دراسة آثارية معمارية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٣.

٢) عبد الرحيم خلف عبدالرحيم، الأدوات الجراحية والأمراض الطبية الإسلامية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجرى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، قسم الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩.

٣) على حسن زغلول، مدرسة السلطان حسن، رسالة ماجستير غير منشورة، آثار القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٤) محمد الششتاوى، منشآت رعاية الحيوانات بالقاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، دراسة أثرية وحضارية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠١.

٥) محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة إلى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أسيوط، كلية الآداب بسوهاج، يناير ١٩٨٠.

خامساً - مراجع أجنبية:

1-Creswill K.A.: A short account of early Muslim Architecture LGB

Anon Bookshop, 1968

2- : The Muslim Architecture of Egypt Ayyubids and early bahrite mam, Vol. II, Exford, 1959.

3- Hassan Kamal, Encyclopedia of Islamic Medicine, General Egyptian Book Organization, Cairo, 1975.

4- Islamic Culture and Medical Liberary of Medicine (Hospitals), New York, 1970.

5- Pool S.L.: History of Egypt in Middle Ages, Vol. VI, Fourth Edition, London, 1926.

6- Raymond, R., Twiet G, Les marches du Caire tradution drnotee dutexte de maqrizi Institut Fra., D'archeologis du Caire, 1979.

7- Roche Products on the Market, Scientific Office Hoffman La Roche LTD, March 1981.

8- May 1982

9- May 1981.

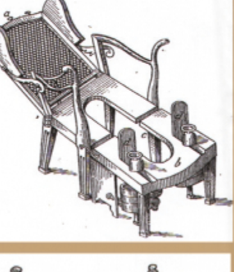
الفهرس

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

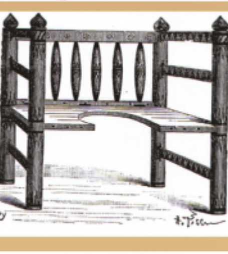
رقم الإيداع :

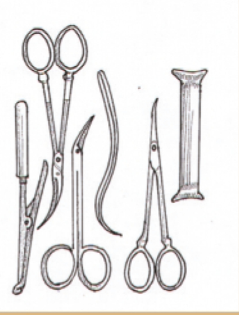
الترقيم الدولى :











هذا الكتاب

هذا الكتاب يمتزج فيه علما الآثار والتاريخ، بشقيه السياسى والاجتماعى، فسلط الضوء على حقبة مهمة فى تاريخ مصر امتدت أربعة قرون، منذ الحكم العثمانى حتى تولى محمد على حكم مصر (١٥١٧ - ١٩٠٠ م).

ولقد أبرز المؤلف ما عاناه المصريون من أمراض وأوبئة أودت بحياة الكثير منهم أيام الحكم العثمانى، ثم جاء عهد محمد على الذى أراد بناء مصر الحديثة، وكان الاهتمام بصحة المصريين من أهم الأولويات، فاهتم بإنشاء مدارس الطب وبناء المستشفيات وتأهيل الأطباء على أسس علمية.

وقد استعان المؤلف بعدد كبير من المخطوطات الطبية من خلالها نعرف التطور الطبى فى مصر وصحة المصريين، وتنير الطريق للباحثين فى تاريخ الطب عليهم أن يسلكوه.

رئيس التحرير

الثمن ١٠ جنيهات